

تفسير سورة عم

وتسمى سورة النبأ . وهى أربعون آية . وقيل : إحدى وأربعون آية . وهى مكية عند الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ عم ﴾ يتساءلون ﴿ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَابًا (٢٢) لَا ثَبِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وَفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) ﴾ .

قوله : ﴿ عم يتساءلون ﴾ أصله : عن ما ، فأدغمت النون فى الميم ، لأن الميم تشاركها فى الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف لتمييز الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فى ومم ونحو ذلك ، والمعنى : عن أى شئ يسأل بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿ عم ﴾ بحذف الألف لما ذكرنا ، وقرأ أبى وابن مسعود وعكرمة وعيسى بإثباتها ومنه قول الشاعر :

علاما قام يشتمنى لثيم كخنزير تمرغ فى دمان

ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة ، وقرأ البزى بهاء السكت عوضا عن الألف وروى ذلك عن ابن كثير . قال الزجاج : اللفظ لفظ استفهام ، والمعنى : تفخيم القصة كما تقول : أى شئ تريد : إذا عظمت شأنه . قال الواحدى : قال المفسرون : لما بعث رسول الله ﷺ وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن ، جعلوا يتساءلون بينهم يقولون : ماذا جاء به محمد وما الذى أتى به ؟ فأنزل الله : ﴿ عم يتساءلون ﴾ قال الفراء : التساؤل :

هو أن يسأل بعضهم بعضا كالتقابل ، وقد يستعمل أيضا في أن يتحدثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال قال الله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ [الطور : ٢٥] . ﴿ قال قائل منهم إني كان لى قرين ﴾ الآية [الصافات : ٥١] وهذا يدل على أنه التحدث ، ولفظ « ما » موضوع لطلب حقائق الأشياء وذلك يقتضى كون المطلوب مجهولا فجعل الشيء العظيم الذى يعجز العقل عن أن يحيط بكنهه كأنه مجهول ، ولهذا جاء سبحانه بلفظ « ما » .

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عن ماذا ، وبينه فقال : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ فأورده سبحانه أولا على طريقة الاستفهام مبهما لتوجه إليه أذهانهم وتلفتت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه كأنه قيل : عن أى شىء يتساءلون هل أخبركم به ؟ ثم قيل بطريق الجواب : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ على منهج قوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : ١٦] فالجار والمجرور متعلق بالفعل الذى قبله ، أو بما يدل عليه . قال ابن عطية : قال أكثر النحاة : عن النبأ العظيم متعلق بـ ﴿ يتساءلون ﴾ الظاهر ، كأنه قال : لم يتساءلون عن النبأ العظيم ؟ وقيل : ليس بمتعلق بالفعل المذكور ، لأنه كان يلزم دخول حرف الاستفهام فيكون التقدير أعن النبأ العظيم ؟ فلزم أن يتعلق بـ ﴿ يتساءلون ﴾ آخر مقدّر وإنما كان ذلك النبأ ، أى القرآن عظيما ؛ لأنه نبئ عن التوحيد وتصديق الرسول ووقوع البعث والنشور . قال الضحاك : يعنى : نبأ يوم القيامة ، وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ العظيم هو القرآن بقوله : ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾ فإنهم اختلفوا فى القرآن فجعله بعضهم سحرا وبعضهم شعرا وبعضهم كهانة وبعضهم قال : هو أساطير الاولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال : إنه قد وقع الاختلاف فى البعث فى الجملة ، فصدق به المؤمنون وكذب به الكافرون ، فقد وقع الاختلاف فيه من هذه الحيثية ، وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل ، وما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أتمم عنه معرضون ﴾ [ص : ٦٧ ، ٦٨] وما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتآباه عقولهم السخيفة ، وأيضاً فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم فى البعث ، فأثبت النصارى المعاد الروحانى ، وأثبت طائفة من اليهود المعاد الجسمانى ، وفى التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ « جنعيذا » بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مكسورة مهملة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف . وفى الإنجيل فى مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين والعذاب للعاصين وقد كانت بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [المؤمنون : ٣٧] وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه ، بل شاكة فيه . كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين ﴾ [الجاثية : ٣٢] وما حكاه عنهم بقوله : ﴿ وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى ﴾ [فصلت : ٥٠] فقد حصل الاختلاف بين

طوائف الكفر على هذه الصفة ، قد قيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ يتساءلون ﴾ يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعا كانوا يتساءلون عنه ، فأما المسلم فيزداد يقينا واستعدادا وبصيرة فى دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية . قال الرازى : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون : ما هذا الذى يعدنا به من أمر الآخرة ، والموصول فى محل جر صفة للنبا بعد وصفه بكونه عظيما فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ كلا سيعلمون ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل : إن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل : كلا بمعنى : حقا ، ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ للمبالغة فى التأكيد والتشديد فى الوعيد . قرأ الجمهور بالياء التحتية فى الفعلين على الغيبة . وقرأ الحسن وأبو العالية وابن دينار وابن عامر فى رواية عنه بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأوّل بالفوقية والثانى بالتحية . قال الضحاك أيضا : ﴿ كلا سيعلمون ﴾ يعنى : الكافرين عاقبة تكذيبهم . ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ يعنى : المؤمنين عاقبة تصديقهم . وقيل : بالعكس . وقيل : هو وعيد بعده وعيد . وقيل : المعنى : ﴿ كلا سيعلمون ﴾ عند النزاع ، ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ عند البعث .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه ، وعظيم قدرته ليعرفوا توحيده ، ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ﴾ أى قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، والمهاد : الوطاء والفراش كما فى قوله : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ [البقرة : ٢٢] قرأ الجمهور : ﴿ مهادا ﴾ وقرأ مجاهد وعيسى وبعض الكوفيين : «مهدا» والمعنى : أنها كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينوم عليه ، والأوتاد جمع وتد ، أى جعلنا الجبال أوتادا للأرض لتسكن ولا تتحرك كما يرسى الخيام بالأوتاد ، وفى هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث ، لا عن القرآن ، ولا عن نبوة محمد ﷺ كما قيل ؛ لأن هذا الدليل إنما يصلح للاستدلال به على البعث ، ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ معطوف على المضارع المنفى داخل فى حكمه ، فهو فى قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا : الأصناف ، أى الذكور والإناث . وقيل : المراد بالأزواج : الألوان . وقيل : يدخل فى هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير . ﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ أى راحة لأبدانكم . قال الزجاج : السبات : أن ينقطع عن الحركة والروح فى بدنه ، أى جعلنا نومكم راحة لكم . قال ابن الأنبارى : جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم ، لأن أصل السبت الققطع . وقيل : أصله : التمدد ، يقال : سبتت المرأة شعرها : إذا حلتها وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق ، أى ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد ، فسمى النوم سباتا ، وقيل : المعنى : وجعلنا نومكم موتا ، والنوم أحد الموتين ، فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم تفارقه الروح ، ومنه قول الشاعر :

ومطوية الأقارب أما نهارها فسبت وأما ليلها فذميل

ومن هذا قوله: ﴿اللَّهُ يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ الآية [الزمر: ٤٢] وقوله: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام : ٦٠] ﴿وجعلنا الليل لباسا﴾ أى نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس . وقال سعيد بن جبيرة والسدى : أى سكنا لكم . وقيل : المراد به : ما يستريح عند النوم من اللحاف ونحوه ، وهو بعيد ؛ لأن الحبل وقع على الليل ، لا على ما يستريح به النائم عند نومه ﴿وجعلنا النهار معاشا﴾ أى وقت معاش ، والمعاش : العيش ، وكل شئ يعاش به فهو معاش ، والمعنى : أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق . ﴿وبنينا فوقكم سبعا شدادا﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام ، كما ورد ذلك . ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ المراد به : الشمس ، وجعل هنا بمعنى : خلق ، وهكذا قوله : ﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾ وما بعده ، لأن هذه الأفعال قد تعدت إلى مفعولين فلا بد من تضمينها معنى فعل يتعدى إليهما كالخلق أو التصيير ونحو ذلك . وقيل : إن الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع فى جميع المواضع ، والمراد به : الإنشاء التكويني الذى بمعنى التقدير والتسوية . قال الزجاج : الوهاج : الوقاد وهو الذى وهج ، يقال : وهجت النار تهيج وهجا ووهاجا . قال مقاتل : جعل فيه نورا وحرّاً ، والوهج يجمع النور والحرارة .

﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾ المعصرات : هى السحاب التى تنعصر بالماء ولم تطر بعد ، كالمرأة المعتصرة التى قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك . وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي : هى الرياح ، والرياح تسمى معصرات ، يقال : أعصرت الرياح تعصر إعصاراً : إذا أثارت العجاج . قال الأزهري : هى الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر . وقال الفراء : المعصرات : السحاب التى يتحلب منها المطر . قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح : يقال للرياح التى تأتى بالمطر : معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قول واحد ، ويكون المعنى : وأنزلنا من ذوات المعصرات ماء ثجاجاً . قال فى الصحاح : والمعصرات : السحاب تعتصر بالمطر وعصر القوم أى مطروا . قال المبرد : يقال : سحاب معصر ، أى ممسك للماء يعتصر منه شئ بعد شئ . وقال أبى بن كعب والحسن وابن جبيرة وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات : السموات . والثجاج : المنصب بكثرة على جهة التتابع ، يقال : ثجج الماء ، أى سال بكثرة ، وثجه أى أماله . قال الزجاج : الثجاج : الصباب . قال ابن زيد : ثجاجاً : كثيراً : ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ أى لنخرج بذلك الماء حبا يقتات ، كالحنطة والشعير ونحوهما ، والنبات : ما تأكله الدواب من الحشيش وسائر النبات ، ﴿وجنات ألفافا﴾ أى بساتين ملتف بعضها ببعض لتسحب أغصانها ، ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخفاف . وقيل : واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي ، وقال أبو عبيدة : واحدها لفيف كشریف وأشرف ، وروى عن الكسائي أنها جمع الجمع ، يقال : جنة لفاف ونبت لف ، والجمع لف بضم

اللام مثل حمر ، ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف . وقيل : هو جمع ملتفة بحذف الزوائد . قال الفرّاء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ أى وقتا ومجمعا وميعادا للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا به من الثواب والعقاب ، وسمى يوم الفصل ؛ لأن الله يفصل فيه بين خلقه ، وهذا شروع فى بيان ما يتساءلون عنه من البعث ، وقيل : معنى ﴿ ميقاتا ﴾ أنه حدّ توقّت به الدنيا وتنتهى عنده . وقيل : حدّ للخلائق ينتهون إليه . ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾ أى يوم ينفخ فى الصور ، وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا : النفخة الثانية التى تكون للبعث ﴿ فتأتون ﴾ أى إلى موضع العرض ﴿ أفواجا ﴾ أى زمرا زمرا وجماعات جماعات وهى جمع فوج ، وانتصاب ﴿ يوم ينفخ ﴾ على أنه بدل من يوم الفصل ، أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخرا عن النفخ ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ، وانتصاب ﴿ أفواجا ﴾ على الحال من فاعل تأتون . والفاء فى : ﴿ فتأتون ﴾ فصيحة تدلّ على محذوف ، أى فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجا .

﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ معطوف على ينفخ ، وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، أى فتحت لنزول الملائكة ﴿ فكانت أبوابا ﴾ كما فى قوله : ﴿ ويوم تشقّق السماء بالغيام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : معنى ﴿ فتحت ﴾ : قطعت فصارت قطعاً كالأبواب . وقيل : أبوابها : طرقها . وقيل : تنحلّ وتتناثر حتى تصير فيها أبواب . وقيل : إن لكل عبد بابين فى السماء : باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب ، وظاهر قوله : ﴿ فكانت أبوابا ﴾ أنها صارت كلها أبوابا ، وليس المراد ذلك ؛ بل المراد : أنها صارت ذات أبواب كثيرة ، قرأ ابن عامر وحزمة والكسائى : ﴿ فتحت ﴾ مخففا ، وقرأ الباقر بالتشديد . ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ أى سيرت عن أماكنها فى الهواء ، وقلعت عن مقارّها فكانت هباء منبثا يظن الناظر أنها سراب . والمعنى : أن الجبال صارت كلا شىء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء ، وليس بماء . وقيل : معنى : ﴿ سيرت ﴾ أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مر السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] .

وقد ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ولكن الجمع بينها أن نقول : أول أحوالها : الاندكاك ، وهو قوله : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ [الحاقة : ١٤] وثانى أحوالها : أن تصير كالعهن المنفوش كما فى قوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : ٥] وثالث أحوالها : أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿ وبست الجبال بسا . فكانت هباء منبثا ﴾ [الواقعة : ٥ ، ٦] ورابع أحوالها : أن تنسف وتحملها الرياح كما فى قوله : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مرّ السحاب ﴾ [النمل : ٨٨] وخامس أحوالها : أن تصير سرابا ، أى لا شىء كما فى هذه الآية .

ثم شرع سبحانه فى تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ﴾ قال الأزهري : المرصاد المكان الذى يرصد الراصد فيه العدو . قال المبرد : مرصادا يرصدون به ، أى هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار . قال الحسن : إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء بجواز جاز ، ومن لم يجز بجواز حبس . وقال مقاتل : محبسا ، وقيل : طريقا وممرآ . قال فى الصحاح : الراصد للشئ الراقب له ، يقال : رصده يرصده رصدا ، والرصد : الترقب ، والمرصد : موضع الرصد ، قال الأصمعى : رصدته أرصده ترقبته ، ومعنى الآية : أن جهنم كانت فى حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هى فى نفسها متطلعة لمن يأتى إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر به ويأتى إليهم . والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هى مرصد له فقال : ﴿ للطاغين مأبا ﴾ أى مرجعا يرجعون إليه ، والمآب : المرجع ، يقال : أب يؤوب : إذا رجع ، والطاغى هو من طغى بالكفر و﴿ للطاغين ﴾ نعت لـ ﴿ مرصادا ﴾ متعلق بمحذوف ، و ﴿ مأبا ﴾ بدل من ﴿ مرصادا ﴾ ويجوز أن يكون للطاغين فى محل نصب على الحال من ﴿ مأبا ﴾ قدمت عليه لكونه نكرة ، وانتصاب ﴿ لابئين فيها ﴾ على الحال المقدرة من الضمير المستكن فى الطاغين . قرأ الجمهور : ﴿ لابئين ﴾ بالالف وقرأ حمزة والكسائى : « لبئين » بدون ألف ، وانتصاب ﴿ أحقابا ﴾ على الظرفية ، أى ماكثين فى النار ما دامت الأحقاب ، وهى لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهى جمع حقب بضميتين ، وهو الدهر ، والأحقاب : الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف ، قيل : هو ثمانون سنة ، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلثمائة وستون يوما ، اليوم ألف سنة من أيام الدنيا . وقيل : الأحقاب : وقت لشربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب . وقال السدى : الحقب : سبعون سنة ، وقال بشر بن كعب : ثلثمائة سنة . وقال ابن عمر : أربعون سنة . وقيل : ثلاثون ألف سنة . قال الحسن : الأحقاب لا يدرى أحد كم هى ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كآلف سنة . وقيل : الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والاولى ما ذكرناه أولا من أن المقصود بالآية التأيد لا التقييد . وحكى الواحدى : عن الحسن أنه قال : والله ما هى إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ، ثم آخر ، ثم كذلك إلى الأبد .

وجملة : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا ﴾ مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون فى جهنم أو فى الأحقاب بردا ينفعهم من حرها ولا شرابا ينفعهم من عطشها إلا حميما ، وهو الماء الحار ، وغساقا وهو صديد أهل النار ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من ضمير الطاغين ، أو صفة للأحقاب ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، ويجوز أن يكون متصلا من قوله : ﴿ شرابا ﴾ وقال مجاهد

والسدى وأبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوى : البرد المذكور فى هذه الآية هو النوم ، ومنه قول الكندى :

بردت مراشفها على فصدنى عنها وعن تقييلها البرد

أى النوم . قال الزجاج : أى لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد : بردا أى روحا وراحة قرأ الجمهور : «عساقا» بالتخفيف . وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين ، وقد تقدم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما فى سورة « ص » . ﴿ جزاء وفاقا ﴾ أى موافقا لأعمالهم ، وجزاء منتصب على المصدر ، ووفقا نعت له . قال الفراء والأخفش : جازيناهم جزاء وافق أعمالهم . قال الزجاج : جوزوا جزاء وافق أعمالهم . قال الفراء : الوفاق جمع الوفاق ، والوفوق والموافق واحد . قال مقاتل : وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار . وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة ، فأتاهم الله بما يسوؤهم : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ أى لا يرجون ثواب حساب . قال الزجاج : كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم ، والجملة تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذبا ﴾ أى كذبوا بالآيات القرآنية ، أو كذبوا بما هو أعم منها تكذيبا شديدا . وفعال من مصادر التفعّل ، قال الفراء : هى لغة فصيحة يمانية ، تقول : كذبت كذبا وخرقت القميص خرقا . قال فى الصحاح : وكذبوا بآياتنا كذبا هو أحد مصادر المشدّد ؛ لأن مصدره قد يجىء على تفعيل مثل التكليم ، وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعّل مثل : ﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾ [سبأ : ١٩] قرأ الجمهور ﴿ كذبا ﴾ بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب بالتخفيف ، وقال أبو على الفارسى : التخفيف والتشديد جميعا مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر : « كذابا » ، بضم الكاف والتشديد ، جمع كاذب . قال أبو حاتم : ونصبه على الحال . قال الزمخشري : وقد يكون يعنى على هذه القراءة ، بمعنى الواحد البليغ فى الكذب ، تقول : رجل كذاب كقولك : حسان وبخال .

﴿ وكل شيء أحصيناه كتابا ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ وكل ﴾ بالنصب على الاشتغال ، أى وأحصينا كل شيء أحصيناه . وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء ، وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وانتصاب ﴿ كتابا ﴾ على المصدرية لأحصيناه ؛ لأن أحصيناه فى معنى : كتبناه ، وقيل : هو منتصب على الحال ، أى مكتوبا ، قيل : المراد : كتبناه فى اللوح المحفوظ لتعرفه الملائكة ، وقيل : أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل : المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والاول أولى . ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ [يس : ١٢] ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات . قال الرأزى : هذه الفاء للجزاء ، فنبه على أن الأمر بالذوق معلل

بما تقدّم شرحه من قبائح أفعالهم ، ومن الزيادة فى عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدّلهم جلودا غيرها ، وكلما خبت النار زادهم الله سعيرا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس **﴿ عن النبأ العظيم ﴾** قال : القرآن ، وهذا مروى عن جماعة من التابعين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه فى قوله : **﴿ وجعلنا سراجا وهاجا ﴾** قال : مضيئاً **﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾** قال : السحاب **﴿ ماء ثجاجا ﴾** قال : منصبا . وأخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : **﴿ ثجاجا ﴾** قال : منصبا . وأخرج الشافعى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : **﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾** قال : يبعث الله الريح ، فتحمل الماء فيمرّ به السحاب ، فتدر كما تدر اللقحة ، والثجاج ينزل من السماء أمثال العزالي^(١) فتصرفه الرياح فينزل متفرقا . وأخرج ابن جرير ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن قتادة قال : فى قراءة ابن عباس **﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾** بالرياح . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، عنه فى قوله : **﴿ وجنات ألفافا ﴾** قال : ملتفة . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : يقول : التف بعضها ببعض . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا فى قوله : **﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾** قال : سراب الشمس الآل . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا : **﴿ لا يثين فيها أحقابا ﴾** قال : سنين .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سالم بن أبى الجعد قال : سأل على بن أبى طالب هلال الهجرى : ما تجدون الحقب فى كتاب الله ؟ قال : نجد ثمانين سنة ، كل سنة منها اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة . وأخرج سعيد بن منصور ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج البزار عن أبى هريرة رفعه قال : الحقب ثمانون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم كالف سنة مما تعدون . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : الحقب ثمانون عاما ، اليوم منها كسلس السنة . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى أمامة عن النبى **ﷺ** **﴿ لا يثين فيها أحقابا ﴾** قال : « الحقب ألف شهر ، والشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف سنة »^(٢) . وأخرج البزار وابن مردويه والديلمى عن ابن عمر عن النبى **ﷺ** قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا ، والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما ، واليوم ألف سنة مما تعدون »^(٣) . قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله .

(١) العزالي : جمع عزلاء ، وهى مصب الماء من الراوية . لسان العرب ٤٤٣/١١ .

(٢) الطبرانى (٧٩٥٧) وقال الهيثمى فى المجمع ١٣٦/٧ : « وفيه جعفر بن الزبير وهو ضعيف » .

(٣) الديلمى (٧٠٢٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٣٩٨/١٠ : « وفيه سليمان بن مسلم الخشاب وهو ضعيف جدا » .

وأخرج ابن مردويه ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « الحقب أربعون سنة » وأخرج ابن جرير عن خالد بن معدان في قوله : ﴿ لا يثنى فيها أحقابا ﴾ وقوله : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ١٠٨] إنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب ، لأن الله يقول : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً ﴾ قال : « قد انتهى حره » ﴿ وغساقاً ﴾ : « قد انتهى حره » . « وإن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه ، حتى يبقى عظاماً تققع » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ جزاء وفاقا ﴾ قال : وافق أعمالهم . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن عمرو قال : ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ فهم في مزيد من عذاب الله أبداً .

﴿ إِنَّا لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾

قوله : ﴿ إِنَّا لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين ، وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعد الله لهم من الشر ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالنعمة والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة : مفازة ، تفاؤلا بالخلاص منها . ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال : ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ وانتصابهما على أنهما بدل من مفازا بدل اشتمال ، أو بدل كل من كل على طريق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازة ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعنى ، وإذا كان ﴿ مفازا ﴾ بمعنى الفوز ، فيقدر مضاف محذوف ، أى الفوز حدائق ، وهى جمع حديقة: وهى البستان المحوَّط عليه، والأعنان جمع عنب، أى كروم أعنان: ﴿ وكواعب أترابا ﴾ الكواعب جمع كاعبة : وهى الناهدة ، يقال : كعبت الجارية تكعب تكعيبا وكعوبا ، ونهدت تنهد نهودا ، والمراد أنهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت : أى صارت ثديهن كالكعب فى صدورهن . قال الضحاك : الكواعب : العذارى . قال قيس بن عاصم :

وكم من حصان قد حوينا كريمة وكم كاعب لم تدرما البؤس معصر

وقال عمر بن أبى ربيعة :

وكان مجنى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

والأتراب : الأقران فى السن ، وقد تقدّم تحقيقه فى سورة البقرة . ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ أى محتلة . قال الحسن وقتادة وابن زيد : هى مترعة مملوءة يقال : أدهقت الكأس ، أى ملأتها . ومنه قول الشاعر :

ألا اسقنى صرفا سقاك الساقى من مائها بكأسك الدهاق

وقال سعيد بن جببر وعكرمة ومجاهد : ﴿ دهاقا ﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضا . وقال زيد ابن أسلم : ﴿ دهاقا ﴾ صافية . والمراد بالكأس : الإناء المعروف ، ولا يقال له : الكأس إلا إذا كان فيه الشراب : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة لغوا ، وهو الباطل من الكلام ، ولا كذابا ، أى ولا يكذب بعضهم بعضا . قرأ الجمهور : ﴿ كذابا ﴾ بالتشديد ، وقرأ الكسائى هنا بالتخفيف ، ووافق الجماعة على التشديد فى قوله : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ المتقدم فى هذه السورة للتصريح بفعله هناك ، وقد قدمنا الخلاف فى ﴿ كذابا ﴾ هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة ؟ ﴿ جزاء من ربك ﴾ أى جازاهم بما تقدم ذكره جزاء . قال الزجاج : المعنى : جازاهم جزاء ، وكذا : ﴿ عطاء ﴾ أى وأعطاهم عطاء ﴿ حسابا ﴾ قال أبو عبيدة : كافيا . وقال ابن قتيبة : كثيرا ، يقال : أحسبت فلانا ، أى أكثرته له العطاء ، ومنه قول الشاعر :

ونعطى وليد الحى إن كان جائعا ونحسبه إن كان ليس بجائع

قال ابن قتيبة : أى نعطيه حتى يقول : حسبى . قال الزجاج : حسابا ، أى ما يكفيهم . قال الأخفش : يقال : أحسبى كذا ، أى كفانى . قال الكلبي : حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشرا . وقال مجاهد : حسابا لما عملوه ، فالحساب بمعنى : القدر ، أى يقدر ما وجب له فى وعد الرب سبحانه ؛ فإنه وعد للحسنة عشرا ، ووعد لقوم سبعمئة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : ١٠] وقرأ أبو هاشم : « حسابا » بفتح الحاء وتشديد السين ، أى كفافا . قال الأصمعي : تقول العرب : حسبت الرجل : بالتشديد إذا أكرمته ، ومنه قول الشاعر :

إذا أتاه ضيفه يحسبه

وقرأ ابن عباس : « حسانا » بالنون : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ قرأ ابن مسعود ونافع وأبو عمرو وابن كثير ، وزيد عن يعقوب ، والمفضل ، عن عاصم ، برفع « رب » و « الرحمن » على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو على أن رب خبر مبتدأ مقدر : أى هو رب ، والرحمن صفته ، و ﴿ لا يملكون ﴾ خبر رب ، أو على أن رب مبتدأ ، والرحمن مبتدأ ثان ، ولا يملكون خبر المبتدأ الثانى ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، وقرأ يعقوب فى رواية عنه وابن عامر وعاصم فى رواية عنه بخفضهما على أن رب بدل من ربك ، والرحمن

صفة له ، وقرأ ابن عباس وحزمة والكسائي بخفض الأول على البدل ، ورفع الثاني على أنه خير مبتدأ محذوف ، أى هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيد وقال: هذه القراءة أعدلها، فخفض ربّ لقربه من ربك ، فيكون نعتا له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره: ﴿ لا يملكون منه خطابا ﴾ أى لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ، وقال الكسائي: لا يملكون منه خطابا بالشفاعة إلا بإذنه . وقيل : الخطاب : الكلام ، أى لا يملكون أن يخاطبوا الربّ سبحانه إلا بإذنه ، دليله : ﴿ لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ [هود : ١٠٥] وقيل: أراد : الكفار ، وأما المؤمنون فيشفعون ، ويجوز أن تكون هذه الجملة فى محل نصب على الحال على ما تقدّم بيانه ، ويجوز أن تكون مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية من العظمة والكبرياء .

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ الظرف متصّب بلا يتكلمون ، أو بلا يملكون ، وصفا متصّب على الحال ، أى مصطفين ، أو على المصدرية ، أى يصفون صفا ، وقوله : ﴿ لا يتكلمون ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة لتقرير ما قبله .

واختلف فى الروح ، فقيل : إنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال . وقيل : هو جبريل قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبير . وقيل : الروح جند من جنود الله ليسوا ملائكة قاله أبو صالح ومجاهد . وقيل : هم أشرف الملائكة قاله مقاتل ابن حيان . وقيل : هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبى نجيح . وقيل : بنو آدم قاله الحسن وقتادة . وقيل : هم أرواح بنى آدم تقوم صفا وتقوم الملائكة صفا ، وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام قاله عطية العوفى . وقيل : إنه القرآن ، قاله زيد بن أسلم .

وقوله : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ يجوز أن يكون بدلا من ضمير يتكلمون ، وأن يكون منصوبا على أصل الاستثناء ، والمعنى : لا يشفعون لأحد إلا من أذن له الرحمن بالشفاعة ، أو لا يتكلمون إلا فى حقّ من أذن له الرحمن وكان ذلك الشخص ممن ﴿ قال ﴾^(١) صوابا ﴾ قال الضحاك ومجاهد : ﴿ صوابا ﴾ يعنى : حقا . وقال أبو صالح : لا إله إلا الله . وأصل الصواب : السداد من القول والفعل . قيل : ﴿ لا يتكلمون ﴾ يعنى : الملائكة والروح الذين قاموا صفا هيبة وإجلالا إلا من أذن له الرحمن منهم فى الشفاعة ، وهم قد قالوا صوابا . قال الحسن : إن الروح تقوم يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل ، قال الواحدى : فهم لا يتكلمون ، يعنى : الخلق كلهم ، إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال فى الدنيا صوابا ، أى شهد بالتوحيد ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة ، وهو مبتدأ وخبره : ﴿ اليوم الحق ﴾ أى الكائن الواقع المتحقق ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾ أى مرجعا يرجع إليه بالعمل الصالح ، لأنه إذا عمل خيرا

(١) فى المطبوعة : « قالوا » .

قربه إلى الله ، وإذا عمل شرًا باعده منه ، ومعنى ﴿ إلى ربه ﴾ : إلى ثواب ربه . قال قتادة : ﴿ مآبًا ﴾ : سبيلا .

ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال : ﴿ إنا أنذركم عذابا قريبا ﴾ يعنى : العذاب فى الآخرة ، وكل ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ [النازعات : ٤٦] كذا قال الكلبي وغيره ، وقال قتادة : هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين . قال مقاتل : هو قتل قريش ببدر ، والأول أولى لقوله : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ فإن الظرف إما بدل من عذاب أو ظرف لمضمر هو صفة له ، أى عذابا كائنا ﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أى يشاهد ما قدمه من خير أو شر ، و« ما » موصولة أو استفهامية . قال الحسن : والمرء هنا هو : المؤمن ، أى يجد لنفسه عملا ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملا فيتمنى أن يكون ترابا . وقيل : المراد به : الكافر على العموم ، وقيل : أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط ، والأول أولى لقوله : ﴿ ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾ فإن الكافر واقع فى مقابلة المرء والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون ترابا لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب ، والمعنى : أنه يتمنى أنه كان ترابا فى الدنيا فلم يخلق ، أو ترابا يوم القيامة . وقيل : المراد بالكافر : أبو جهل . وقيل : أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومى . وقيل : إبليس ، والأول أولى اعتبارا بعموم اللفظ ، ولا ينافيه خصوص السبب كما تقدّم غير مرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن للمتقين مفازا ﴾ قال : منتزها ﴿ وكواعب ﴾ قال : نواهد ﴿ أتربا ﴾ قال : مستويات : ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ قال : ممتلئا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وكأسا دهاقا ﴾ قال : هى الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول : يا غلام ، اسقنا وادهق لنا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ دهاقا ﴾ قال : دراكا . وأخرج عبد بن حميد عنه أيضا قال : إذا كان فيها خمر فهى كأس . وإذا لم يكن فيها خمر فليس بكأس .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه عنه أيضا ؛ أن النبى ﷺ قال : « الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رؤوس وأيد وأرجل » ثم قرأ : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ قال هؤلاء جند وهؤلاء جند . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا ^(١) . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود قال : الروح فى السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف

(١) ابن جرير ١٥/٣٠ والبيهقى فى الأسماء والصفات ١٠٤/٢ .

تسيحة يخلق الله من كل تسيحة ملكا من الملائكة يجرى يوم القيامة صفا واحدا^(١) . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ما عبدناك حق عبادتك ، ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ . وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في قوله : ﴿ يوم يقوم الروح ﴾ قال : معنى : حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ وقال صوابا ﴾ قال : لا إله إلا الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور عن أبي هريرة قال : يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كونى ترابا ، فذلك حين يقول الكافر : ﴿ يا ليتنى كنت ترابا ﴾^(٢) .

(١) ابن جرير ١٥/٣٠ .

(٢) ابن جرير ١٧/٣٠ .

تفسير سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة . هي خمس وأربعون آية . وقيل : ست وأربعون آية . وهي مكية . بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : سورة النازعات بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالنَّازِعَاتُ غُرَقًا (١) وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْسَدُ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَأَنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَأَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنِي (١٨) وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى (٢٦) ۞ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم ، كما ينزع النازع في القوس ، فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات ، والسابقات ، والمدبرات : يعنى : الملائكة ، والعطف مع اتحاد الكل ؛ لتنزيل التباير الوصفى منزلة التباير الذاتى ، كما فى قول الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية فى المزدحم

وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وقال السدى : ﴿ النازعات ﴾ : هي النفوس حين تغرق فى الصدور . وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس . وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم : نزع إليه : إذا ذهب . أو من قولهم : نزعت بالحب ، أى أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان . وقال عطاء وعكرمة : النازعات : القسي تنزع بالسهم . وإغراق النازع فى القوس أن يمدّه غاية المدّ حتى ينتهى به إلى النصل . وقال يحيى بن سلام : تنزع بين الكلا وتنفر . وقيل : أراد

بالنازعات : الغزاة الرماة ، وانتصاب ﴿ غرقا ﴾ على أنه مصدر بحذف الزوائد ، أى إغراقا ، والناصب له ما قبله لملاقاته له فى المعنى ، أى إغراقا فى النزاع حيث تنزعها من أقاصى الأجساد ، أو على الحال ، أى ذوات إغراق ، يقال : أغرق فى الشيء يغرق فيه : إذا أوغل فيه وبلغ غايته .

ومعنى ﴿ الناشطات ﴾ : أنها تنشط النفوس ، أى تخرجها من الأجساد كما ينشط العقل من يد البعير ، إذا حلّ عنه ، ونشط الرجل الدلو من البئر : إذا أخرجها ، والنشاط : الجذب بسرعة ، ومنه الأنشطة للعقدة التى يسهل حلها . قال أبو زيد : نشطت الحبل أنشطه نشطا : عقدته ، وأنشطته ، أى حللته ، وأنشطت الحبل ، أى مددته . قال الفراء : أنشط العقل ، أى حلّ ونشط ، أى ربط الحبل فى يديه . قال الأصمعى : بثر أنشاط ، أى قريبة القعر يخرج الدلو منها بجذبة واحدة ، وبثر نشوط ، وهى التى لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيرا . وقال مجاهد : هو الموت ينشط نفس الإنسان . وقال السدى : هى النفوس حين تنشط من القدمين . وقال عكرمة وعطاء : هى الأوهاق التى تنشط السهام . وقال قتادة والحسن والأخفش : هى النجوم تنشط من أفق إلى أفق ، أى تذهب . قال فى الصحاح : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ : يعنى النجوم من برج إلى برج كالنور الناشط من بلد إلى بلد ، والهموم تنشط بصاحبها . وقال أبو عبيدة وقتادة : هى الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد . وقيل : الناشطات لأرواح المؤمنين ، والنازعات لأرواح الكافرين ؛ لأنها تجذب روح المؤمن برفق وتجذب روح الكافر بعنف ، وقوله : ﴿ نشطا ﴾ مصدر ، وكذا سبحا وسبقا ﴿ والسابحات ﴾ : الملائكة تسبح فى الأبدان لإخراج الروح كما يسبح الغواص فى البحر لإخراج شئ منه . وقال مجاهد وأبو صالح : هى الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله ، كما يقال للفرس الجواد : سابح : إذا أسرع فى جريه . وقال مجاهد أيضا : السابحات : الموت يسبح فى نفوس بنى آدم . وقيل : هى الخيل السابحة فى الغزو ، ومنه قول عترة :

والخيل تعلم حين تسبح فى حياض الموت سبحا

وقال قتادة والحسن : هى النجوم تسبح فى أفلاكها ، كما فى قوله : ﴿ كل فى فلك يسبحون ﴾ [يس : ٤٠] . وقال عطاء : هى السفن تسبح فى الماء . وقيل : هى أرواح المؤمنين تسبح شوقا إلى الله ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ : هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف . قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحى إلى الأنبياء . وقال أبو روق : هى الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح ، وروى نحوه عن مجاهد . وقال مقاتل : هى الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة . وقال الربيع : هى أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقا إلى الله . وقال مجاهد أيضا : هو الموت يسبق الإنسان . وقال قتادة والحسن ومعمر : هى يسبق بعضها فى السير بعضا . وقال عطاء : هى الخيل التى تسبق إلى الجهاد .

الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار . قال الجرجاني : عطف السابقات بالفاء ؛ لأنها مسببة من التي قبلها ، أى واللاتى يسبقن فيسبقن . تقول : قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سببا للذهاب ، ولو قلت : قام وذهب بالواو لم يكن القيام سببا للذهاب . قال الواحدى : وهذا غير مطرد فى قوله : ﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ ؛ لأنه يبعد أن يجعل السبق سببا للتدبير . قال الرازى : ويمكن الجواب عما قاله الواحدى : بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالا يتصل بعضها ببعض ، كقوله : قام زيد فذهب ولما سبقوا فى الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوض إليهم التدبير ، ويجاب عنه : بأن السبق لا يكون سببا للتدبير كسببية السبح للسبق والقيام للذهاب ، ومجرد الاتصال لا يوجب السببية والمسببية ، والأولى أن يقال : العطف بالفاء فى المدبرات طوبى به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ، ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله ؛ لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق للمطابقة وموافقته .

﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ قال القشيري : أجمعوا على أن المراد هنا : الملائكة . وقال الماوردي : فيه قولان : أحدهما : الملائكة وهو قول الجمهور . والثاني : أنها الكواكب السبع ، حكاه خالد ابن معدان عن معاذ بن جبل ، وفى تدبيرها الأمر وجهان : أحدهما : تدبر طلوعها وأقولها . الثاني : تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال ، ومعنى تدبير الملائكة للأمر : نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما ، والفاعل للتدبير فى الحقيقة ، وإن كان هو الله عز وجل ، لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به . وقيل : إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض فى الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها : مدبرات . قال عبد الرحمن بن سابط : تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم ، وجواب القسم بهذه الأمور التى أقسم الله بها محذوف ، أى والنازعات ، وكذا وكذا لتبعثن . قال الفرأء : وحذف لمعرفة السامعين به ، ويدل عليه قوله : ﴿ إذا كنا عظاما نخرة ﴾ . وقيل : إن جواب القسم قوله : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أى إن فى يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى . قال ابن الأنبارى : وهذا قبيح ؛ لأن الكلام قد طال بينهما . وقيل : جواب القسم ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ ؛ لأن المعنى : قد أتاك ، وهذا ضعيف جدا . وقيل : الجواب : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . وقال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير ، كأنه قال : فإذا هم بالساهرة والنازعات . قال ابن الأنبارى : وهذا خطأ ؛ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام ، والأولى .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدّر للقسم ، أو بإضمار اذكر ،

والراجفة : المضطربة . يقال : رجف يرجف : إذا اضطرب ، والمراد هنا : الصيحة العظيمة التى فيها تردّد واضطراب كالرعد ، وهى النفخة الأولى التى يموت بها جميع الخلائق ، والرادفة : النفخة الثانية التى تكون عند البعث ، وسميت رادفة ؛ لأنها ردت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين . وقال ابن زيد : الراجفة : الأرض ، والرادفة : الساعة . وقال مجاهد : الرادفة : الزلزلة ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ : الصيحة . وقيل : الراجفة : اضطراب الأرض ، والرادفة : الزلزلة ، وأصل الرجفة : الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط ، بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم : رجف الرعد يرجف رجفا ورجيفا : إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف ؛ لاضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومنه قول الشاعر :

أبا الأراجيف يا بن اللؤم توعدنى وفى الأراجيف خلت اللوم والخورا

ومحل ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ : النصب على الحال من الراجفة ، والمعنى : لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها . ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قلوب مبتدأ ، ويومئذ منصوب بواجفة ، وواجفة صفة قلوب . وجملة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ خبر قلوب ، والراجفة : المضطربة القلقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة . قال جمهور المفسرين : أى خائفة وجلّة . وقال السدى : زائلة عن أماكنها ، نظيره : ﴿ إذ القلوب لدى الخناجر ﴾ [غافر : ١٨] . وقال المؤرج : قلقة مستوفزة . وقال المبرد : مضطربة . يقال : وجف القلب يجف وجيفا : إذا خفق ، كما يقال : وجب يجب وجيبا ، والإيجاف : السير السريع ، فأصل الوجيف : اضطراب القلب ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

إن بنى جحججى وقومهم أكبادنا من ورائهم تحف

﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أى أبصار أصحابها . فحذف المضاف ، والخاشعة : الذليلة ، والمراد : أنها تظهر عليهم الذلة والخضوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ، كقوله : ﴿ خاشعين من الذل ﴾ [الشورى : ٤٥] . قال عطاء : يريد أبصار من مات على غير الإسلام ، ويدل على هذا أن السياق فى منكرى البعث . ﴿ يقولون أننا لمردودون فى الحافرة ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للبعث إذا قيل لهم : إنكم تبعثون ، أى أنرد إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ؟ يقال : رجع فلان فى حافرتة ، أى رجع من حيث جاء ، والحافرة عند العرب : اسم لأول الشئ وابتداء الأمر . ومنه قولهم : رجع فلان على حافرتة ، أى على الطريق الذى جاء منه . ويقال : اقتتل القوم عند الحافرة ، أى عند أول ما التقوا ، وسميت الطريق التى جاء منها حافرة ؛ لتأثيره فيها بمشيه فيها فهى حافرة بمعنى محفورة ، ومن هذا قول الشاعر :

أحافرة على صلع وشيب معاذ الله من سفه وعار

أى أأرجع إلى ما كنت عليه فى شبابى من الغزل بعد الشيب والصلع ؟! وقيل : الحافرة :

العاجلة ، والمعنى : إنا لمردودون إلى الدنيا . وقيل : الحافرة : الأرض التى تحفر فيها قبورهم ، ومنه قول الشاعر :

آليت لا أنساكم فاعلموا حتى يردّ الناس فى الحافرة

والمعنى : إنا لمردودون فى قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء ، وبه قال مجاهد . وقال ابن زيد : الحافرة : النار ، واستدلّ بقوله : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ فى الحافرة ﴾ . وقرأ أبو حيوة : « فى الحفرة » . ﴿ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً ﴾ أى بالية متفتتة . يقال : نخر العظم بالكسر : إذا بلى ، وهذا تأكيد لإنكار البعث ، أى كيف نردّ أحياء ونبعث إذا كنا عظاما نخرة ؟ والعامل فى إذا مضمّر يدلّ عليه مردودون ، أى أنذا كنا عظاما بالية نردّ ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة ؟ قرأ الجمهور : ﴿ نخرة ﴾ . وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر : « ناخرة » واختار القراءة الأولى أبو عبيد وأبو حاتم ، واختار القراءة الثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوى . قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة : التى لم تنخر بعد ، أى لم تبل ولا يدّ أن تنخر . وقيل : هما بمعنى . تقول العرب : نخر الشيء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك . قال الأخفش : هما جميعا لغتان أيهما قرأت فحسن . قال الشاعر :

يظلّ بها الشيخ الذى كان بادنا يدبّ على عوج له نخرات

يعنى : على قوائم عوج . وقيل : الناخرة : التى أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة : التى فسدت كلها . وقال مجاهد : نخرة : أى مرفوفة ، كما فى قوله : ﴿ رَفَاتًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] . وقد قرئ : « إذا كنا » و﴿ أنذا كنا ﴾ بالاستفهام وبعدمه . ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أى رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى : أنهم قالوا : إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد . وقيل : معنى ﴿ خاسرة ﴾ كاذبة ، أى ليست بكائنة . كذا قال الحسن وغيره . وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها . وقال قتادة ومحمد بن كعب : أى لئن رجعنا بعد الموت لنخسرنّ بالنار ، وإنما قالوا هذا ؛ لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة : الرجعة ، والجمع كرات . وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ تعليل لما يدلّ عليه ما تقدّم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى : لا تستبعدوا ذلك فإنما هى زجرة واحدة ، وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة : الصيحة ، وهى النفخة الثانية التى يكون البعث بها . وقيل : إن الضمير فى قوله : ﴿ إِنَّمَا هِيَ ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها . ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى فإذا الخلاق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض . قال الواحدي : المراد بالساهرة : وجه الأرض وظاهرها فى قول الجميع . قال الفراء : سميت بهذا الاسم ؛ لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم . وقيل : لأنه يسهر فى فلاتها خوفا منها ،

فسميت بذلك ، ومنه قول أبى كثير الهذلى :

يردون ساهرة كأنّ حميمها وغميمها أسداف ليل مظلم

وقول أمية بن أبى الصلت :

وفيها لحم ساهرة وبحر وما فاهوا به لهم مقيم

يريد لحم حيوان أرض ساهرة . قال فى الصحاح : الساهرة : وجه الأرض ، ومنه قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ . وقال : الساهرة : أرض بيضاء . وقيل : أرض من فضة لم يعص الله سبحانه فيها . وقيل الساهرة : الأرض السابعة ، يأتى بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق . وقال سفيان الثورى : الساهرة : أرض الشام . وقال قتادة : هى جهنم ، أى فإذا هؤلاء الكفار فى جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة ؛ لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم . وجملة : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله ﷺ عن تكذيب قومه وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى ﴿ هل أتاك ﴾ : قد جاءك وبلغك ، هذا على تقدير أنه قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه فى شأنهما فيكون المعنى على الاستفهام ، أى هل أتاك حديثه أنا أخبرك به .

﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ الظرف متعلق بـ ﴿ حديث ﴾ لا بـ ﴿ أتاك ﴾ لاختلاف وقتيهما وقد مضى من خبر موسى وفرعون فى غير موضع ما فيه كفاية ، وقد تقدم الاختلاف بين القرآء فى ﴿ طوى ﴾ فى سورة طه ، والواد المقدس : المبارك المطهر . قال الفراء ﴿ طوى ﴾ : واد بين المدينة ومصر ، قال : وهو معدول من طاو ، كما عدل عمر من عامر . قال : والصرف أحبّ إلىّ إذ لم أجد فى المعدول نظيراً له . وقيل : طوى معناه : يارجل بالعبرائية ، فكأنه قيل : يارجل اذهب . وقيل : المعنى : إن الوادى المقدس بورك فيه مرتين ، والأول أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه . ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ قيل : هو على تقدير القول . وقيل : هو تفسير للنداء ، أى ناداه نداء هو قوله : اذهب . وقيل : هو على حذف أن المفسرة ، ويؤيده قراءة ابن مسعود « أن ذهب » ؛ لأن فى النداء معنى القول ، وجملة : ﴿ إنه طغى ﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الامتثال ، أى جاوز الحد فى العصيان والتكبر والكفر بالله ﴿ فقل ﴾ له ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ أى قوله بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكى وهو التطهر من الشرك . وأصله : تزكى ، فحذفت إحدى التاءين . قرأ الجمهور : ﴿ تزكى ﴾ بالتخفيف . وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاى على إدغام التاء فى الزاى . قال أبو عمرو بن العلاء : معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفى الكلام مبتدأ مقدر يتعلق به إليه ، والتقدير : هل لك رغبة أو هل لك توجه أو هل لك سبيل إلى التزكى ؟ ومثل هذا قولهم : هل لك فى الخير ؟ يريدون : هل لك رغبة فى الخير ؟ ومن هذا قول الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فإننى بصير بما أعيى النطاسى جديما

﴿ وأهديك إلى ربك فتحشى ﴾ أى أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتحشى عقابه ، والفاء ترتيب الخشية على الهداية ، لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ هذه الفاء هى الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف ، يعنى : فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله فى غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال : ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها ﴾ [الأعراف : ١٠٦] فعند ذلك أراه الآية الكبرى . واختلف فى الآية الكبرى ما هى ؟ فقيل : العصا . وقيل : يده . وقيل : فلق البحر . وقيل : هى جميع ما جاء به من الآيات التسع ﴿ فكذب وعصى ﴾ أى فلما أراه الآية الكبرى كذب بموسى وبما جاء به وعصى الله عز وجل فلم يطعه . ﴿ ثم أدبر ﴾ أى تولى وأعرض عن الإيمان ﴿ يسعى ﴾ أى يعمل بالفساد فى الأرض ويجتهد فى معارضة ما جاء به موسى . وقيل : أدبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها . وقال الرازى : معنى ﴿ أدبر يسعى ﴾ : أقبل يسعى ، كما يقال : أقبل يفعل كذا ، أى أنشأ يفعل كذا ، فوضع أدبر موضع أقبل ؛ لثلاث يوصف بالإقبال . ﴿ فحشر ﴾ أى فجمع جنوده للقتال والمحاربة ، أو جمع السحرة للمعارضة ، أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع ، أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿ فنادى ﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿ أى قال لهم بصوت عال ، أو أمر من ينادى بهذا القول ، ومعنى ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ : أنه لا رب فوقى . قال عطاء : كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربّ أصنامكم . وقيل : أراد بكونه ربهم : أنه قائدهم وسائدهم ، والأوّل أولى لقوله فى آية أخرى : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] .

﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ النكال نعت مصدر محذوف ، أى أخذه أخذ نكال ، أو هو مصدر لفعل محذوف ، أى أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى . أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة . والمراد بنكال الآخرة : عذاب النار ، ونكال الأولى : عذاب الدنيا بالغرق . وقال مجاهد : عذاب أوّل عمره وآخره . وقال قتادة : الآخرة . قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى : تكذيبه لموسى . وقيل : الآخرة . قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ والأولى : قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له ، أى أخذه الله لأجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض ، أى بنكال . ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال : لأن معنى أخذه الله : نكل الله به ، فأخرج من معناه لا من لفظه . وقال الفراء : أى أخذه الله أخذاً نكالا ، أى للنكال ، والنكال : اسم لما جعل نكالا للغير ، أى عقوبة له ، يقال : نكل فلان بفلان : إذا عاقبه ، وأصل الكلمة من الامتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل : القيد . ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أى فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به عبرة عظيمة لمن شأنه أن يخشى الله ويتقيه ، ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر ، عن عليّ بن أبي طالب في قوله : ﴿ والنازعات غرقا ﴾ قال : هي الملائكة تنزع روح الكفار ﴿ والناشطات نشطا ﴾ قال : هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ﴿ والسابحات سبحا ﴾ هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ هي الملائكة يسبق بعضها بعضا بأرواح المؤمنين إلى الله ﴿ فالمديرات أمرا ﴾ هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ والنازعات غرقا ﴾ قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في النار . وأخرج الحاكم وصححه عنه : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا ﴾ قال : الموت . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿ والنازعات غرقا ﴾ قال : الملائكة الذين يلون أنفس الكفار إلى قوله : ﴿ والسابحات سبحا ﴾ قال : الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : قال لى رسول الله ﷺ : « لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار . قال الله : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ أتدرى ما هو ؟ » قلت : يابى الله ، ما هو ؟ قال : « كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب أن ابن الكوّاء سأله عن : ﴿ المديرات أمرا ﴾ قال : هي الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره . وأخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت عن ابن عباس قال : ﴿ المديرات أمرا ﴾ : ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموتى عند قبض أرواحهم ، فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصلى عليه ويدلى في حفرة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ قال : النفخة الأولى ﴿ تتبعها الرادفة ﴾ قال : النفخة الثانية ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : خائفة ﴿ إنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : الحياة . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبيّ بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربيع الليل قام فقال : « أيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » ^(١) . وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ترجف الأرض رجفا وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ » يقول : « مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائه » . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قال : وجلة متحركة . وأخرج عبد بن حميد عنه : ﴿ إنا لمردودون في الحافرة ﴾ قال : خلقا جديدا . وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن الأنباري في الوقف والابتداء ، وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضا ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ فقال : الساهرة : وجه الأرض ، وفي لفظ قال : الأرض كلها ساهرة ، ألا ترى قول الشاعر :

(١) أحمد ١٣٦/٥ والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٧) والحاكم ٥١٣/٢ والبيهقي في الشعب (١٤١٨) وإسناده حسن ، ورواية الترمذي : « كان إذا جاء ثلثا الليل » .

صيد بحر وصيد ساهرة

وأخرج البيهقي فى الأسماء والصفات عنه أيضا : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ قال : هل لك أن تقول : لا إله إلا الله ؟ . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة ﴾ قال : قوله : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ﴿ والأولى ﴾ قال : قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ [القصص : ٣٨] . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو قال : كان بين كلمتيه أربعون سنة .

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَفَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا (٤٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُورَثُهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ .

قوله : ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ ﴾ أى أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفى تقديركم أم خلق السماء ؟ والخطاب لكفار مكة ، والمقصود به : التوبيخ لهم والتبكيت ؛ لأن من قدر على خلق السماء التى لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التى أماتها بعد أن خلقها أول مرة ؟ ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ [يس : ٨١] . ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال : ﴿ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ، ورفع سمكها ، أى أعلاه فى الهواء ، فقوله : ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا ﴾ بيان للبناء ، يقال : سمكت الشيء ، أى رفعته فى الهواء ، وسمك الشيء سموكا : ارتفع . قال الفراء : كل شيء حمل شيئا من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسمام سامك ، أى عال ، والسموكات : السموات : ومنه قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعزّ وأطول

قال البغوى : رفع سمكها ، أى سقفاها . قال الكسائى والفراء والزجاج : تم الكلام عند قوله : ﴿ أم السماء بناها ﴾ لأنه من صلة السماء ، والتقدير : أم السماء التى بناها ،

فحذف التى ، ومثل هذا الحذف جائز . ومعنى ﴿ فسوأها ﴾ : فجعلها مستوى الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ولا شقوق . ﴿ وأغطش ليلها ﴾ الغطش : الظلمة ، أى جعله مظلماً . يقال : غطش الليل وأغطشه الله ، كما يقال : أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش وامرأة غطشى : لا يهتديان . قال الراغب : وأصله من الأغطش ، وهو الذى فى عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى : لا يهتدى فيها ، والتغاطش : التعامى . قال الأعشى :

ودهما بالليل غطشى الفلا ة يؤنسنى صوت قيادها

وقوله :

وغامرهم مدلهم غطش

يعنى : غمرهم سواد الليل ، وأضاف الليل إلى السماء ؛ لأن الليل يكون بغروب الشمس والشمس مضافة إلى السماء . ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أى أبرز نهارها المضى بإضاءة الشمس ، وعبر عن النهار بالضحى ؛ لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء ؛ لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهى منسوبة إلى السماء .

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أى بعد خلق السماء ، ومعنى ﴿ دحاها ﴾ : بسطها ، وهذا يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء ، ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم فى سورة فصلت من قوله : ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت : ١١] بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ، ثم خلق السماء ، ثم دحا الأرض . وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدّمنا أيضاً بحثاً فى هذا فى أول سورة البقرة عند قوله : ﴿ هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ﴾ [البقرة : ٢٩] وذكر بعض أهل العلم أن بعد بمعنى مع ، كما فى قوله : ﴿ عتلّ بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : ١٣] . وقيل بعد بمعنى قبل ، كقوله : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] أى من قبل : الذكر ، والجمع الذى ذكرناه أولى ، وهو قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير ، يقال : دحوت الشيء أدحوه : إذا بسطته ، ويقال : لعشّ النعامة : أدحى ؛ لأنه مبسوط على الأرض .

وأنشد المبرد :

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا

وقال أمية بن أبى الصلت :

وبثّ الخلق فيها إذ دحاها فهم قطانها حتى التنادى

وقال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخرًا ثقالا
دحاها فلما استوت شدّها بأيّد وأرسي عليها الجبالا

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وابن أبي عبلة وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ أى فجر من الأرض الأنهار والبحار والعيون . وأخرج منها مرعاها ، أى النبات الذى يرعى ، ومرعاها مصدر ميميّ ، أى رعيها ، وهو فى الأصل موضع الرعى ، والجملة إما بيان وتفسير لدحاها ؛ لأن السكتى لا تتأتى بمجرد البسط بل لابد من تسوية أمر المعاش من المأكّل والمشرب ، وإما فى محل نصب على الحال .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أى أثبتها فى الأرض وجعلها كالإوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تميد بأهلها . قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال . وقرأ الحسن وعمرو بن ميمون وأبو حيوة وأبو السماك وعمرو بن عبيد ونصر بن عاصم بالرفع على الابتداء . قيل : ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه للاهتمام بأمر المأكّل والمشرب ﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ أى منفعة لكم ولأنعامكم من البقر والإبل والغنم ، وانتصاب ﴿ متاعا ﴾ على المصدرية ، أى متعكم بذلك متاعا ، أو هو مصدر من غير لفظه ؛ لأن قوله : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بمعنى متع بذلك ، أو على أنه مفعول له ، أى فعل ذلك لأجل التمتع ، وإنما قال : ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى : يعمّ ما يأكله الناس والدواب .

﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على سائر الطامات . قال الحسن وغيره : وهى النفخة الثانية . وقال الضحاك وغيره : هى القيامة ، سميت بذلك ؛ لأنها تطمّ على كل شيء لعظم هولها . قال المبرد : الطامة عند العرب : الداهية التى لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم : طمّ الفرس طميما : إذا استفرغ جهده فى الجرى ، وطمّ الماء : إذا ملأ النهر كله . وقال غيره : هو من طمّ السيل الركبة ، أى دفنها ، والطمّ : الدفن . قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى : هى التى تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها ، وجواب إذا قيل هو قوله : ﴿ فأما من طغى ﴾ . وقيل : محذوف ، أى فإن الأمر كذلك ، أو عاينوا ، أو علموا أو أدخل أهل النار النار وأهل الجنة الجنة . وقال أبو البقاء : العامل فيها جوابها ، وهو معنى ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ فإنه منصوب بفعل مضمر ، أى أعنى يوم يتذكر يكون كيت وكيت . وقيل : إن الظرف بدل من إذا . وقيل : هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الإنسان ما سعى :

أو موصوله . ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ معطوف على جاءت ، ومعنى برزت : أظهرت إظهاراً لا يخفى على أحد . قال مقاتل : يكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل : ﴿ لمن يرى ﴾ من الكفار ، لا من المؤمنين ، والظاهر أن تبرز لكل راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غما إلى غمه وحسرة إلى حسرته . قرأ الجمهور : ﴿ لمن يرى ﴾ بالتحية . وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن عليّ بالفوقية ، أى لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يا محمد . وقرأ ابن مسعود : « لمن رأى » على صيغة الفعل الماضى .

﴿ فأما من طفئ ﴾ أى جاوز الحد فى الكفر والمعاصى . ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ أى قدمها عن الآخرة ولم يستعد لها ولا عمل عملها . ﴿ فإن الجحيم هى المأوى ﴾ أى مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، والمعنى : أنها منزله الذى ينزله ومأواه الذى يأوى إليه لا غيرها . ثم ذكر القسم الثانى من القسمين فقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أى حذر مقامه بين يدى ربه يوم القيامة . قال الربيع : مقامه يوم الحساب . قال قتادة : يقول : إن لله عزّ وجلّ مقاما قد خافه المؤمنون . وقال مجاهد : هو خوفه فى الدنيا من الله عزّ وجلّ عند مراقبة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : ٤٦] والأوّل أولى . ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ أى زجرها عن الميل إلى المعاصى والمحارم التى تشتهىها . قال مقاتل : هو الرجل يهمل بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ﴿ فإن الجنة هى المأوى ﴾ أى المنزل الذى ينزله والمكان الذى يأوى إليه لا غيرها .

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ أى متى وقوعها وقيامها . قال الفراء : أى منتهى قيامها كرسو السفينة . قال أبو عبيدة : ومرسى السفينة حين تنتهى ، والمعنى : يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا فى سورة الأعراف . ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ أى فى أى شىء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها ، والمعنى : لست فى شىء من علمها وذكراها إنما يعلمها الله سبحانه ، وهو إنكار وردّ لسؤال المشركين عنها ، أى فيم أنت من ذلك حتى يسألونك عنه ولست تعلمه ؟ ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ أى منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره ، وهذا كقوله : ﴿ قل إنما علمها عند ربى ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان : ٣٤] فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها ؟ ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أى مخوف لمن يخشى قيام الساعة ، وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الإخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه ، وخصّ الإنذار بمن يخشى ؛ لأنهم المتفعون بالإنذار وإن كان منذرا لكلّ مكلف من مسلم وكافر . قرأ الجمهور بإضافة : ﴿ منذر ﴾ إلى ما بعده . وقرأ عمر بن عبد العزيز وأبو جعفر وطلحة وابن محيصن وشيبة والأعرج وحמיד بالتونين ، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو . قال الفراء : والتونين

وتركه فى منذر صواب كقوله : ﴿ بالغ أمره ﴾ [الطلاق : ٣] ﴿ موهن كيد الكافرين ﴾ [الأنفال : ١٨] . قال أبو على الفارسى : يجوز أن تكون الإضافة للماضى ، نحو ضارب زيد أمس . ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أى إلا قدر آخر نهار أو أوله ، وأقدر الضحى الذى يلى تلك العشية ، والمراد : تقليل مدة الدنيا ، كما قال : ﴿ لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ [الأحقاف : ٣٥] . وقيل : لم يلبثوا فى قبورهم إلا عشية أو ضحاها . قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى إلى العشية : إضافته إلى يوم العشية على عادة العرب يقولون : آتتك الغداة أو عشيتها ، وآتتك العشية أو غداتها فتكون العشية فى معنى آخر النهار ، والغداة فى معنى أول النهار ، ومنه قول الشاعر :

نحن صبحنا عامرا فى دارها

جرداً تعادى طرفى نهارها

عشية الهلال أو سرارها

والجملة تقرير لما يدل عليه الإنذار من سرعة مجيء المنذر به .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ رفع سمكها ﴾ قال : بناها ﴿ وأعطش ليلها ﴾ قال : أظلم ليلها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ وأعطش ليلها ﴾ قال : وأظلم ليلها ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ قال : أخرج نهارها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاهما ﴾ قال : مع ذلك . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عنه أيضا : أن رجلا قال له : آيتان فى كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال : إنما آتيت من قبل رأيك ، قال : اقرأ : ﴿ قل إنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ حتى بلغ ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ [فصلت : ٩ - ١١] ، وقوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاهما ﴾ قال : خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ، ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء ، وإنما قوله : ﴿ دحاهما ﴾ بسطها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا قال : ﴿ دحاهما ﴾ : أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما فى يومين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الطامة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن على بن أبى طالب ، كان النبى ﷺ يسأل عن الساعة فتزلت : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر ، وإلخاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : ما زال رسول الله ﷺ يسأل عن الساعة حتى أنزل الله : ﴿ فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها ﴾ فأنتهى فلم يسأل عنها ^(١) . وأخرج عبد بن حميد والنسائى

(١) صححه إلخاكم ٢ / ٥١٣ ، ٥١٤ ووافقه الذهبى .

وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن طارق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يكثر ذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ فيم أنت من ذاكرها . إلى ربك منتهاها ﴾ فكف عنها ^(١) . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ، قال السيوطي : بسند ضعيف ، أن مشركي مكة سألوا النبي ﷺ فقالوا : متى الساعة استهزاء منهم ؟ فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ يعني مجيئها ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ يعني : ما أنت من علمها يا محمد ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ يعني : منتهى علمها . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على النبي ﷺ سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول : « إن يعيش هذا قامت عليكم ساعتكم » .

(١) النسائي في التفسير (٦٦٥) وإسناده حسن ، والطبراني (٨٢١٠) .

تفسير سورة عبس

وتسمى سورة السفرة ، وهي إحدى وأربعون أو اثنتان وأربعون آية . وهي مكية في قول الجميع . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة عبس بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَتَنَّهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَا مِنْ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَّا وَقُضِّبًا (٢٨) وَزَيَّنَّا أَنْخَلًا (٢٩) وَحَدَّائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ (٣٨) ضَاخِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

قوله : ﴿ عبس وتولى ﴾ أى كلىح بوجهه وأعرض . وقرئ « عبس » بالتشديد . ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ مفعول لأجله ، أى لأن جاءه الأعمى ، والعامل فيه إما « عبس » أو « تولى » على الاختلاف بين البصريين والكوفيين فى النزاع هل المختار إعمال الأول أو الثانى ؟ وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية : أن قومًا من أشراف قريش كانوا عند النبى ﷺ ، وقد طمع فى إسلامهم ، فأقبل عبد الله بن أم مكتوم ، فكره رسول الله ﷺ أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه فنزلت (١) ، وسيأتى فى آخر البحث بيان هذا إن شاء الله .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣١) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٥١٤/٢ ، ووافقه الذهبى ، وهو عن عائشة .

﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ التفت سبحانه إلى خطاب نبيه ﷺ ؛ لأن المشافهة أدخل في العتاب ، أى أى شئ يجعلك داريا بحاله حتى تعرض عنه ، وجملة : ﴿ لعله يزكى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافى الإعراض عنه ، أى لعله يتطهر من الذنوب ^(١) بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك ، فالضمير فى ﴿ لعله ﴾ راجع إلى ﴿ الأعمى ﴾ ، وقيل : هو راجع إلى الكافر ، أى وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأول أولى . وكلمة الترجى باعتبار من وجه إليه الخطاب للتنبيه على أن الإعراض عنه مع كونه مرجو التزكى مما لا يجوز . قرأ الجمهور : ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون استفهام ، ووجهه ما تقدم ، وقرأ الحسن : « آن جاءه » بالمدّ على الاستفهام ، فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دلّ عليه ﴿ عبس ﴾ و﴿ تولى ﴾ ، والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض ، ومثل هذه الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ [الآية : ٥٢] وكذلك قوله فى سورة الكهف : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ [الآية : ٢٨] .

وقوله : ﴿ أو يذكر ﴾ عطف على ﴿ يزكى ﴾ داخل معه فى حكم الترجى أى أو يتذكر فيعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿ فتتفعه الذكرى ﴾ أى الموعظة . قرأ الجمهور : ﴿ فتتفعه ﴾ بالرفع ، وقرأ عاصم وابن أبى إسحاق ^(٢) وعيسى والسلمى وزرّ بن حبّيش بالنصب على جواب الترجى . ﴿ أما من استغنى ﴾ أى كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الإيمان وعما عندك من العلم ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى تصنى لكلامه ، والتصدى : الإصغاء . قرأ الجمهور : ﴿ تصدى ﴾ بالتخفيف على طرح إحدى التاءين تخفيفا ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الإدغام ، وفى هذا مزيد تنفير له ﷺ عن الإقبال عليهم والإصغاء إلى كلامهم . ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى أى شئ عليك فى أن لا يسلم ولا يهتدى ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ ، فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ويجوز أن تكون « ما » نافية ، أى ليس عليك بأس فى أن لا يتزكى من تصدّيت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة فى محل نصب على الحال من ضمير تصدى .

ثم زاد سبحانه فى معاتبته رسوله ﷺ فقال : ﴿ وأما من جاءك يسعى ﴾ أى وصل إليك حال كونه مسرعا فى المجئ إليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله ، وجملة : ﴿ وهو يخشى ﴾ حال من فاعل يسعى على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف . ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أى تشاغل عنه وتعرض عن الإقبال عليه ، والتلهى : التشاغل والتغافل ، يقال : لهيت عن الأمر ألهى ، أى تشاغلت عنه ، وكذا تلهيت وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع له ﷺ عما عوتب عليه ، أى لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الإعراض عن الفقير ، والتصدى للغنى والتشاغل به ، مع كونه ليس ممن يتزكى عن إرشاد من جاءك من أهل التزكى والقبول

(١) فى المطبوعة : « بالذنوب » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة : « عاصم بن أبى إسحاق » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبي ٧٠٠٥/١٠ .

للموعظة ، وهذا الواقع من النبي ﷺ هو من باب ترك الأولى ، فأرشد الله سبحانه إلى ما هو الأولى به ﴿إنها تذكرة﴾ أى أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها ويعمل بها كل أمتك . ﴿فمن شاء ذكره﴾ أى فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة إلى الاهتمام بأمره ، وقيل : الضميران فى «إنها» ، وفى «ذكره» للقرآن ، وتأنث الأول لتأنيث خبره ، وقيل : الأول للسورة ، أو للآيات السابقة ، والثانى للتذكرة لأنها فى معنى الذكر . وقيل : إن معنى ﴿فمن شاء ذكره﴾ : فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به ، والأول أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿فى صحف﴾ أى إنها تذكرة كائنة فى صحف ، فالجار والمجرور صفة لـ «تذكرة» ، وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة ، ومعنى «مكرمة» : أنها مكربة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ . وقيل : المراد بالصحف : كتب الأنبياء ، كما فى قوله : ﴿إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى﴾ [الأعلى : ١٨ ، ١٩] ومعنى «مرفوعة» أنها رفيعة القدر عند الله . وقيل : مرفوعة فى السماء السابعة ، قال الواحدي : قال المفسرون : «مكرمة» يعنى : اللوح المحفوظ «مرفوعة» يعنى : فى السماء السابعة . قال ابن جرير : مرفوعة القدر والذكر . وقيل : مرفوعة عن الشبه والتناقض «مطهرة» أى منزهة لا يمسها إلا المطهرون . قال الحسن : مطهرة من كل دنس ، قال السدي : مصانة عن الكفار لا يتألفونها . «بأيدى سفرة» السفرة جمع سافر ككتبة وكاتب ، والمعنى : أنها بأيدى كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء : السفرة هنا : الملائكة : الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله من السفارة وهو السعى بين القوم ، وأنشد :

فما أدع السفارة بين قومى ولا أمشى بغير أب نسيب

قال الزجاج : وإنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر؛ لأن معناه : أنه بين ، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، وأسفرت المرأة : إذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة ، أى أصلحت بينهم . قال مجاهد : هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد ، وقال قتادة : السفرة هنا هم : القراء ؛ لأنهم يقرؤون الأسفار . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب النبي ﷺ . ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿كرام بررة﴾ أى كرام على ربهم ، كذا قال الكلبي ، وقال الحسن : كرام عن المعاصي ، فهم يرفعون أنفسهم عنها . وقيل : يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا بزوجته ، أو قضى حاجته . وقيل : يؤثرون منافع غيرهم على سنافعهم . وقيل : يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم ، والبررة : جمع بار ، مثل : كفره وكافر ، أى أتقياء مطيعون لربهم صادقون فى إيمانهم ، وقد تقدم تفسيره .

﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ أى لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره . وقيل : عذب . قيل : والمراد به : عتبة بن أبى لهب ، ومعنى ﴿ ما أكفره ﴾ : التعجب من إفراط كفره ، قال الزجاج : معناه : اعجبوا أنتم من كفره . وقيل : المراد بالإنسان من تقدم ذكره فى قوله : ﴿ أما من استغنى ﴾ وقيل : المراد به الجنس ، وهذا هو الأولى ، فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ، ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً . ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكف عن طغيانه فقال : ﴿ من أى شيء خلقه ﴾ أى من أى شيء خلق الله هذا الكافر ، والاستفهام للتقرير ، ثم فسر ذلك فقال : ﴿ من نقطة خلقه ﴾ أى من ماء مهين ، وهذا تحقير له ، قال الحسن : كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين ، ومعنى ﴿ فقدّره ﴾ أى فسوّاه وهيأه لمصالح نفسه ، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواس . وقيل : قدّره أطواراً من حال إلى حال ، نقطة ثم علقه إلى أن تم خلقه . ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ أى يسهّل له الطريق إلى الخير والشر ، وقال السدى ومقاتل وعطاء وقتادة : يسره للخروج من بطن أمه ، والأول أولى . ومثله قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] وانتصاب ﴿ السبيل ﴾ بمضمر يدل عليه الفعل المذكور ، أى يسر السبيل يسره . ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أى جعله بعد أن أماته ذا قبر يوارى فيه إكراماً له ، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله السباع والطير ، كذا قال الفراء : وقال أبو عبيدة : جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه ، وقال : ﴿ أقبره ﴾ ولم يقل : قبره ؛ لأن القابر هو الدافن بيده ، ومنه قول الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى صدرها عاش ولم ينقل إلى قابر

﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أى ثم إذا شاء إنشاره أنشره ، أى أحياه بعد موته ، وعلق الإنشار بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين ، بل هو تابع للمشيئة . قرأ الجمهور : ﴿ أنشره ﴾ بالألف ، وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبى حمزة « نشرة » بغير ألف ، وهما لغتان فصيحتان : ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ كلا ردع وزجر للإنسان الكافر ، أى ليس الأمر كما يقول . ومعنى ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ : لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل : المراد : الإنسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير . قال الحسن : أى حقاً لم يعمل ما أمر به . وقال ابن فورك : أى كلا لما يقض لهذا الكافر ما أمره به من الإيمان بل أمره بما لم يقض له . قال ابن الأنبارى : الوقف على « كلا » قبيح والوقف على ﴿ أمره ﴾ جيد ، و« كلا » على هذا بمعنى : حقاً ، وقيل : المعنى : لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره ، بل أخلّ به : بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله إلا القليل .

ثم شرع سبحانه فى تعداد نعمه على عباده ليشكروها ، وينزجروا عن كفرانها بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثه فقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ أى ينظر كيف خلق الله طعامه

الذى جعله سببا لحياته ؟ وكيف هيا له أسباب المعاش يستعدّ بها للسعادة الأخروية ؟ قال مجاهد : معناه : فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أى إلى مدخله ومخرجه ، والأوّل أولى . ثم بين ذلك سبحانه فقال : ﴿ أنا صببنا الماء صبا ﴾ قرأ الجمهور : « إنا » بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من ﴿ طعامه ﴾ بدل اشتغال لكون نزول المطر سببا لحصول الطعام ، فهو كالمشتمل عليه ، أوتقدير لام العلة ، قال الزجاج : الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام . المعنى : فلينظر الإنسان إلى أنا صببنا الماء صبا ، وأراد بصب الماء : المطر . وقرأ الحسن بن على بالفتح والإمالة . ﴿ ثم شققنا الأرض شققا ﴾ أى شققناها بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر شقا بديعا لائقا بما يخرج منه فى الصغر والكبر والشكل والهيئة .

ثم بين سبب هذا الشقّ وما وقع لأجله فقال : ﴿ فأنبثنا فيها حبا ﴾ يعنى : الحبوب التى يتغذى بها ، والمعنى : أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد إلى أن يصير حبا ، وقوله : ﴿ وعنبا ﴾ معطوف على ﴿ حبا ﴾ ، أى وأنبتنا فيها عنبا . قيل : وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف بجميع ما قيد به المعطوف عليه فلا ضير فى خلوّ إنبات العنب عن شقّ الأرض ، والقضب : هو القتّ الرطب الذى يقضب مرة بعد أخرى تعلّف به الدواب ، ولهذا سُمى قضا على مصدر قضبه ، أى قطعه كأنه لتكرّر قطعها نفس القطع . قال الخليل : القضب : الفصفصة الرطبة ، فإذا يبست فهى القتّ . قال فى الصحاح : والقضبة والقضب : الرطبة ، قال : والموضع الذى ينبت فيه مقضبة . قال القتيبيّ وتعلّب : وأهل مكة يسمون العنب : القضب ، والزيتون هو ما يعصر منه الزيت ، وهو شجرة الزيتون المعروفة ، والنخل هو جمع نخلة ﴿ وحدائق غلبا ﴾ جمع حديقة ، وهى البستان ، والغلب : العظام الغلاظ الرقاب ، وقال مجاهد ومقاتل : الغلب : الملتف بعضها ببعض ، يقال : رجل أغلب : إذا كان عظيم الرقة ، ويقال للأسد : أغلب ؛ لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعا . قال العجاج :

مازلت يوم البين ألوى صلبى والرأس حتى صرت مثل الأغلب

وجمع أغلب وغلباء : غلب ، كما جمع أحمر وحمراء على حمر ، وقال قتادة وابن زيد : الغلب : النخل الكرام ، وعن ابن زيد أيضا وعكرمة : هى غلاظ الأوساط والجذوع . والفاكهة : ما يأكله الإنسان من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوها ، والأب : كل ما أنبت الأرض مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكأ وسائر أنواع المرعى ، ومنه قول الشاعر :

جدنا قيس ونجد دارنا ولنا الأبّ بها والمكرع

قال الضحاك : الأبّ كل شئ ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبى طلحة : هو الثمار الرطبة ، وروى عن الضحاك أيضا أنه قال : هو التين خاصة ، والأوّل أولى . ثم شرع سبحانه فى بيان أحوال المعاد فقال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ يعنى : صيحة يوم القيامة ،

وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الأذان ، أى تصمها فلا تسمع . وقيل : سميت صاخة لأنها يصيخ لها الأسماع ، من قولك : أصخ إلى كذا أى استمع إليه ، والأول أصح . قال الخليل : الصاخة : صيحة تصخ الأذان حتى تصمها بشدة وقعها ، وأصل الكلمة فى اللغة مأخوذة من الصكّ الشديد ، يقال : صكه بالحجر : إذا صكه بها ، وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أى فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه ، والظرف فى قوله : ﴿ يوم يقرّ المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه ﴾ إما بدل من ﴿ إذا جاءت ﴾ ، أو منصوب بمقدّر ، أى أعنى ، ويكون تفسيراً للصاخة ، أو بدلاً منها مبنى على الفتح ، وخصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أخصّ القرابة ، وأولاهم بالحنوّ والرافة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع . ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أى لكل إنسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم . وقيل : إنما يقرّ عنهم حذراً من مطالبهم إياه بما بينهم . وقيل : يقرّ عنهم لثلا يروا ما هو فيه من الشدة . وقيل : لعلمه أنهم لا ينفعون ولا يغنون عنه شيئاً كما قال تعالى : ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ﴾ [الدخان : ٤١] والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سبب الفرار . قال ابن قتيبة : ﴿ يغنيه ﴾ أى يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال : أغن عنى وجهك ، أى اصرفه . قرأ الجمهور : ﴿ يغنيه ﴾ بالغيّن المعجمة ، وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء ، أى يهيمه ، من عناه الأمر إذا أهيمه .

﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة ؛ لأنه فى مقام التفصيل ، وهو من مسوّغات الابتداء بالنكرة ، ويومئذ متعلق به ، ومسفرة خبره ، ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ : مشرقة مضيئة ، وهى وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا إذ ذاك مالهم من النعيم والكرامة ، يقال : أسفر الصبح : إذا أضاء ، قال الضحاك : مسفرة من آثار الوضوء . وقيل : من قيام الليل . ﴿ ضاحكة مستبشرة ﴾ أى فرحة بما نالته من الثواب الجزيل . ثم لما فرغ من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أى غبار وكدورة لما تراه مما أعدّه الله لها من العذاب . ﴿ ترهقها قفرة ﴾ أى يغطها ويعلوها سواد وكسوف . وقيل : ذلة . وقيل : شدة . والقتر فى كلام العرب : الغبار ، كذا قال أبو عبيدة ، وأنشد قول الفرزدق :

متوّج برداء الملك يتبعه
فوج ترى فوقه الرايات والقترا

ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فإنها واحدة الغبار ، وقال زيد بن أسلم : القفرة : ما ارتفعت إلى السماء ، والغبرة : ما انحطت إلى الأرض ﴿ أولئك ﴾ يعنى : أصحاب الوجوه ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ أى الجامعون بين الكفر بالله والفجور . يقال : فجر ، أى فسق ، وفجر ، أى كذب ، وأصله الميل ، والفاجر : المائل عن الحق .

وقد أخرج الترمذى وحسنه ، وابن المنذر وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عبس وتولى ﴾ فى ابن أمّ مكتوم الأعمى أتى رسول الله ﷺ

فجعل يقول : يا رسول الله ، أرشدنى . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول : «أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول : لا . ففى هذا أنزلت^(١) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى عن أنس قال : جاء ابن أم مكتوم ، وهو يكلم أبى بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : ﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى ﴾ فكان النبى ﷺ بعد ذلك يكرمه^(٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينا رسول الله ﷺ يناجى عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام وكان يتصدى لهم كثيرا ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل عليه رجل أعمى يقال له : عبد الله بن أم مكتوم يمشى ، وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبى ﷺ آية من القرآن قال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وعبس فى وجهه وتولى وكره كلامه وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله ﷺ نجواه ، وأخذ يتقلب إلى أهله أمسك الله ببعض بصره ، ثم خفق برأسه ، ثم أنزل الله : ﴿ عبس وتولى ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبى الله ﷺ وكلمه وقال له : « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ » وإذا ذهب من عنده قال : « هل لك حاجة فى شىء ؟ » قال ابن كثير : فيه غرابة ، وقد تكلم فى إسناد^(٣) .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال : كتبه . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ قال : هم بالنبطية القراء . وأخرج ابن جرير عنه أيضا : ﴿ كرام بررة ﴾ قال : الملائكة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأه وهو عليه شاق له أجران »^(٤) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ قال : يعنى بذلك خروجه من بطن أمه يسره له .

وأخرج ابن المنذر عن عبد الله بن الزبير فى قوله : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ قال : إلى مدخله ومخرجه . وأخرج ابن أبى الدنيا عن ابن عباس : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ قال : إلى خرثه . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ أنا صبينا الماء صبا ﴾ قال : المطر ﴿ ثم شققنا الأرض شقا ﴾ قال : عن النبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ وقضيا ﴾ قال : الفصْفَصَة ، يعنى : القَتَّ ﴿ وحدائق غلبا ﴾ قال : طوالا ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ قال : الثمار الطيبة . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا قال : الحدائق : كل ملتف ، والغلب : ما غلظ ، والاب : ما أثبتت الأرض مما تأكله

(١) سبق تخريجه .

(٢) ابن جرير ٣٠/٣٣ وقال ابن كثير ٧/٢١٣ : « فيه غرابة ونكارة » .

(٣) أبو يعلى (٣١٢٣) .

(٤) البخارى فى التفسير (٤٩٣٧) ومسلم فى صلاة المسافرين (٢٤٤/٧٩٨) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدواب ولا يأكله الناس . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ وحداق غلبا ﴾ قال : شجر فى الجنة يستظل به لا يحمل شيئا . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : الأب : الكلاء والمرعى . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد عن إبراهيم التيمى قال : سئل أبو بكر الصديق عن الأب ماهو ؟ . فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله ما لا أعلم ؟ . وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد : أن رجلا سأل عمر عن قوله : ﴿ وأبأ ﴾ فلما رأهم يقولون أقبل عليهم بالدرة . وأخرج ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب عن أنس ؛ أن عمر قرأ على المنبر : ﴿ فأنبئتنا فيها حبا . وعنبا ﴾ إلى قوله : ﴿ وأبأ ﴾ قال : كل هذا قد عرفناه ، فما الأب ؟ ثم نقض عصى كانت فى يده فقال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك أن لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه ^(١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : الصاخة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مسفرة ﴾ قال : مشرقة ، وفى قوله : ﴿ ترهقها قفرة ﴾ قال : تغشاها شدة وذلة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ قفرة ﴾ قال : سواد الوجه .

(١) ابن جرير ٣٨/٣٠ وصححه الحاكم ٥١٤/٢ ، ووافقه الذهبى .

تفسير سورة التكوير

وهي تسع وعشرون آية . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة وابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن المنذر والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ، و﴿ إذا السماء انشقت ﴾ » (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ (١) وإذا النجوم انكدرت (٢) وإذا الجبال سيرت (٣) وإذا العشار عطلت (٤) وإذا الوحوش حشرت (٥) وإذا البحار سجرت (٦) وإذا النفوس زوجت (٧) وإذا الموءودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩) وإذا الصحف نشرت (١٠) وإذا السماء Kusht (١١) وإذا الجحيم سعرت (١٢) وإذا الجنة أزلقت (١٣) علمت نفس ما أحضرت (١٤) فلا أقسم بالخنس (١٥) الجوار الكنس (١٦) والليل إذا عسعس (١٧) والصبح إذا تنفس (١٨) إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مطّاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴿

قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين . وأما عند الكوفيين والأخفش فهو مرتفع على الابتداء ، والتكوير الجمع ، وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها . قال الزجاج : لفت كما تلف العمامة ، يقال : كورت العمامة على رأسى أكورها كورا ، وكورتها تكويرا : إذا لففتها . قال أبو عبيدة : كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع . قال الربيع بن خثيم : ﴿ كورت ﴾ أى رمى بها ، ومنه كورته فتكور ، أى سقط ، وقال مقاتل وقتادة والكلبي : ذهب ضوءها .

(١) أحمد ٢٧/٢ والترمذي فى التفسير (٣٣٣٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وصححه الحاكم ٥١٥/٢ ، ووافقه الذهبي .

وقال مجاهد : اضمحلت . قال الواحدى : قال المفسرون : تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالخاصل أن التكوين إما بمعنى لفّ جرماً ، أو لفّ ضوءها . أو الرمي بها . ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ أى تهافتت وانقضت وتناكرت ، يقال : انكدر الطائر من الهواء : إذا انقضّ ، والأصل فى الانكدار الانصباب قال الخليل : يقال : انكدر عليهم النوم : إذا جاؤوا أرسالا فانصبوا عليهم . قال أبو عبيدة : انصبت كما ينصب العقاب . قال الكلبي وعطاء : تمطر السماء يومئذ نجوماً ، فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع على الأرض ، وقيل : انكدارها : طمس نورها : ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ أى قلعت عن الأرض ، وسيرت فى الهواء ، ومنه قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] .

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ العشار : النوق الخوامل التى فى بطونها أولادها الواحدة عشاء ، وهى التى قد أتى عليها فى الحمل عشرة أشهر ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخصّ العشار لأنها أنفس مال عند العرب ، وأعزّه عندهم ، ومعنى ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ : تركت هملاً بلا راع ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم . قيل : وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا تكون فيه ناقة عشاء ، بل المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشاء فى ذلك اليوم ، أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالا بما هو فيه من هول يوم القيامة وسيأتى آخر البحث إن شاء الله ما يفيد أن هذا فى الدنيا . وقيل : العشار : السحاب ، فإن العرب تشبهها بالحامل ، ومنه قوله : ﴿ وَالْحَامِلَاتِ وَقرأ ﴾ [الذاريات : ٢] وتعطيلها عدم إمطارها قرأ الجمهور : ﴿ عُطِّلَتْ ﴾ بالتشديد ، وقرأ ابن كثير فى رواية عنه بالتخفيف . وقيل : المراد أن الديار تعطل فلا تسكن . وقيل : الأرض التى تعشر زرعها تعطل فلا تزرع .

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ الوحوش : ما توحش من دواب البر ، ومعنى ﴿ حُشِرَتْ ﴾ : بعثت حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجما من القرناء . وقيل : حشرها موتها . وقيل : إنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبددها فى الصحارى تضم ذلك اليوم إليهم . قرأ الجمهور : ﴿ حُشِرَتْ ﴾ بالتخفيف . وقرأ الحسن وعمر بن ميمون بالتشديد : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ ﴾ أى أوقدت فصارت نارا تضطرم . وقال الفراء : ملئت بأن صارت بحرا واحدا وكثر ماؤها ، وبه قال الربيع بن خثيم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك . وقيل : أرسل عذبتها على مالحتها ومالحتها على عذبتها حتى امتلأت ، [يقال : سجرت الخوض أسجره سجرا : إذا ملأته]^(١) . وقيل : فجرت فصارت بحرا واحدا ، وروى عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية : يبست ولا يبقى فيها قطرة ، وقال الفشيري : هو من سجرت النور أسجره سجرا : إذا

(١) ما بين المعقوفين نقل إلى هذا الموضع ليستقيم المعنى ، وكان بالمخطوطة والمطبوعة بعد قول قتادة وابن حبان وهو غير مناسب .

أحميته . قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم : أوقدت فصارت ناراً . وقيل : معنى سجرت : أنها صارت حمراء كالدم ، من قولهم عين سجراء ، أى حمراء . قرأ الجمهور : ﴿سجرت﴾ بتشديد الجيم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أى قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة . وقرن بين رجل السوء مع رجل السوء فى النار ، وقال عطاء : زوجت نفوس المؤمنين بالخور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين . وقيل : قرن كل شكل إلى شكله فى العمل ، وهو راجع إلى القول الأول . وقيل : قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما فى قوله : ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات : ٢٢] وقال عكرمة : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ يعنى : قرنت الأرواح بالأجسام . وقال الحسن : ألحق كل امرئ بشيعته : اليهود باليهود ، والنصارى بالنصارى ، والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين ، والمؤمنون بالمؤمنين . وقيل : يقرن الغاوى بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين . وقيل : قرنت النفوس بأعمالها . ﴿ وإذا المؤودة سئلت ﴾ أى المدفونة حية ، وقد كان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة ، يقال : وأد يئد (١) وأدا فهو وائد ، والمفعول به مؤوود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن ، فيطرح عليها التراب فيثقلها فتموت ، ومنه : ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ [البقرة : ٢٥٥] أى لا يثقله ، ومنه قول متمم بن نويرة :

ومؤودة مقبرة فى مغارة

ومنه قول الراجز :

سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت

قرأ الجمهور : ﴿ المؤودة ﴾ بهمزة بين واوين ساكنين كالموودة ، وقرأ البزى فى رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش : « المودة » بزنة الموزة . وقرأ الجمهور : ﴿سئلت﴾ سنيا للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل . وقرأ الجمهور : ﴿قتلت﴾ بالتخفيف سنيا للمفعول . وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير ، وقرأ على وابن مسعود وابن عباس سألت مبنياً للفاعل : « قتلت » بضم التاء الأخيرة ، ومعنى ﴿سئلت﴾ على قراءة الجمهور : أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كان لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد . قال الحسن : أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وفى مصحف أبى : « وإذا المؤودة سألت بأى ذنب

(١) فى المطبوعة : « ياند » ، والصحيح ما أثبتناه .

قتلتني». ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ يعنى : صحائف الأعمال نشرت للحساب ، لأنها تطوى عند الموت وتشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها ، فيقول : ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ [الكهف : ٤٧]. قرأ نافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو : ﴿ نشرت ﴾ بالتخفيف . وقرأ الباقر بالتشديد على التكثير . ﴿ وإذا السماء كَشِطَتْ ﴾ الكشط : قلع عن شدة التزاق ، فالسما تكشط كما يكشط الجلد عن الكرش ، والقشط بالقاف لغة فى الكشط ، وهى قراءة ابن مسعود . قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف . وقال الفراء : نزعت فطويت . وقال مقاتل : كشفت عما فيها . قال الواحدي : ومعنى الكشط : رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أوقدت لأعداء الله إيقادا شديدا . قرأ الجمهور : « سعرت » بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وحفص بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة . قال قتادة : سعتها غضب الله وخطايا بنى آدم . ﴿ وإذا الجنة أزلقت ﴾ أى قربت إلى المتقين وأدنت منهم . قال الحسن : إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها . وقال ابن زيد : معنى ﴿ أزلقت ﴾ : تزينت . والأول أولى لأن الزلفى فى كلام العرب القرب . قيل : هذه الأمور الاثنا عشر : ست منها فى الدنيا . وهى : من أول السورة إلى قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ وست فى الآخرة وهى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى هنا . وجواب الجميع قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة ، لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم فى كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف : يعنى : ما عملت من خير أو شر . ومعنى ﴿ ما أحضرت ﴾ : ما أحضرت من أعمالها ، والمراد : حضور صحائف الأعمال ، أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدلّ عليها وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس ، أو لبعض منها للإيدان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدلّ على هذا قوله : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ [آل عمران : ٣٠] وقيل : يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هى تلك التى علمت ما أحضرت ، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه : لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله .

﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ « لا » زائدة كما تقدّم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال فى أول سورة القيامة ، أى فأقسم بالخنس ، وهى الكواكب ، وسميت بالخنس ، من خنس : إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى ، وهى زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره

أهل التفسير ووجه تخصيصها بالذكر من بين سائر النجوم إنها تستقبل الشمس وتقطع المجرة ، وقال فى الصحاح : الخنس : الكواكب كلها ، لأنها تخنس فى المغيب ، أو لأنها تخفى نهاراً ، أو يقال : هى الكواكب السيارة منها دون الثابتة . قال الفراء : إنها الكواكب الخمسة المذكورة ، لأنها تخنس فى مجراها وتكنس : أى تستتر كما تكنس الأطباء فى المغار ، ويقال : سميت خنسا لتأخرها ، لأنها الكواكب المتحيرة التى ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوسا : إذا تأخر ، وأخنسه غيره : إذا خلفه ومضى عنه ، والخنس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الأرنبة . ومعنى ﴿ الجوار ﴾ أنها تجرى مع الشمس والقمر ، ومعنى ﴿ الكنس ﴾ أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس ، فخنوسها رجوعها ، وكنوسها اختفائها تحت ضوءها . وقيل : خنوسها ، خفاؤها بالنهار ، وكنوسها : غروبها . قال الحسن وقتادة : هى النجوم التى تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب ؛ لأنها تتأخر فى النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس فى وقت غروبها . وقيل : المراد بها بقر الوحش لأنها تتصف بالخنس وبالجوار وبالكنس . وقال عكرمة : الخنس : البقر ، والكنس : الظباء ، فهى تخنس : إذا رأت الإنسان وتتقبض وتتأخر وتدخل كناسها . وقيل : هى الملائكة ، والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا ، والكنس مأخوذ من الكناس الذى يختفى فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كانس وكانسة .

﴿ والليل إذا عسعس ﴾ قال أهل اللغة : هو من الأضداد ، يقال : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس : إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس : أدبر ، كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال الحسن : أقبل بظلامه . قال الفراء : العرب تقول : عسعس الليل : إذا أقبل ، وعسعس الليل : إذا أدبر ، وهذا لا ينافى ما تقدم عنه ، لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه فى هذه الآية على أدبر ، وإن كان فى الأصل مشتركا بين الإقبال والإدبار . قال المبرد : هو من الأضداد . قال : والمعنيان يرجعان إلى شئ واحد وهو ابتداء الظلام فى أوله وإدباره فى آخره . قال رؤبة بن العجاج :

ياهند ما أسرع ما تعسعا من بعد ما كان فتى ترعرعا

وقال امرؤ القيس :

عسعس حتى لونها إذا دنا كان لنا من ناره مقتبس

وقوله :

والماء على الربع القديم تعسعا

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ : التنفس فى الأصل : خروج النسيم من الجوف وتنفس الصبح إقباله ، لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً . قال الواحدى : ﴿ تنفس ﴾ أى امتد ضوءه حتى يصير نهارة ، ومنه يقال للنهار إذا زاد : تنفس ، وقيل : ﴿ إذا تنفس ﴾ : إذا انشق وانفلق ، ومنه : تنفست القوس ، أى تصدعت . ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعنى : جبريل لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله ﷺ وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلًا به . وقيل : المراد بالرسول فى الآية : محمد ﷺ ، والاول أولى . ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ أى ذى قوة شديدة فى القيام بما كلف به ، كما فى قوله : ﴿ شديد القوى ﴾ [النجم : ٥] ومعنى ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ : أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكيّنة عند الله سبحانه ، وهو فى محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف ، فلما قدّم صار حالاً ويجوز ، أن يكون نعتاً لرسول ، يقال : مكن فلان عند فلان مكانه ، أى صار ذا منزلة عنده ومكانة . قال أبو صالح : من مكانته عند ذى العرش أنه يدخل سبعين مرادفاً بغير إذن ، ومعنى ﴿ مطاع ﴾ : أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ﴿ ثم أمين ﴾ قرأ الجمهور بفتح : ﴿ ثم ﴾ على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعده ، والمعنى : أنه مطاع فى السموات أو أمين فيها ، أى مؤتمن على الوحي وغيره ، وقرأ هشيم وأبو جعفر وأبو حيوة بضمها على أنها عاطفة ، وكان العطف بها للتراخي فى الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ، ومن قال : إن المراد بالرسول : محمد ﷺ فالمعنى : أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة مطاع يطيعه ، من أطاع الله أمين على الوحي .

﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ الخطاب لأهل مكة ، والمراد بصاحبهم : رسول الله ﷺ ، والمعنى : وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصّحبة للإشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره فى شيء ، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم ، وهذه الجملة داخلة فى جواب القسم ، فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل ، وأن محمداً ﷺ ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتى بالقرآن من جهة نفسه : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ اللام جواب قسم محذوف ، أى وتالله لقد رأى محمد جبريل بالأفق المبين : أى بمطلع الشمس من قبل المشرق لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين لأن من جهته ترى الأشياء . وقيل : الأفق المبين : أقطار السماء ونواحيها ، ومنه قول الشاعر :

أخذنا بأقطار السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وإنما قال سبحانه : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ مع أنه قد رآه غير مرة ، لأنه رآه هذه المرة

فى صورته ، له ستمائة جناح ، قال سفيان : إنه رآه فى أفق السماء الشرقى ، وقال ابن بحر : فى أفق السماء الغربى . وقال مجاهد : رآه نحو أجياد ^(١) وهو مشرق مكة . و﴿ المبين ﴾ صفة للأفق قاله الربيع . وقيل : صفة لمن رآه قاله مجاهد . وقيل : معنى الآية : ولقد رأى محمد ربه عز وجل ، وقد تقدّم القول فى هذا فى سورة النجم . ﴿ وما هو ﴾ أى محمد ﷺ ﴿ على الغيب ﴾ يعنى : خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائبا علمه عن أهل مكة ﴿ بضنين ﴾ بمتهم ، أى هو ثقة فيما يؤدى عن الله سبحانه . وقيل : ﴿ بضنين ﴾ ببخيل ، أى لا يبخل بالوحى ، ولا يقصر فى التبليغ ، وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء ، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى : « بضنين » بالظاء المشالة ، أى بمتهم ، والظنة التهمة ، واختار هذه القراءة أبو عبيد قال : لأنهم لم يبخلوا ولكن كذبوه . وقرأ الباقر : ﴿ بضنين ﴾ بالضاد ، أى ببخيل ، من ضننت بالشئ أضنن ضنا : إذا بخلت ، قال مجاهد : أى لا يظنّ عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه . وقيل : المراد جبريل إنه ليس على الغيب بضنين ، والأول أولى .

﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أى وما القرآن بقول شيطان من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب . قال الكلبي : يقول : إن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش . قال عطاء : يريد بالشيطان : الشيطان الأبيض الذى كان يأتى النبى ﷺ فى صورة جبريل يريد أن يفتنه . ثم بكتهم سبحانه وبخهم فقال : ﴿ فأين تذهبون ﴾ أى أين تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته كذا قال قتادة . وقال الزجاج : معناه : أى طريق تسلكون أين من هذه الطريقة التى قد بينت لكم ، يقال : أين تذهب ، وإلى أين تذهب ؟ وحكى الفراء عن العرب : ذهبت الشام ، وخرجت العراق ، وانطلقت السوق ، أى إليها . قال سمعناه فى هذه الأحرف ، وأشد لبعض بنى عقيل :

تصبح بنا حنيفة إذ رأنا وأى الأرض تذهب بالصياح

تريد إلى أى الأرض تذهب ، فحذف إلى . ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم . وقوله . ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ بدل من العالمين بإعادة الجار ومفعول المشيئة : ﴿ أن يستقيم ﴾ أى لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة . ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أى وما تشاؤون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة فى التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ [يونس : ١٠٠] وقوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل

(١) فى المطبوعة : « رآه نحو جباب نحو أجياد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ومن القرطبي ٧٠٣٢/١٠ .

شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴿ [الأنعام : ١١١] وقوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : ٥٦] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال : أظلمت ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : تغيرت . وأخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مريم أن النبي ﷺ . قال في قوله : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ^(١) قال : كورت في جهنم ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ قال : انكدرت في جهنم . فكل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يعيدا لدخلاها . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي العالية قال : ست آيات من هذه السورة في الدنيا ، والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ إلى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ إلى ﴿ وإذا الجنة أزلقت ﴾ هذه في الآخرة . وأخرج ابن أبي الدنيا في الأحوال ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففرغت الجن إلى الإنس وإلى الجن واختلطت الدواب والطيور والوحش فماجوا بعضهم في بعض ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : اختلطت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : قالت الجن للإنس نحن ناتيكم بالخير ، فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج ، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة ، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريح فأماتهم ^(٢) .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : حشر البهائم موتها ، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس فإنهما يوافيان يوم القيامة ^(٣) . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، والخطيب في المتفق والمفترق عنه في قوله : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال : يحشر كل شيء يوم القيامة حتى إن الدواب لتحشر . وأخرج البيهقي في البعث عنه أيضا في قوله : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : تسجر حتى تصير نارا . وأخرج الطبراني عنه : ﴿ سجرت ﴾ قال : اختلط ماؤها بماء الأرض . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في البعث عن النعمان بن بشير عن عمر بن

(١) في المطبوعة : « إذا السماء كورت » وهو خطأ . (٢) ابن جرير ٤٣/٣٠ .

(٣) صححه الحاكم ٥١٥/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

الخطاب في قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، كذلك تزويج الأنفس : وفي رواية : ثم قرأ : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [الصافات : ٢٢] . وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعا . وأخرج البزار والحاكم في الكنى ، والبيهقي في سننه عن عمر بن الخطاب قال : جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله ﷺ فقال : إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية ، فقال له رسول الله ﷺ : « أعتق عن كل واحدة رقبة » ، قال : إني صاحب إبل . قال : « فأهد عن كل واحدة بدنة » (١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنْزِلَتْ ﴾ قال : قربت . وأخرج سعيد ابن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه من طرق عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ ﴾ قال : هي الكواكب تكنس بالليل وتخس بالنهار فلا ترى . وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله : ﴿ لَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ ﴾ قال : خمسة أنجم : زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ، ليس شيء يقطع المجرة غيرها . وأخرج ابن مردويه ، والخطيب في كتاب النجوم عن ابن عباس في الآية قال : هي النجوم السبعة : زحل وبهرام وعطارد والمشتري والزهرة والشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها ، وكنوسها تغيبها بالنهار . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن مسعود في قوله : ﴿ بِالْخَنَسِ . الْجَوَارِي الْكَنَسِ ﴾ قال : هي بقر الوحش . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : هي البقر تكنس إلى الظل . وأخرج ابن المنذر عنه قال : تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه . وأخرج ابن جرير عنه أيضا قال : هي الظباء . وأخرج ابن راهويه وعبد بن حميد ، والبيهقي في الشعب عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ الْجَوَارِي الْكَنَسِ ﴾ قال : هي الكواكب . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس : ﴿ الْخَنَسِ ﴾ البقر ﴿ الْجَوَارِي الْكَنَسِ ﴾ : الظباء ، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدّت نظرها . وأخرج أبو أحمد الحاكم في الكنى عن أبي العديس قال : كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ﴿ الْجَوَارِي الْكَنَسِ ﴾ ؟ فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه ، فقال عمر : أحرورى ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتكم مخلوقا لأنحيت القمل عن رأسك ، وهذا منكرو ، فالحرورية لم يكونوا في زمن عمر ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴾ قال : إذا أدبر ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ قال : إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

وأخرج الطبرانى عنه : ﴿ إذا عسعس ﴾ قال : إقبال سواده . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ قال : جبريل . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن ابن مسعود : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ قال : رأى جبريل له ستمائة جناح قد سدّ الأفق . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس فى الآية قال : إنما عنى جبريل أن محمدا رآه فى صورته عند سدرة المنتهى . وأخرج ابن مردويه عنه ﴿ بالأفق المبين ﴾ قال : السماء السابعة . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ بضنين ﴾ بالضاد ، وقال : ببخيل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ : « وما هو على الغيب بظنين » بالظاء قال : ليس بمتهم . وأخرج الدارقطنى فى الأفراد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والخطيب فى تاريخه عن عائشة ؛ أن النبى ﷺ كان يقرؤه : « بظنين » بالظاء ^(١) . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ قالوا : الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن شئنا لم نستقم ، فهبط جبريل على رسول الله ﷺ فقال : كذبوا يا محمد ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين ﴾ .

(١) صححه الحاكم ٢/٢٥٢ وقال الذهبى : « إسحاق متروك » .

تفسير سورة الانفطار

هى تسع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج النسائي عن جابر قال : قام معاذ فضلى العشاء فطول ، فقال النبى ﷺ : « أفئتان أنت يامعاذ ، أين أنت عن ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ﴾ والضحى ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ » وأصل الحديث فى الصحيحين ^(١) ولكن بدون ذكر . ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ وقد تفرّد بها النسائي ، وقد تقدّم فى سورة التكويد حديث : « من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأى العين فليقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [التكويد : ١] و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشقت ﴾ [الانشقاق : ١] » ^(٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴾

قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ قال الواحدي : قال المفسرون : انفطارها انشقاقها كقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزُلُ الْمَلَائِكَةِ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٥] . والفطر : الشق ، يقال : فطرته فانفطر ، ومنه : فطر ناب البعير : إذا طلع ، قيل : والمراد : أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها . وقيل : انفطرت لهيبة الله . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ أى تساقطت متفرقة ، يقال : نثرت الشيء أثره نثرا . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحراً واحداً ، واختلط العذب منها بالمالح ، وقال الحسن : معنى ﴿ فُجِرَتْ ﴾ : ذهب ماؤها وييست ، وهذه الأشياء بين يدي الساعة كما تقدم فى السورة التى قبل هذه ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ

(١) البخارى فى الأذان (٧٠٥) ، مسلم فى الصلاة (٤٦٥ / ١٧٩) ، النسائي فى التفسير (٦٧٢) .

(٢) سبق تخريجه .

بعثرت ﴿ أى قلب ترابها وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال : بعثر يبعثر بعثرة : إذا قلب التراب ، ويقال : بعثر المتاع : قلبه ظهرا لبطن ، وبعثرت الحوض وبعثرت : إذا هدمته وجعلت أعلاه أسفله . قال الفراء : ﴿ بعثرت ﴾ أخرج ما فى بطنها من الذهب والفضة ، ذلك من أشراط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها .

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ والمعنى : أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، والكلام فى أفراد نفس هنا كما تقدم فى السورة الأولى فى قوله : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ [التكوير: ١٤] ومعنى ﴿ ما قدمت وأخرت ﴾ : ما قدمت من عمل خير أو شر ، وما أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها ، وقال قتادة: ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة، وقيل : ما قدمت من فرض وأخر من فرض. وقيل: أول عمله وآخره . وقيل : إن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علما إجماليا لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصى يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلى فإنما يحصل عند نشر الصحف .

﴿ يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾ هذا خطاب للكفار ، أى ما الذى غرّك وخدعك حتى كفرت بربك الكريم الذى تفضل عليك فى الدنيا بإكمال خلقك وحواسك ، وجعلك عاقلا فاهما ، ورزقك وأنعم عليك بنعمه التى لا تقدر على جحد شيء منها . قال قتادة : غرّ شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن : غرّ شيطانه الخبيث . وقيل : حمقه وجهله . وقيل : غرّ عفو الله إذا لم يعاجله بعقوبة أول مرة ، كذا قال مقاتل . ﴿ الذى خلقك فسواك فعدّلك ﴾ أى خلقك من نطفة ولم تك شيئا ، فسواك رجلا تسمع وتبصر وتعقل ، ﴿ فعدّلك ﴾ : جعلك معتدلا ، قال عطاء : جعلك قائما معتدلا حسن الصورة . وقال مقاتل : عدل خلقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى : عدل بين ما خلق لك من الأعضاء . قرأ الجمهور: ﴿ فعدّلك ﴾ مشددا ، وقرأ عاصم وحزمة والكسائى بالتخفيف ، واختار أبو حاتم وأبو عبيد القراءة الأولى ، قال الفراء وأبو عبيد : يدلّ عليها قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ [التين : ٤] ، ومعنى القراءة الأولى : أنه سبحانه جعل أعضائه متعادلة لا تفاوت فيها، ومعنى القراءة الثانية : أنه صرفه وأماله إلى أى صورة شاء ، إما حسنا وإما قبيحا، وإما طويلا وإما قصيرا .

﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ فى أى صورة متعلق بركبك ، و« ما » مزيدة ، و ﴿ شاء ﴾ صفة لصورة ، أى ركبك فى أى صورة شاءها من الصور المختلفة ، وتكون هذه الجملة كالبيان لقوله : ﴿ فعدّلك ﴾ والتقدير : فعدّلك : ركبك فى أى صورة شاءها ، ويجوز أن

يتعلق بمحذوف على أنه حال ، أى ركبك حاصلًا فى أى صورة ، ونقل أبوحيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعد ذلك ، واعترض عليه بأن «أى» لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبي ومجاهد : فى أى شبه من أب أو أم أو خال أو عم ، وقال مكحول : إن شاء ذكر وإن شاء أنثى . وقوله : ﴿كلا﴾ للردع والزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة إلى الكفر به والمعاصى له ، ويجوز أن يكون بمعنى : حقا . وقوله : ﴿بل تكذبون بالدين﴾ إضراب عن جملة مقدّرة ينساق إليها الكلام كأنه قيل : بعد الردع وأنتم لا تردعون عن ذلك بل تجاوزونه إلى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء ، أو بدين الإسلام . قال ابن الأنبارى : الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى ﴿كلا﴾ قبيح ، والمعنى : بل تكذبون يا أهل مكة بالدين ، أى بالحساب ، وبل لنفى شئ تقدّم وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوما عندهم وإن لم يجر له ذكر . قال الفراء : كلا ليس الأمر كما غررت به ، قرأ الجمهور : ﴿تكذبون﴾ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحتية على الغيبة .

وجملة : ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تكذبون ، أى تكذبون والحال أن عليكم من يرفع تكذيبكم ، ويجوز أن تكون مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذيبهم ، والحافظين : الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها فى الصحف ، ووصفهم سبحانه بأنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ، وجملة ﴿يعلمون ما تفعلون﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير كاتبين ، أو على النعت ، أو مستأنفة . قال الرازى . والمعنى : التعجب من حالهم كأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين ، وملائكة الله موكلون بكم يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [ق : ١٧ ، ١٨] .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال : ﴿إن الأبرار لفى نعم . وإن الفجار لفى جحيم﴾ والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذى سقت له ، وهى كقوله سبحانه : ﴿فريق فى الجنة وفريق فى السعير﴾ [الشورى : ٧] . وقوله : ﴿يصلونها يوم الدين﴾ صفة لـ ﴿جحيم﴾ ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من الضمير فى متعلق الجار والمجرور ، أو مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : ما حالهم ؟ فقيل : ﴿يصلونها يوم الدين﴾ أى يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به ، ومعنى ﴿يصلونها﴾ : أنهم يلزمون بها مقاسين لوهجها وحرّها يومئذ . قرأ الجمهور : ﴿يصلونها﴾ مخففا مبنيا للفاعل ، وقرئ بالتشديد مبنيا للمفعول . ﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أى لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها ، بل هم فيها . وقيل : المعنى : وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرّها فى قبورهم . ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال : ﴿وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين﴾ أى يوم الجزاء والحساب ، وكرره تعظيما لقدره وتفخيما لشأنه وتهويلا لأمره كما فى قوله : ﴿القارعة . ما القارعة . وما

أدراك ما القارعة ﴿ [القارعة : ١-٣] و ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ٣-١] والمعنى : أى شئ جعلك داريا ما يوم الدين . قال الكلبي : الخطاب للإنسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع « يوم » على أنه بدل من ﴿ يوم الدين ﴾ ، أو خبر مبتدأ محذوف . وقرأ أبو عمرو فى رواية : « يوم » بالتثنية ، والقطع عن الإضافة . وقرأ الباقر بفتحته على أنها فتحة إعراب بتقدير : أعنى أو اذكر ، فيكون مفعولا به ، أو على أنها فتحة بناء لإضافته إلى الجملة على رأى الكوفيين ، وهو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو على أنه بدل من ﴿ يوم الدين ﴾ ، قال الزجاج : يجوز أن يكون فى موضع رفع إلا أنه مبنى على الفتح لإضافته إلى قوله : ﴿ لا تملك ﴾ وما أضيف إلى غير المتمكن فقد يبنى على الفتح ، وإن كان فى موضع رفع ، وهذا الذى ذكره إنما يجوز عند الخليل وسيبويه إذا كانت الإضافة إلى الفعل الماضى ، وأما إلى الفعل المستقبل فلا يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو على الفارسي والفرّاء وغيرهما ، والمعنى : أنها لا تملك نفس من النفوس لنفس أخرى شيئا من النفع أو الضرر . ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وحده لا يملك شيئا من الأمر غيره كائنا ما كان . قال مقاتل : يعنى لنفس كافرة شيئا من المنفعة . قال قتادة : ليس ثم أحد يقضى شيئا أو يصنع شيئا إلا الله ربّ العالمين ، والمعنى : أن الله لا يملك أحدا فى ذلك اليوم شيئا من الأمور كما ملكهم فى الدنيا ، ومثل هذا قوله : ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ [غافر : ١٦] .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال : بعضها فى بعض ، وفى قوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قال : بعثت . وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ قال : ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، أو سنة سيئة تعمل بعده ، فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس نحوه . وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبى ﷺ : « من استنّ خيرا فاستنّ به ، فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استنّ شرا ، فاستنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم » ، وتلا حذيفة : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية : ﴿ ما غرك بربك الكريم ﴾ قال : غرة والله جهله . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله على ابن آدم حافظين فى الليل وحافظين فى النهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره .

(١) صححه الحاكم ٥١٦/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

تفسير سورة المطففين

هى ست وثلاثون آية . قال القرطبي : وهى مكية فى قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ، ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ، وقال مقاتل أيضا : هى أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة : هى مدنية إلا ثمان آيات من قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا﴾ إلى آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة (١) . وأخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة المطففين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وأخرج ابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، قال السيوطي : بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٍ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ حَاجُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾

قوله : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ويل مبتدأ ، وسوَّغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكى : والمختار فى ويل وشبهه : إذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فإن كان مضافا أو معرَفاً كان الاختيار فيه النصب نحو قوله : ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ [طه : ٦١] و﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ خبره . والمطفف : المنقص ، وحقيقته الأخذ فى الكيل أو الوزن شيئا طفيفا ، أى نزرا حقيرا . قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف ، وهو القليل ، فالمطفف : هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق فى كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للذى ينقص المكيال والميزان : مطفف ؛ لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف ،

(٢) البيهقى فى الشعب (٤٩٠٣) وإسناده ضعيف .

(١) القرطبي ٧٠٤١/١٠ .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف : الذى يبخس فى الكيل والوزن . والمراد بالويل هنا : شدة العذاب ، أو نفس العذاب ، أو الشر الشديد ، أو هو واد فى جهنم ، قال الكلبي : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يستئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم ، فنزلت هذه الآية ، وقال السدي : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وكان بها رجل يقال له : أبو جهينة ، ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر ، فأنزل الله هذه الآية . قال الفرّاء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلا إلى يومهم هذا .

ثم بين سبحانه المطففين من هم ؟ فقال : ﴿ الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون ﴾ أى يستوفون الاكتيال والأخذ بالكيل . قال الفرّاء : يريد اکتالوا من الناس ، وعلى ومن فى هذا الموضع يعتقبان ، يقال : اکتلت منك ، أى استوفيت منك ، وتقول : اکتلت عليك ، أى أخذت ما عليك . قال الزجاج : إذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل ، ولم يذكر اترنوا؛ لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر . قال الواحدي : قال المفسرون : يعنى : الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا فى الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا ، وهو معنى قوله : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم فحذفت اللام فتعدى الفعل إلى المفعول ، فهو من باب الحذف والإيصال ، ومثله : نصحتك ونصحت لك ، كذا قال الأخفش والكسائي والفرّاء . قال الفرّاء : وسمعت أعرابية تقول : إذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدّين إلى الموسم المقبل . قال : وهو من كلام أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس . قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله توكيدا ، أى توكيدا للضمير المستكن فى الفعل ، فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا . قال أبو عبيد وكان عيسى بن عمر يجعلهما حرفين ، ويقف على كالوا أو وزنوا ، ثم يقول : هم يخسرون . قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال أبو عبيد : والاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين : إحداهما : الخط ، ولذلك كتبهما بغير ألف ، ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف ، والآخرى أنه يقال : كلتك ووزنتك بمعنى : كلت لك ووزنت لك هو كلام عربى ، كما يقال : صدتك وصدت لك ، وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك . وقيل : هو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون ، أى وإذا كالوا مكيلهم ، أو وزنوا موزونهم ، ومعنى ﴿ يخسرون ﴾ : ينقصون كقوله : ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ [الرحمن : ٩] والعرب تقول : خسرت الميزان وأخسرته .

ثم خوفهم سبحانه فقال : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ والجملة مستأنفة مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف وتفضيحه وللتعجب من حالهم فى الاجترار عليه ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المطففين ، والمعنى : أنهم لا يخطر ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون ، قيل : والظن هنا بمعنى اليقين ، أى لا يوقن أولئك ، ولو أيقنوا مانقصوا الكيل

والوزن . وقيل : الظن على بابه ، والمعنى : إن كانوا لا يستيقنون البعث ، فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ويتركوا ما يخشون من عاقبته ؟ واليوم العظيم : هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم ؛ لكونه زمانا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ، ودخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم أخبر عن ذلك اليوم ، فقال : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ انتصاب الظرف بـ ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ المذكور قبله ، أو بفعل مقدّر يدل عليه مبعوثون ، أى يبعثون يوم يقوم الناس ، أو على البذل من محل ليوم ، أو بإضمار أعنى ، أو هو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أو فى محل جرّ على البذل من لفظ ليوم ، وإنما بنى على الفتح فى هذين الوجهين لإضافته إلى الفعل . قال الزجاج : ﴿يَوْمَ﴾ منصوب بقوله : ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ ، المعنى : ألا يظنون أنهم يبعثون يوم القيامة ؟ ومعنى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ : يوم يقومون من قبورهم لأمر ربّ العالمين ، أو لجزائه ، أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفى وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه ربّ العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ، ومزيد إثمه وفضاعة عقابه . وقيل : المراد بقوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ﴾ قيامهم فى رشحهم إلى أنصاف آذانهم . وقيل : المراد : قيامهم بما عليهم من حقوق للعباد وقيل : المراد : قيام الرسل بين يدى الله للقضاء ، والأوّل أولى . قوله : ﴿كَلَّا﴾ هى للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده ، ثم استأنف فقال : ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي السَّجِينِ﴾ وعند أبى حاتم أن ﴿كَلَّا﴾ بمعنى : حقا متصلة بما بعدها على معنى : حقا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وسجين هو ما فسر به سبحانه من قوله : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ . كتاب مرقوم ﴿فَأخْبِرْ بِهِذَا أَنَّهُ كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ أى مسطور . قيل : هو كتاب جامع لأعمال الشرّ الصادر من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم له ، وقال قتادة وسعيد ابن جبير ومقاتل وكعب : إنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها ، وبه قال مجاهد ، فيكون فى الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير : محل كتاب مرقوم . وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ : لفى حبس وضيق شديد ، والمعنى : كأنهم فى حبس ، جعل ذلك دليلا على خسارة منزلتهم وهوانها . وقال الواحدى : ذكر قوم أن قوله : ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ تفسير لسجين وهو بعيد ؛ لأنه ليس السجين من كتاب فى شيء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بيانا لكتاب المذكور فى قوله : ﴿إِنْ كُنَّا لَفِي السَّجِينِ﴾ على تقدير : هو كتاب مرقوم ، أى مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه ، ويكون المعنى : إن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون ، أى ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفى ذلك الكتاب المدوّن للقبائح المختصّ بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه ، فقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ﴾ ثم بينه بقوله :

﴿ كتاب مرقوم ﴾ قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك . قال قتادة : ومعنى ﴿ مرقوم ﴾ : رقم لهم بشرّ كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر . وكذا قال مقاتل ، وقد اختلفوا في نون سجين ، فقيل : هي أصلية واشتقاقه من السجن ، وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق ، من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج . قال الواحدي : وهذا ضعيف ؛ لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً ، ويجاب عنه : بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة ، وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجيناً

وقيل : النون بدل من اللام ، والأصل : سجيل ، مشتقاً من السجل ، وهو الكتاب . قال ابن عطية : من قال : إن سجيناً موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر إن ، والظرف وهو قوله : ﴿ لقي سجين ﴾ ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، التقدير : هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو ؟ كذا قال . قال الضحاك : مرقوم مخنوم بلغة حمير وأصل الرقم الكتابة . قال الشاعر :

سأرقم بالماء القراح إليكم على بعدكم إن كان للماء راقم

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا متصل بقوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى : ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل ، ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال : ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ والموصول صفة للمكذبين ، أو بدل منه . ﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أى فاجر جائر متجاوز فى الإثم منهمك فى أسبابه . ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا ﴾ المنزلة على محمد ﷺ ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ أى أحاديثهم وأباطيلهم التى زخرفوها . قرأ الجمهور : ﴿ إذا تتلى ﴾ بفوقيتين ، وقرأ أبو حيوة وأبو السماك والأشهب العقيلي والسلمي بالنحتية ، وقوله : ﴿ كلا ﴾ للردع والزجر للمعتدى الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له ، وقوله : ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان للسبب الذى حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين . قال أبو عبيدة : ران على قلوبهم : غلب عليها رينا وريونا ، وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك . قال الفراء : هو أنها كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم ، فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، قال مجاهد : القلب مثل الكف ، ورفع كفه فإذا أذنب انقبض وضم أصبعه ، فإذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم أخرى حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه . قال : وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية . قال أبو زيد : يقال : قد رين بالرجل رينا : إذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به . وقال أبو معاذ النحوى : الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع أن يطبع على القلب

وهو أشد من الرين ، والإقبال أشد من الطبع . قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغطي القلب كالغيم الرقيق ، ومثله الغين .

ثم كرر سبحانه الردع والزجر فقال : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ وقيل : كلا بمعنى : حقا ، أى حقا إنهم ، يعنى الكفار ، عن ربهم يوم القيامة لا يروونه أبدا . قال مقاتل : يعنى أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون إليه نظر المؤمنين إلى ربهم . قال الحسين ابن الفضل : كما حجبهم فى الدنيا عن توحيد حجبهم فى الآخرة عن رؤيته . قال الزجاج : فى هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى فى القيامة ، ولولا ذلك ما كان فى هذه الآية فائدة . وقال جل ثناؤه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] فأعلم جل ثناؤه أن المؤمنين ينظرون ، وأعلم أن الكفار محجوبون عنه : وقيل : هو تمثيل لإهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك . وقال قتادة وابن أبى مليكة : هو أن لا ينظر إليهم برحمته ولا يزيكهم . وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان . ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أى داخلوا النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخى الرتبة ؛ لأن صلى الجحيم أشد من الإهانة وحرمان الكرامة . ﴿ ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ أى تقول لهم خزنة جهنم تبكيئا وتوبيخا : هذا الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا فانظروه وذوقوه .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ؛ أن النبى ﷺ قال : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه ^(١) . وأخرج الطبرانى وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ قال : « فكيف إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم ؟ » ^(٢) . وأخرج أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة ، فيهن ذلك على المؤمن كتدلى الشمس إلى الغروب إلى أن تغرب ^(٣) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما . وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعا . وأخرج الطبرانى عن ابن عمر أنه قال : يارسول الله ، كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة ؟ قال : « ألف سنة لا يؤذن لهم » .

وأخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن

(١) أحمد ١٣/٢ والبخارى فى التفسير (٤٩٣٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٢ / ٦٠) .

(٢) صحيحه الحاكم ٥٧٣/٢ ووافقه الذهبى .

(٣) أبو يعلى (٦٠٢٥) وابن حبان (٧٢٨٩) .

ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ قال : إن روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ، فيهبط بها إلى الأرض فتأبى أن تقبلها فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهى بها إلى سجين ، وهو خد إبليس ، فيخرج لها من تحت خد إبليس كتابا فيختم ويوضع تحت خد إبليس . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ سَجِينٌ ﴾ : أسفل الأرضين . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « الفلق جب فى جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح » ^(١) . قال ابن كثير : هو حديث غريب منكر لا يصح ^(٢) . وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي ﷺ قال : ﴿ سَجِينٌ ﴾ الأرض السابعة السفلى . وأخرج ابن مردويه عن جابر نحوه مرفوعا . وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه والطبرانى والبيهقى فى البعث عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : لما حضرت كعبا الوفاة أتته أم بشر بنت البراء فقالت : إن لقيت ابني فأقرئه مني السلام ، فقال : غفر الله لك يا أم بشر نحن أشغل من ذلك ، فقالت : أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن نسمة المؤمن تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وأن نسمة الكافر فى سجين ؟ » قال : بلى ، قالت : فهو ذلك . وأخرج ابن المبارك نحوه عن سلمان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن ماجه وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله سبحانه فى القرآن ﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ^(٣) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيْنَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيْنَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثَوْبَ الْكُفَّارِ مَا

(١) ابن كثير ٢٣٩/٧ .

(١) ابن جرير ٦١/٣٠ .

(٣) أحمد ٢٩٧/٢ والترمذى (٣٣٣٤) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٦٧٨) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٤٤) وابن جرير ٨٧/١ وصححه الحاكم ٥١٧/٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٧٢٠٣) . ط : دار الكتب .

﴿ كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٦)

قوله : ﴿ كلا ﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه ، والتكرير للتأكيد ، وجملة : ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن يكون كلا بمعنى : حقا ، والأبرار : هم المطيعون ، وكتابتهم صحائف حسنتهم . قال الفراء : عليين : ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له ، ووجه هذا أنه منقول من جمع على من العلو . قال الزجاج : هو إعلاء الأمانة . قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع ؛ لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو : ثلاثين وعشرين وقسرين . قيل : هو علم لديوان الخير الذي دون فيه ما عمله الصالحون ، وحكى الواحدى عن المفسرين أنه السماء السابعة ، قال الضحاك ومجاهد وقتادة : يعنى : السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين . وقال الضحاك : هو سدرة المنتهى ينتهى إليه كل شيء من أمر الله لا يعدوها . وقيل : هو الجنة . وقال قتادة أيضا : هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى وقيل : إن عليين صفة للملائكة فإنهم فى الملأ الأعلى كما يقال : فلان فى بنى فلان ، أى فى جملتهم . ﴿ وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم ﴾ أى وما أعلمك يا محمد أى شيء عليون على جهة التفضيم والتعظيم لعليين ، ثم فسره فقال : ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أى مسطور ، والكلام فى هذا كالكلام المتقدم فى قوله : ﴿ وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ وجملة : ﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب ، والمعنى : أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم . وقيل : يشهدون بما فيه يوم القيامة ، قال وهب وابن إسحاق : المقربون هنا : إسرافيل ، فإذا عمل المؤمن عمل البرّ صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلأأ فى السموات كنور الشمس فى الأرض حتى تنتهى بها إلى إسرافيل فيختم عليها .

ثم ذكر سبحانه حالهم فى الجنة بعد ذكر كتابهم فقال : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أى إن أهل الطاعة لفي نعيم عظيم لا يقادر قدره ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ الأرائك : الأسرة التى فى الحجال ، وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان فى حجلة . قال الحسن : ما كنا ندرى ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن ، فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير . ومعنى ﴿ ينظرون ﴾ : أنهم ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامات ، كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما . وقال مقاتل : ينظرون إلى أهل النار . وقيل : ينظرون إلى وجهه وجلاله . ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ أى إذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه فى وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والرونق ، والخطاب لكلّ راء يصلح لذلك ، يقال : أنضر النبات : إذا أزهى ونور . قال عطاء : وذلك أن الله زاد فى جمالهم وفى ألوانهم ما لا يصفه واصف . قرأ الجمهور : ﴿ تعرف ﴾ بفتح الفوقية وكسر الراء ، ونصب نضرة ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع ويعقوب وشيبة وطلحة وابن أبى إسحاق بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ، ورفع نضرة بالنيابة . ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ قال

أبر عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : الرحيق من الخمر ما لا غشّ فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم : الذى له ختام ، وقال الخليل : الرحيق : أجود الخمر ، وفى الصحاح : الرحيق : صفرة الخمر . وقال مجاهد : هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية ، ومنه قول حسان :

يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

قال مجاهد : ﴿ مختوم ﴾ : مطين كأنه ذهب إلى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى : أنه ممنوع من أن تمسه يد إلى أن يفك ختمه للأبرار . وقال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي : ختامه آخر طعمه ، وهو معنى قوله : ﴿ ختامه مسك ﴾ أى آخر طعمه ريح المسك إذا رفع الشارب فاه من آخر شرابه وجد ريحه كريح المسك . وقيل : مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره ، أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختم الأشياء بالطين ونحوه . قرأ الجمهور : ﴿ ختامه ﴾ وقرأ علىّ وعلقمة وشقيق والضحاك وطاوس والكسائي : «خاتمته» بفتح الخاء والتاء وألف بينهما . قال علقمة : أما رأيت المرأة تقول للعطار : اجعل خاتمته مسكا ، أى آخره ، والخاتم والختام يتقاربان فى المعنى ، إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء . قال فى الصحاح : والختام الطين الذى يختم به ، وكذا قال ابن زيد . قال الفرزدق :

وبتن بجانبى مصرعات وبت أفضّ أغلاق الختام

﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أى فليرغب الراغبون . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الرحيق الموصوف بتلك الصفة . وقيل : إن فى بمعنى إلى ، أى وإلى ذلك فليتبادر المتبادرون فى العمل كما فى قوله : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ [الصافات : ٦١] وأصل التنافس : التشاجر على الشيء والتنازع فيه ، بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه ، يقال : نفست الشيء عليه أنفسه نفاسة ، أى ظننت به ولم أحبّ أن يصير إليه . قال البغوى : أصله من الشيء النفيس الذى تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه ، وينفس به على غيره ، أى يضمن به . قال عطاء : المعنى : فليستبق المستبقون . وقال مقاتل بن سليمان : فليتنازع المتنازعون . وقوله : ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ معطوف على ﴿ ختامه مسك ﴾ صفة أخرى لرحيق ، أى ولزاج ذلك الرحيق من تسنيم ، وهو شراب ينصبّ عليهم من علوّ ، وهو أشرف شراب الجنة وأصل التسنيم فى اللغة : الارتفاع ، فهى عين ماء تجرى من علوّ إلى أسفل ، ومنه : سنام البعير لعلوّ من بدنه ، ومنه تسنيم القبور . ثم بيّن ذلك فقال : ﴿ عينا يشرب بها المقربون ﴾ وانتصاب ﴿ عينا ﴾ على المدح . وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن تكون ﴿ عينا ﴾ حالا مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله : ﴿ يشرب بها ﴾ وقال الأخفش : إنها منصوبة بـ ﴿ يسقون ﴾ أى يسقون عينا ، أو من عين . وقال الفراء : إنها منصوبة بـ

﴿تسنيم﴾ على أنه مصدر مشتق من السنام ، كما فى قوله : ﴿أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما﴾ [البلد : ١٤ ، ١٥] والأول أولى ، وبه قال المبرد . قيل : والباء فى « بها » زائدة ، أى يشربها ، أو بمعنى : من ، أو يشرب منها . قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجرى من تحت العرش . قيل : يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج بها كأس أصحاب اليمين .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال : ﴿إن الذين أجمعوا﴾ وهم كفار قريش ومن وافقهم على الكفر ﴿كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾ أى كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمؤمنين ، ويسخرون منهم . ﴿وإذا مروا بهم﴾ أى وإذا مرّ المؤمنون بالكفار وهم فى مجالسهم ﴿يتغامزون﴾ من الغمز ، وهو الإشارة بالجلفون والحواجب ، أى يغمز بعضهم بعضا ، ويشيرون بأعينهم وحواجبهم . وقيل : يعيرونهم بالإسلام ويعيبونهم به ﴿وإذا انقلبوا﴾ أى الكفار ﴿إلى أهلهم﴾ من مجالسهم ﴿انقلبوا فاكهين﴾ أى معجبين بما هم فيه متلذذين به ، يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب : الانصراف . قرأ الجمهور : «فاكهين» وقرأ حفص وابن القعقاع والأعرج والسلمى : «فكهين» بغير ألف . قال القرأء : هما لغتان ، مثل : طمع وطامع ، وحذر وحاذر ، وقد تقدّم بيانه فى سورة الدخان أن الفكه : الأشر البطر ، والفاكه : الناعم المتنعم . ﴿وإذا رأوهم﴾ أى إذا رأوا الكفار المسلمين فى أى مكان ﴿قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ فى اتباعهم محمداً ، وتسمكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر ، ويجوز أن يكون المعنى : وإذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول والأول أولى ، وجملة : ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿قالوا﴾ أى قالوا ذلك إنهم لم يرسلوا على المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم .

﴿فاليوم الذين آمنوا﴾ المراد باليوم : اليوم الآخر ﴿من الكفار يضحكون﴾ والمعنى : أن المؤمنين فى ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا ، وجملة : ﴿على الأرائك ينظرون﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل ﴿يضحكون﴾ أى يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما هم فيه من الحال الفظيع . وقد تقدّم تفسير الأرائك قريبا . قال الواحدى : قال المفسرون : إن أهل الجنة إذا أرادوا نظروا من منازلهم إلى أعداء الله وهم يعذبون فى النار ، فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم فى الدنيا ، وقال أبو صالح : يقال لأهل النار : اخرجوا ويفتح لهم أبوابها ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ الجملة مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم فى الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وثوب بمعنى : أثيب ، والمعنى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه بالمؤمنين؟ وقيل : الجملة فى محل نصب

بـ ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ . وقيل : هى على إضمار القول ، أى يقول بعض المؤمنين لبعض : هل ثوب الكفار ، والثواب ما يرجع على العبد فى مقابلة عمله ويطلق على الخير والشر .

وقد أخرج ابن المبارك فى الزهد ، وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر بن عطية ؛ أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله : ﴿ إِنْ كُنَّا إِلَّا أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَةٍ مُّبِينَةٍ ﴾ قال : أرواح المؤمن إذا قبضت عرج بها إلى السماء ، فتفتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى تنتهى بها إلى العرش وتعرج الملائكة ، فيخرج لها من تحت العرش رقّ فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ لَفَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ قال الجنة ، وفى قوله : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ قال : أهل السماء . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « صلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب فى عليين » (١) . وأخرج ابن المنذر عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ قال : عين فى الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجرى عليهم نضرة النعيم .

وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر ، والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ قال : الرحيق : الخمر ، والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك . وأخرج ابن أبى شيبة وهناد وابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ مَخْتُومٍ ﴾ قال : ممزوج ﴿ خَتَامُهُ مسك ﴾ قال : طعمه وريحه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى البعث عن ابن عباس فى قوله : ﴿ مِنْ رَحِيقٍ ﴾ قال : خمر ، وقوله : ﴿ مَخْتُومٍ ﴾ قال : ختم بالمسك . وأخرج الفريابى والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ خَتَامُهُ مسك ﴾ قال : ليس بخاتم يختم به ، ولكن خلطه مسك ، ألم تر إلى المرأة من نسائك تقول خلطه من الطيب كذا وكذا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عن أبى الدرداء ﴿ خَتَامُهُ مسك ﴾ قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ أشرف شراب أهل الجنة ، وهو صرف للمتقين ويمزج لأصحاب اليمين . وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود ﴿ مزاجه من تسنيم ﴾ قال : عين فى الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ قال : هذا مما قال الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيُنٌ ﴾ [السجدة : ١٧] .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد ٢٦٨/٥ وأبو داود فى الصلاة (٥٥٨) والطبرانى (٧٧٣٤) .

تفسير سورة الانشقاق

هى ثلاث وعشرون آية . وقيل : خمس وعشرون آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة الانشقاق بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة فقراً : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ فسجد . فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبى القاسم عليه السلام فلا أزال أسجد حتى ألقاه ^(١) . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ ^(٢) . وأخرج ابن خزيمة ، والرويانى فى مسنده ، والضياء المقدسى فى المختارة عن بريدة : أن النبى ﷺ كان يقرأ فى الظهر : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ونحوها ^(٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ^(١) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ^(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ^(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ^(٤) وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ^(٥) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ^(٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ^(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ^(٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ^(٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ^(١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ^(١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا ^(١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ^(١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ^(١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ^(١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ^(١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ^(١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ^(١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ^(١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ^(٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ^(٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ^(٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ^(٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ^(٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ^(٢٥) ﴾ .

قوله : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ هو كقوله : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كَوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] فى إضمار الفعل وعدمه . قال الواحدى : قال المفسرون : انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها : انفطارها بالغمام الأبيض كما فى قوله : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾ [الفرقان : ٢٥] وقيل : تشق من المجرة ، والمجرة باب السماء . واختلف فى جواب إذا ، فقال الفراء :

(١) البخارى فى الأذان (٧٦٦ ، ٧٦٨) مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائى فى الصلاة (١٦١ / ٢) وفى التفسير (٦٨٠) .

(٢) سبق تخريجه . (٣) ابن خزيمة فى الصلاة (٥١٢) .

إنه أذنت ، والواو زائدة ، وكذلك أَلَقْتُ . قال ابن الأنباري : هذا غلط ، لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله : ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : ٧١] ومع لما كقوله : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه ﴾ [الصافات : ١٠٣ ، ١٠٤] ولا تقحم مع غير هذين . وقيل : إن الجواب قوله : ﴿ فملاقيه ﴾ أى فأنت ملاقيه ، وبه قال الأخفش . وقال المبرد : إن فى الكلام تقدما وتأخيرا ، أى يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه إذا السماء انشقت . وقال المبرد أيضا : إن الجواب قوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ وبه قال الكسائي ، والتقدير : إذا السماء انشقت فمن أوتى كتابه بيمينه فحكمه كذا . وقيل : هو ﴿ يأيها الإنسان ﴾ على إضمار الفاء ، وقيل : إنه ﴿ يأيها الإنسان ﴾ على إضمار القول ، أى يقال له : يأيها الإنسان . وقيل : الجواب محذوف ، تقديره : بعثتم ، أو لاقى كل إنسان عمله . وقيل : هو ما صرح به فى سورة التكوين ، أى علمت نفس هذا ، على تقدير أن إذا شرطية ، وقيل : ليست بشرطية وهى منصوبة بفعل محذوف ، أى اذكر ، أو هى مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة ، وتقديره : وقت انشقاق السماء وقت مدّ الأرض ، ومعنى ﴿ وأذنت لربها ﴾ : أنها أطاعته فى الانشقاق من الإذن ، وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه ﴿ وحقت ﴾ أى وحق لها أن تطيع وتنقاد وتسمع ، ومن استعمال الإذن فى الاستماع قول الشاعر :

صمّ إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

وقول الآخر :

إن يأذنوا رية طاروا بها فرحا منى وما أذنوا من صالح دفنوا

وقيل : المعنى : وحقق الله عليها الاستماع لأمره بالانشقاق ، أى جعلها حقيقة بذلك . قال الضحاك : ﴿ حقت ﴾ : أطاعت ، وحقّ لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال : فلان محقوق بكذا ، ومعنى طاعتها : أنها لا تمتنع مما أَرَادَهُ الله بها ، قال قتادة : حق لها أن تفعل ذلك ، ومن هذا قول كثير :

فإن تكن العتبي فأهلا ومرحبا وحقت لها العتبي لدينا وقلت

﴿ وإذا الأرض مدّت ﴾ أى بسطت كما تبسط الأدم ، ودكت جبالها حتى صارت قاعا صنفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا . قال مقاتل : سوّيت كمدّ الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها . وقيل : مدّت زيد فى سعتها ، من المدد ، وهو الزيادة . ﴿ وألقت ما فيها ﴾ أى أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ﴿ وتخلت ﴾ من ذلك . قال سعيد بن جبیر : ألقت ما فى بطنها من الموتى وتخلت بمن على ظهرها من الأحياء ، ومثل هذا قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ [الزلزلة : ٢] . ﴿ وأذنت لربها ﴾ أى سمعت

وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلي ﴿وحقت﴾ أى وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له . وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ﴿يأيها الإنسان﴾ المراد : جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر . وقيل : هو الإنسان الكافر . والأول أولى لما سيأتى من التفصيل ﴿إنك كادح إلى ربك كدحاً﴾ الكدح فى كلام العرب: السعى فى الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً ، والمعنى : أنك ساع إلى ربك فى عملك ، أو إلى لقاء ربك . مأخوذ من كدح جلده : إذا خدشه ، قال ابن مقبل :

وما الدهر إلا تارتان فمتهما أموت وأخرى أبتغى العيش أكدح

قال قتادة والضحاك والكلبي : عامل لربك عملاً ﴿فملاقية﴾ أى فملاق عملك ، والمعنى : أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب . قال القتيبي : معنى الآية : ﴿إنك كادح﴾ أى عامل ناصب فى معيشتك إلى لقاء ربك والملاقاة بمعنى اللقاء ، أى تلقى ربك بعملك ، وقيل : فملاق كتاب عملك ، لأن العمل قد انقضى ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه﴾ وهم المؤمنون . ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ لامناقشة فيه . قال مقاتل : لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب بها . وقال المفسرون : هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله ، فهو الحساب اليسير . ﴿وينقلب إلى أهله مسروراً﴾ أى وينصرف بعد الحساب اليسير إلى أهله الذين هم فى الجنة من عشيرته ، أو إلى أهله الذين كانوا له فى الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة ، أو إلى من أعدّه الله له فى الجنة من الحور العين والولدان المخلدين . أو إلى جميع هؤلاء مسروراً مبتهجا بما أوتى من الخير والكرامة .

﴿وأما من أوتى كتابه وراء ظهره﴾ قال الكلبي : لأن يمينه مغلولة إلى عنقه ، وتكون يده اليسرى خلفه . وقال قتادة ومقاتل : تفك ألواح صدره وعظامه ، ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿فسوف يدعو ثبوراً﴾ أى إذا قرأ كتابه قال : ياويله ياثبوره ، والثبور: الهلاك . ﴿ويصلى سعيراً﴾ أى يدخلها ويقاسى حرّاً نارها وشدتها . قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم بفتح الباء وسكون الصاد وتخفيف اللام . وقرأ الباقون بضم الباء وفتح اللام وتشديدها ، وروى إسماعيل المكي عن ابن كثير وكذلك خارجة عن نافع وكذلك روى إسماعيل المكي عن ابن كثير أنهم قرؤوا بضم الباء وإسكان الصاد من أصلى يصلى . ﴿إنه كان فى أهله مسروراً﴾ أى كان بين أهله فى الدنيا مسروراً باتباع هواه وركوب شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخرة بباله ، والجملة تعليل لما قبلها ، وجملة : ﴿إنه ظن أن لن يحور﴾ تعليل لكونه كان فى الدنيا فى أهله مسروراً ، والمعنى : أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ، ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحد له للدار الآخرة ، و«أن» فى قوله : ﴿أن لن يحور﴾ هى المخففة من الثقيلة سادة مع ما فى حيزها مسدّ مفعولى ظنّ ، والحور فى اللغة : الرجوع ، يقال : حار يحور : إذا رجع . وقال الراغب : الحور: التردّد فى

الأمر ، ومنه : نعوذ بالله من الحور بعد الكور ، أى من التردد فى الأمر بعد المضى فيه ، ومحاورة الكلام : مراجعته ، والمحار المرجع والمصير . قال عكرمة وداود بن أبى هند : يحور كلمة بالحبشية ومعناها : يرجع . قال القرطبى ^(١) : الحور فى كلام العرب : الرجوع ، ومنه : قوله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور » ^(٢) . يعنى : من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الحور بالضم ، وفى المثل : حور فى محار ، أى نقصان فى نقصان ، ومنه قول الشاعر :

والذم يبقى وزادُ القوم فى حورٍ

والحور أيضا : الهلكة ، ومنه قول الراجز :

فى بئر لا حور سرى وما شعر

قال أبو عبيدة : أى فى بئر حور ، ولا زائدة . « بلى إن ربه كان به بصيرا » بلى إيجاب للمنفى بلى ، أى بلى ليحورن وليبعثن . ثم علل ذلك بقوله : « إن ربه كان به بصيرا » أى كان به وبأعماله عالما لا يخفى عليه منها خافية . قال الزجاج : كان به بصيرا قبل أن يخلقه عالما بأن مرجعه إليه . « فلا أقسم بالشفق » لا « زائدة كما تقدم فى أمثال هذه العبارة ، وقد قدمنا الاختلاف فيها فى سورة القيامة فارجع إليه . والشفق : الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة . قال الواحدي : هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعا . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمر ، وحكاه القرطبى عن أكثر الصحابة والتابعين والفقهاء ، وقال أسد بن عمر وأبو حنيفة : فى إحدى الروايتين عنه : إنه البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع . قال الخليل : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، قال فى الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها فى أول الليل إلى قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا ، ومنه قول الشاعر :

قم يا غلام أعنى غير مرتبك على الزمان بكأس حشوها شفق

وقال آخر :

أحمر اللون كحمرة الشفق

وقال مجاهد : الشفق : النهار كله ألا تراه قال : « والليل وما وسق » وقال عكرمة : هو ما بقى من النهار . وإنما قال هذا لقوله بعده : « والليل وما وسق » فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا ، على أنه قد روى عن عكرمة أنه قال : الشفق : الذى يكون بين المغرب والعشاء ، وروى عن أسد بن عمر : الرجوع . « والليل وما وسق » الوسق عند أهل

(٢) مسلم فى الحج (٤٢٦ / ١٣٤٣) .

(١) القرطبى ٧٠٦٤ / ١٠ .

اللغة : ضم الشيء بعضه إلى بعض ، يقال : استوسقت الإبل : إذا اجتمعت وانضمت ، والراعى يسقها ، أى يجمعها . قال الواحدى : المفسرون يقولون : وما جمع وضم وحوى ولف ، والمعنى : أنه جمع وضم ما كان منتشرا بالنهار فى تصرفه ، وذلك أن الليل إذا أقبل أى كل شيء إلى مأواه ، ومنه قول ضابئ بن الحارث البرجمي :

فإنى وإياكم وسوقا إليكم كقابض شيئا لم تنله أنامله

وقال عكرمة : ﴿ وما وسق ﴾ أى وما ساق من شيء إلى حيث يأوى ، فجعله من السوق لا من الجمع ﴿ وما وسق ﴾ أى وما جنّ وستر . وقيل : ﴿ وما وسق ﴾ أى وما حمل ، وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول : لا أحمله ما وسقت عيني الماء ، أى حملته ، ووسقت الناقة تسق وسقا ، أى حملت . قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : ﴿ وما وسق ﴾ : وما حمل من الظلمة ، أو حمل من الكواكب . قال القشيري : ومعنى حمل : ضم وجمع ، والليل يحمل بظلمته كل شيء . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وما وسق ﴾ أى وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالأسحار ، والأول أولى . ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أى اجتمع وتكامل . قال الفراء : اتساقه : امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثالث عشر ورابع عشر إلى ست عشرة ، وقد افتعل من الوسق الذى هو الجمع . قال الحسن : اتسق : امتلا واجتمع . وقال قتادة : استدار ، يقال : وسقته فاتسق ، كما يقال : وصلته فاتصل ، ويقال : أمر فلان متسق ، أى مجتمع منظم ، ويقال : اتسق الشيء : إذا تتابع .

﴿ لتركن طبقا عن طبق ﴾ هذا جواب القسم . قرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو : « لتركن » : بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد ، وهو النبي ﷺ ، أو لكل من يصلح له ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبى العالية ومسروق وأبى وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وسعيد بن جبير ، وقرأ الباكون بضم الموحدة خطابا للجمع وهم الناس . قال الشعبي و مجاهد : لتركن يا محمد سماء بعد سماء . قال الكلبي : يعنى : تصعد فيها ، وهذا على القراءة الأولى . وقيل : درجة بعد درجة ، ورتبة بعد رتبة فى القرب من الله ورفعة المنزلة . وقيل : المعنى : لتركن حالا بعد حال كل حالة منها مطابقة لاختها فى الشدة . وقيل : المعنى : لتركن أيها الإنسان حالا بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حيا وميتا وغنيا وفقيرا ، فالخطاب للإنسان المذكور فى قوله : ﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ واختار أبو عبيد وأبو حاتم القراءة الثانية قالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ . وقرأ عمر : « ليركن » بالتحية وضم الموحدة على الإخبار ، وروى عنه وعن ابن عباس أنهما قرأ بالغيبة وفتح الموحدة ، أى ليركن الإنسان ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرأ بكسر حرف المضارعة وهى لغة ، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس . وقيل : إن معنى الآية : ليركن القمر أحوالا من سرار واستهلال ، وهو بعيد ، قال مقاتل : ﴿ طبقا عن طبق ﴾ يعنى : الموت والحياة . وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام

ثم شاب ثم شيخ، ومحل ﴿عن طبق﴾ النصب على أنه صفة لـ ﴿طبقا﴾ أى طبقا مجاوزا لطبق، أو على الحال من ضمير لتركبن ، أى مجاوزين ، أو مجاوزا .

﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى : أى شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك .

﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾ هذه الجملة الشرطية وجوابها فى محل نصب على الحال ، أى أى مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن . قال الحسن وعطاء والكلبي ومقاتل : ما لهم لا يصلون . وقال أبو مسلم : المراد : الخضوع والاستكانة . وقيل : المراد : نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف هل هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا ؟ وقد تقدم فى فاتحة هذه السورة الدليل على السجود : ﴿بل الذين كفروا يكذبون﴾ أى يكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب : ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ أى بما يضمرونه فى أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : يكتُمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذى يجمع ما فيه ، ومنه قول الشاعر :

الخير أبقي وإن طال الزمان به والشر أخبت ما أوعيت من زاد

ويقال : وعاء : حفظه ، ووعيت الحديث أعياه وعيا ، ومنه : ﴿أذن واعية﴾ [الحاقة : ١٢] . ﴿فبشرهم بعباد آليم﴾ أى اجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم ؛ لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والآليم : المؤلم الموجع ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم . ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ هذا الاستثناء منقطع ، أى لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح لهم أجر عند الله غير ممنون ، أى غير مقطوع ، يقال : مننت الحبل : إذا قطعته ، ومنه قول الشاعر :

فترى خلفهن من سرعة الرج مع منينا كأنه أهباء

قال المبرد : المنين : الغبار ؛ لأنه تقطعه وراءها ، وكل ضعيف منين وممنون . وقيل : معنى ﴿غير ممنون﴾ : أنه لا يمين عليهم به ، ويجوز أن يكون الاستثناء متصلا إن أريد من آمن منهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿إذا السماء انشقت﴾ قال : تنشق السماء من المجرة . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ قال : سمعت حين كلمها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ قال : أطاعت وحقت بالطاعة . وأخرج الحاكم عنه وصححه قال : سمعت وأطاعت ﴿وإذا الأرض مدت﴾

قال : يوم القيامة ﴿ وألقت ما فيها ﴾ قال : أخرجت ما فيها من الموتى ﴿ وتخلت ﴾ عنهم .
وأخرج ابن المنذر عنه أيضا : ﴿ وألقت ما فيها ﴾ قال : سوارى الذهب . وأخرج الحاكم ، قال
السيوطي : بسند جيد ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « تَمَدُّ الأرض يوم القيامة مَدَّ
الأديم ، ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه » (١) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس :
﴿ إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾ قال : عامل عملا . ﴿ فملاقية ﴾ قال : فملاق عملك .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ليس أحد
يحاسب إلا هلك » ، فقلت : أليس يقول الله : ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه . فسوف يحاسب
حسابا يسيرا ﴾ ؟ قال : « ليس ذلك بالحساب . ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب
هلك » (٢) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة
قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلواته : « اللهم حاسبني حسابا يسيرا » ،
فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر في كتابه فيتجاوز له
عنه ، إنه من نوقش الحساب هلك » (٣) وفي بعض ألفاظ الحديث الأول وهذا الحديث الآخر :
« من نوقش الحساب عذب » . وأخرج البزار ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي والحاكم عن
أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حسابا يسيرا ويدخله
الجنة برحمته : تعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك » (٤) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ يدعو ثورا ﴾ قال : الويل . وأخرج ابن
جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ قال : يبعث . وأخرج ابن أبي
حاتم عنه أيضا ﴿ أن لن يحور ﴾ قال : أن لن يرجع . وأخرج سمويه في فوائده عن عمر بن
الخطاب قال : ﴿ الشفق ﴾ : الحمرة . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد
الرزاق وابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : ﴿ الشفق ﴾ : النهار كله . وأخرج سعيد بن منصور
وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ والليل وما وسق ﴾ قال : وما دخل فيه . وأخرج
أبو عبيد في فضائله ، وابن أبي شيبه وابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿ وما وسق ﴾ قال : وما
جمع . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضا في قوله : ﴿ والقمر إذا
انسق ﴾ قال : إذا استوى . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري من طرق عن ابن عباس ؛ أنه
سئل عن قوله : ﴿ والليل وما وسق ﴾ قال : وما جمع ، أما سمعت قوله :

(١) هذا جزء من حديث طويل صححه الحاكم ٥٧٠/٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .
(٢) أحمد ٤٧/٦ ، ٩١ والبخاري في التفسير (٤٩٣٩) ومسلم في الجنة (٢٨٧٦ / ٧٩ ، ٨٠) .
(٣) أحمد ٤٨/٦ وابن جرير ٧٤/٣٠ وصححه الحاكم ٥٨٠/٤ على شرط مسلم ووافقه الذهبي .
(٤) قال الهيثمي في المجمع ١٥٧/٨ : « رواه البزار والطبراني في الأوسط وفيه سليمان بن داود اليمامي وهو
متروك » وصححه الحاكم ٥١٨/٢ وقال الذهبي : « سليمان ضعيف » .

إن لنا قلائصا نقانقا مستوسقات لو يجدن سائقا

وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿والقمر إذا اتسق﴾ قال : ليلة ثلاثة عشر . وأخرج عبد بن حميد عن عمر بن الخطاب ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ قال : حالا بعد حال . وأخرج البخاري عن ابن عباس ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ حالا بعد حال ، قال : هذا نبيكم ﷺ . وأخرج أبو عبيد في الثراءات ، وسعيد بن منصور وابن منيع وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أنه كان يقرأ : « لتركبن طبقا عن طبق » يعني : بفتح الباء من ﴿تركبن﴾ . وقال : يعني : نبيكم ﷺ حالا بعد حال . وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني عنه قال : ﴿لتركبن﴾ يا محمد السماء ﴿طبقا عن طبق﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، والحاكم في الكنى ، والطبراني وابن منده وابن مردويه عن ابن مسعود ؛ أنه قرأ : « لتركبن » : يعني : بفتح الباء . وقال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عنه : ﴿لتركبن طبقا عن طبق﴾ يعني : السماء تنفطر ، ثم تنشق ، ثم تحمر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي عنه أيضا في الآية قال : السماء تكون كالمهل ، وتكون وردة كالدهان ، وتكون واهية ، وتشقق فتكون حالا بعد حال . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿والله أعلم بما يوعون﴾ قال : يسرون .

تفسير سورة البروج

هي اثنتان وعشرون آية . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ والسماوات ذات البروج ﴾ بمكة . وأخرج أحمد قال : حدثنا عبد الصمد حدثنا زريق بن أبي سلمى حدثنا أبو المهزم عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بـ ﴿ السماوات ذات البروج ﴾ ، و ﴿ السماء والطارق ﴾ (١) . وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة في المصنف ، وأحمد والدارمي وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي وابن حبان والطبراني ، والبيهقي في سننه عن جابر بن سمرة ؛ أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿ السماء والطارق ﴾ و ﴿ السماوات ذات البروج ﴾ (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُدْعَىٰ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ۞

قوله : ﴿ والسماوات ذات البروج ﴾ قد تقدّم الكلام في البروج عند تفسير قوله : ﴿ جعل في السماء بروجاً ﴾ [الفرقان : ٦١] قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هي النجوم ، والمعنى : والسماوات ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضاً : هي قصور في السماء . وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن . وقال أبو عبيدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب ، وهي اثنا عشر برجاً لاثنى عشر كوكباً ، وهي الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ،

(١) أحمد ٢ / ٣٢٧ .

(٢) ابن أبي شيبة ١ / ٣٥٦ وأحمد ٥ / ١٠٦ والدارمي ١ / ٢٩٥ وأبو داود في الصلاة (٨٠٥) والترمذي في الصلاة (٣٠٧) والنسائي في الصلاة ١٦٦/٢ وابن حبان (١٨٢٤) والطبراني (١٩٦٦) والبيهقي ٢ / ٣٩١ .

والأسد ، والسنبلة . والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . والبروج
فى كلام العرب : القصور ، ومنه قوله : ﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨]
شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها . وقيل : هى أبواب السماء . وقيل : هى
منازل القمر . وأصل البرج : الظهور ، سميت بذلك لظهورها . ﴿ واليوم الموعود ﴾ أى
الموعود به ، وهو يوم القيامة . قال الواحدى : فى قول جميع المفسرين .

﴿ وشاهد ومشهود ﴾ المراد بالشاهد : من يشهد فى ذلك اليوم من الخلائق ، أى يحضر
فيه ، والمراد بالمشهود : ما يشاهد فى ذلك اليوم من العجائب وذهب جماعة من الصحابة
والتابعين إلى أن الشاهد : يوم الجمعة ، وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود : يوم
عرفة ، لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج ، وتحضره الملائكة ، قال الواحدى : وهذا قول الأكثر ،
وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد : يوم الأضحى . وقال سعيد بن المسيب :
الشاهد : يوم التروية ، والمشهود : يوم عرفة ، وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة ، والمشهود :
يوم النحر . وقيل : الشاهد : هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، لقوله :
﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ [النساء : ١٦٦] وقوله : ﴿ قل أى شئ أكبر شهادة قل الله
شهيدى وبينكم ﴾ [الأنعام : ١٩] . وقيل : الشاهد : محمد ﷺ لقوله : ﴿ فكيف إذا
جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] وقوله : ﴿ يأيها النبى
إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] وقوله : ﴿ ويكون الرسول عليكم
شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : جميع الأنبياء لقوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من
كل أمة بشهيد ﴾ [النساء : ٤١] . وقيل : هو عيسى ابن مريم لقوله : ﴿ وكنت عليهم شهيدا
مادمت فيهم ﴾ [المائدة : ١١٧] والمشهود على هذه الأقوال الثلاثة : إما أمة محمد ، أو أمم
الأنبياء ، أو أمة عيسى . وقيل : الشاهد : آدم ، والمشهود : ذريته ، وقال محمد بن كعب :
الشاهد : الإنسان لقوله : ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ [الإسراء : ١٤] وقال مقاتل :
أعضاؤه لقوله : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ [النور : ٢٤]
وقال الحسين بن الفضل : الشاهد : هذه الأمة ، والمشهود : سائر الأمم لقوله : ﴿ وكذلك
جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [البقرة : ١٤٣] . وقيل : الشاهد : الحفظة
والمشهود : بنو آدم . وقيل : الأيام والليالى . وقيل : الشاهد : الخلق ، يشهدون لله عز وجل
بالوحدانية ، والمشهود له بالوحدانية هو الله سبحانه ، وسيأتى بيان ما ورد فى تفسير الشاهد
والمشهود - وبيان ما هو الحق إن شاء الله .

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ هذا جواب القسم ، واللام فيه مضمرة ، وهو الظاهر ، وبه
قال الفراء وغيره . وقيل : تقديره : لقد قتل ، فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة
خبرية ، والظاهر أنها دعائية ، لأن معنى ﴿ قتل ﴾ : لعن . قال الواحدى : فى قول الجميع ،

والدعائية لا تكون جواباً للقسم ، فقل : الجواب قوله : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ . وقيل : قوله : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وبه قال المبرد : واعترض عليه بطول الفصل . وقيل : هو مقدّر يدل عليه قوله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ كأنه قال : أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود . وقيل : تقدير الجواب : لتبعثن ، واختاره ابن الأنباري ، وقال أبو حاتم السجستاني وابن الأنباري أيضا : في الكلام تقديم وتأخير ، أي قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج ، واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال : والله قام زيد . والأخدود : الشقّ العظيم المستطيل في الأرض كالخندق - وجمعه أخاديد ، ومنه الخدّ لمجارى الدموع ، والمخدة لأن الخد يوضع عليها . ويقال : تخذد وجه الرجل : إذا صارت فيه أخاديد من خراج ، ومنه قول طرفة :

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقى اللون لم يتخذد

وسأتي بيان حديث أصحاب الأخدود إن شاء الله . قرأ الجمهور : ﴿ النار ذات الوقود ﴾ بجر النار على أنها بدل احتمال من الأخدود ؛ لأن الأخدود مشتمل عليها ، ﴿ وذات الوقود ﴾ وصف لها بأنها نار عظيمة . والوقود : الخطب الذي توقد به . وقيل : هو بدل كل من كل ، لا بدل احتمال . وقيل : إن النار مخفوضة على الجوار ، كذا حكى مكى عن الكوفيين . وقرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرأ قتادة وأبو رجاء ونصر بن عاصم بضمها ، وقرأ أشهب العقيلي وأبو حيوة وأبو السمال العدوي وابن السميع وعيسى برفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي هي النار ، أو على أنها فاعل فعل محذوف ، أي أحرقتهم النار . ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ العامل في الظرف قتل ، أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ، ويقرب إليها . قال مقاتل : يعنى : عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد : كانوا قعودا على الكراسي عند الأخدود . ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي الذين خدّوا الأخدود ، وهم الملك وأصحابه ، على ما يفعلون بالمؤمنين من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم شهود ، أي حضور ، أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به . وقيل : يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ، ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم . وقيل : «على» بمعنى مع ، والتقدير : وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود . قال الزجاج : أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله . ﴿ وما نقموا منهم ﴾ أي ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أي إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال . قال الزجاج : ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آسنا بالله ﴾ [المائدة : ٥٩] وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

لا عيب فيهم سوى أن التزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر :

ولا عيب فيهم غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكلا عيونها

قرأ الجمهور : ﴿ نَقَمُوا ﴾ بفتح النون ، وقرأ أبو حيوة بكسرهما ، والفصحى الفتح . ثم وصف سبحانه نفسه بما يدل على العظم والفخامة فقال : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه ، فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحده . ﴿ والله على كل شئ شهيد ﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا يخفى عليه منه خافية ، وفى هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبه على دينه من أولئك المؤمنين . ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ أى حرقوهم بالنار ، والعرب تقول : فتنت الشئ ، أى أحرقتة ، وفتنت الدرهم والدينار : إذا أدخلته النار لتنظر جودته . ويقال : دينار مفتون ويسمى الصائع الفتان ، ومنه قوله : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ [الذاريات : ١٣] أى يحرقون . وقيل : معنى ﴿ فتنوا المؤمنين ﴾ : منحوهم فى دينهم ليرجعوا عنه ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ من قبيح صنعهم ويرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ، ﴿ فلهم عذاب جهنم ﴾ أى لهم فى الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم ، والجملة فى محل رفع على أنها خبر إن ، أو الخبر لهم ، وعذاب جهنم مرتفع به على الفاعلية ، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط ، ولا يضر نسخه بأن خلافا للأخفش ، ولهم عذاب الحريق ، أى ولهم عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم ، وهو عذاب الحريق الذى وقع منهم للمؤمنين . وقيل : إن الحريق اسم من أسماء النار كالسعرير . وقيل : إنهم يعذبون فى جهنم بالزمهرير ثم يعذبون بعذاب الحريق ، فالأول عذاب بيردها . والثانى عذاب بحرّها . وقال الربيع بن أنس : إن عذاب الحريق أصيبوا به فى الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي .

ثم ذكر سبحانه ما أعد للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وظاهر الآية العموم ، فيدخل فى ذلك المحرقون فى الأخدود بسبب إيمانهم دخولا أوليا ، والمعنى : أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح جنات متصفة بهذه الصفة . وقد تقدّم كيفية جرى الأنهار من تحت الجنات فى غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجرى الأنهار من تحتها واضح ، وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مما أعدّه الله لهم ، أى ذلك المذكور ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذى لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز : الظفر بالمطلوب . وجملة : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ مستأنفة لخطاب النبى ﷺ مبنية لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، أى أخذه للجبايرة والظلمة شديد .

والبطش : الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم ، ومثل هذا قوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود : ١٠٢] ﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ أى يخلق الخلق أولاً فى الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت . كذا قال الجمهور . وقيل : يبدئ للكفار عذاب الحريق فى الدنيا ثم يعيده لهم فى الآخرة ، واختار هذا ابن جرير ، والأول أولى . ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أى بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه . قال مجاهد : الواد لأوليائه ، فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد : معنى الودود الرحيم . وحكى المبرد عن إسماعيل القاضى أن الودود هو الذى لا ولد له وأنشد :

وأركب فى الروع عريانة ذلول الجناح لقاحاً ودوداً

أى لا ولد لها تحن إليه . وقيل : الودود بمعنى المودود ، أى يؤده عباده الصالحون ويحيونه ، كذا قال الأزهري . قال : ويجوز أن يكون فعول بمعنى فاعل ، أى يكون محباً لهم . قال : وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرّر عندهم من كريم إحسانه . قرأ الجمهور : ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ برفع المجيد على أنه نعت لـ ﴿ ذو ﴾ ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة وأبو حاتم قالوا : لأن المجد هو النهاية فى الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك ، وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بالجذر على أنه نعت للعرش . وقد وصف سبحانه عرشه بالكرم كما فى آخر سورة المؤمنون . وقيل : هو نعت لربك ، ولا يضّر الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكى : هو خبر بعد خبر ، والاول أولى ، ومعنى ﴿ ذو العرش ﴾ : ذو الملك والسلطان كما يقال : فلان على سرير ملكه ، ومنه قول الشاعر :

رأوا عرشى تشلم جانباه فلما أن تشلم أفردونى

وقول الآخر :

إن يقتلوك فقد ثلثت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقيل : المراد : خالق العرش . ﴿ فعال لما يريد ﴾ أى من الإبداء والإعادة . قال عطاء : لا يعجز عن شئ يريده ولا يمتنع منه شئ طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف . قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف ، لأنه نكرة محضة . قال ابن جرير : رفع فعال ، وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب الغفور الودود ، وإنما قال : ﴿ فعال ﴾ لأن ما يريد ويفعل فى غاية الكثرة . ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ والجملة مستأنفة مقررّة لما تقدّم من شدة بطشه سبحانه وكونه فعالاً لما يريده ، وفيه تسلية لرسول الله ﷺ ، أى هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها . ثم بينهم فقال : ﴿ فرعون وثمود ﴾ وهو بدل من الجنود ، والمراد بفرعون : هو وقومه ، والمراد بتمود :

القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم : ما وقع منهم من الكفر والعناد وما وقع عليهم من العذاب ، وقصتهم مشهورة قد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب وعند مشركي العرب ودلّ بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن ماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره ﷺ لمن تقدّم ذكره وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال : ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أى بل هؤلاء المشركون من العرب في تكذيب شديد لك ، ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أى يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك ، والإحاطة بالشئ : الحصر له من جميع جوانبه ، فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط . ثم ردّ سبحانه تكذبيهم بالقرآن فقال : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أى مثناه في الشرف والكرم والبركة لكونه بيانا لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا ، وليس هو كما يقولون : إنه شعر وكهانة وسحر ﴿ في لوح محفوظ ﴾ أى مكتوب في لوح ، وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين إليه . قرأ الجمهور محفوظ بالجرّ على أنه نعت للوح ، وقرأ نافع برفعه على أنه نعت للقرآن ، أى بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح ، واتفق القراء على فتح اللام من ﴿ لوح ﴾ إلا يحيى بن يعمر وابن السميع فإنهما قرآ بضمها . قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش . قيل : والمراد باللوح بضم اللام : الهواء الذى فوق السماء السابعة . قال أبو الفضل : اللوح بضم اللام : الهواء ، وكذا قال ابن خالويه . قال في الصحاح : اللوح بالضم : الهواء بين السماء والأرض .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : ﴿ البروج ﴾ : قصور في السماء ^(١) . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبی ﷺ سئل عن ﴿ السماء ذات البروج ﴾ فقال : « الكواكب » ، وسئل عن قوله : ﴿ الذى جعل في السماء بروجا ﴾ [الفرقان : ٦١] قال : « الكواكب » ، وعن قوله : ﴿ في بروج مشيدة ﴾ [النساء : ٧٨] قال : « القصور » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ﴾ قال : اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وهو الحج الأكبر ، فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد وأمه وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله ، وأحب الأعمال فيه إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه . وأخرج عبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى في سننه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة ، واليوم المشهود : يوم عرفة ، والشاهد : يوم الجمعة ، وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه ، فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيز

(١) ابن جرير ٣٠ / ٨١ .

من شيء إلا أعاده منه» (١). وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة رفعه : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : « الشاهد : يوم عرفة ويوم الجمعة ، والمشهود : هو الموعود يوم القيامة » (٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال : اليوم الموعود : يوم القيامة ، والمشهود : يوم النحر ، والشاهد : يوم الجمعة .

وأخرج ابن جرير والطبراني وابن مردويه من طريق شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة ، والشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » (٣) . وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ في الآية « الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس وأبي هريرة مثله موقوفا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة » وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب (٤) . وأخرج ابن ماجة والطبراني وابن جرير عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة ، فإنه يوم مشهود ، تشهد الملائكة » (٥) .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال : الشاهد : يوم الجمعة والمشهود : يوم عرفة . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن الحسن بن علي أن رجلا سأل عن قوله : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : هل سألت أحدا قبلى ؟ قال : نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . قال : لا ولكن الشاهد : محمد ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ [النساء : ٤١] والمشهود : يوم القيامة ثم قرأ : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : ١٠٣] . وأخرج عبد بن حميد ، والطبراني في الأوسط والصغير ، وابن مردويه عن الحسن ابن علي في الآية قال : الشاهد : جدّي رسول الله ﷺ . والمشهود : يوم القيامة ، ثم تلا : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ . وأخرج عبد بن حميد والنسائي وابن أبي الدنيا والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال : اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم القيامة ،

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٣٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ٣ / ٨٣ والبيهقى فى الجمعة ٣ / ١٧٠ .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ٥١٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الجمعة ٣ / ١٧٠ .

(٣) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ والطبرانى (٣٤٥٨) .

(٤) ابن جرير ٣٠ / ٨٣ .

(٥) ابن ماجة فى الجناز (١٦٣٧) وفى الزوائد : « هذا الحديث صحيح إلا أنه منقطع فى موضعين ، لأن عبادة روايته عن أبي الدرداء مرسله قاله العلاء ، وزيد بن أيمن عن عبادة مرسله ، قاله البخارى » وابن جرير ٣٠ / ٨٤ .

ثم تلا : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ . وأخرج ابن جرير عنه قال : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الشاهد : الله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضا قال : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة .

قلت : وهذه التفاسير عن الصحابة رضى الله عنهم قد اختلفت كما ترى ، وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلا على أنه المراد بالشاهد والمشهود فى هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين فى هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذى ذكر فى آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ هو جميع ما أطلق عليه فى الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل بذلك . فإن قلت : هل فى المرفوع الذى ذكرته من حديثى أبى هريرة ، وحديث أبى مالك ، وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود ، والشاهد والمشهود ؟ قلت : أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التى ذكر فيها ، بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففى حديث أبى هريرة الأول أنه يوم الجمعة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم الجمعة ، وفى حديث جبير أنه يوم الجمعة ، وفى مرسل سعيد أنه يوم الجمعة ، فاتفقت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه فى حديث أبى هريرة الثانى ، وأما المشهود ففى حديث أبى هريرة الأول أنه يوم عرفة ، وفى حديثه الثانى أنه يوم القيامة ، وفى حديث أبى مالك أنه يوم عرفة ، وفى حديث جبير بن مطعم أنه يوم عرفة ، وكذا فى حديث سعيد فقد تعين فى هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهى أرجح من تلك الرواية التى صرح فيها بأنه يوم القيامة . فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدمنا أنه وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبه وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى والطبرانى ^(١) عن صهيب : أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم كان لذلك الملك كاهن يكهّن له ، فقال له ذلك الكاهن : انظروا لى غلاما فهما - أو قال : فطنا لقنا فأعلمه علمى ، فإنى أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ولا يكون فيكم من يعلمه - قال : فنظروا له على ما وصف ، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه ، فجعل الغلام يختلف إليه ، وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة ، فجعل الغلام يسأل

(١) عبد الرزاق (٩٧٥١) وأحمد ٦ / ١٥ ومسلم فى الزهد والرفائق (٣٠٠٥ / ٧٣) والترمذى فى التفسير (٣٣٤٠) والنسائى فى التفسير (٦٨١) والطبرانى (٧٣١٩) .

ذلك الراهب كلما مرّ به ، فلم يزل به حتى أخبره فقال : إنما أعبد الله ، فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ويبطئ على الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرني ، فأخبر الغلام الراهب بذلك ، فقال له الراهب : إذا قال لك : أين كنت ؟ فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك : أين كنت ؟ فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مرّ بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة - يقال : إنها كانت أسدا - فأخذ الغلام حجرا فقال : اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقا فأسألك أن تقتل هذه الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقا فأسألك أن لا تقتلها ثم رمى فقتل الدابة ، فقال الناس : من قتلها ؟ فقالوا : الغلام ، ففزع الناس وقالوا : قد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له : إن أنت رددت على بصري فلك كذا وكذا ، فقال الغلام : لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجعت عليك بصرك أتؤمن بالذي ردّه عليك ؟ قال : نعم ، فدعا الله فردّ عليه بصره فأمن الأعمى ، فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال : لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه ، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله ، وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال : انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه ، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل ، فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافون من ذلك الجبل ويتردّون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجع الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك : إنك لن تقتلني حتى تصلبني وترميني وتقول إذا رميتني : بسم الله ربّ الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال : بسم الله ربّ الغلام ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس : لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد ، فإننا نؤمن بربّ هذا الغلام ، فقيل للملك : أجزعت أن خالفك ثلاثة ، فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال : فخذ أحدودا ثم ألقى فيه الخطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود - فقال : يقول الله : ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود ﴾ - حتى بلغ - ﴿ العزيز الحميد ﴾ . فأما الغلام فإنه دفن ، ثم أخرج ، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هبة ابن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب . وأخرج أحمد من طريق عفان عن حماد به . وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به . وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان ، وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليّ بن أبي طالب في قوله: ﴿أصحاب الأخدود﴾ قال: هم الحيشة. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: هم ناس من بنى إسرائيل خدّوا آخدودا في الأرض أوقدوا فيه نارا، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء، فعرضوا عليها. وأخرج ابن المنذر، والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: ﴿والسما ذات البروج﴾ إلى قوله: ﴿وشاهد ومشهود﴾ قال: هذا قسم على ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿إنه هو يبدئ ويعيد﴾ قال: يبدئ العذاب ويعيده. وأخرج ابن جرير وابن المنذر، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿الودود﴾ قال: الحبيب، وفي قوله: ﴿ذو العرش المجيد﴾ قال: الكريم. وأخرج ابن المنذر عنه في قوله: ﴿في لوح محفوظ﴾ قال: أخبرت أنه لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر، وإن ذلك اللوح من نور، وإنه مسيرة ثلاثمائة سنة. وأخرج ابن جرير عن أنس قال: إن اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في قوله: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ في جبهة إسرافيل. وأخرج أبو الشيخ، قال السيوطي: بسند جيد، عن ابن عباس قال: خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام، فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق: اكتب علمي في خلقى، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة.

تفسير سورة الطارق

هى سبع عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والسما والطارق ﴾ بمكة . وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والطبرانى وابن مردويه عن خالد العدوانى ؛ أنه أبصر رسول الله ﷺ فى سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصى حين أتاهم يبتغى النصر عندهم ، فسمعه يقرأ : ﴿ والسما والطارق ﴾ حتى ختمها ، قال : فوعيتها فى الجاهلية ، ثم قرأتها فى الإسلام ، قال : فدعنتى ثقيف فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ، فقالت ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرُّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ .

أقسم سبحانه بالسما والطارق ، وهو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل . قال الواحدى : قال المفسرون : أقسم الله بالسما والطارق ، يعنى : الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفراء : الطارق : النجم ؛ لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلا فهو طارق . وكذا قال الزجاج والمبرد ، ومنه قول امرئ القيس :

ومثلك جلى قد طرقت ومرضع

فألهيته عن ذى ثنائم محول

وقوله أيضا :

ألم تريانى كلما جئت طارقا

وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد اختلف فى الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ؟ فقيل : هو زحل . وقيل :

(١) أحمد ٤ / ٣٣٥ والطبرانى (٤١٢٦ ، ٤١٢٧) .

الثرى. وقيل : هو الذى ترمى به الشياطين . وقيل : هو جنس النجم . قال فى الصحاح : ﴿والطارق﴾ : النجم الذى يقال له . كوكب الصبح ، ومنه قول هند بنت عتبة :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق

أى إن أبانا فى الشرف كالنجم المضى ، وأصل الطروق : الدق ، فسمى قاصد الليل طارقا لاحتياجه فى الوصول إلى الدق. وقال قوم : إن الطروق قد يكون نهارا ، والعرب تقول : أتيتك اليوم طرقتين ، أى مرتين ، ومنه قوله عليه السلام : « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير » ^(١) ثم بين سبحانه ما هو الطارق ، تفخيما لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال : ﴿ وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب ﴾ الثاقب : المضى ، ومنه يقال : ثقب النجم ثقبوا وثقابة : إذا أضاء ، وثقابه ضوؤه ، ومنه قول الشاعر :

أذاع به فى الناس حتى كأنه بعلياء نار أوقدت بثقوب

قال الواحدى : الطارق يقع على كل ما طرق ليلا ، ولم يكن النبى ﷺ يدرك ما المراد به لو لم يبينه بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال مجاهد : الثاقب : المتوهج . قال سفيان : كل ما فى القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أخبره ، وكل شئ قال : ﴿ وما يدريك ﴾ لم يخبره به ، وارتفاع قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله كأنه قيل : ماهو ؟ فقيل : هو النجم الثاقب . ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينهما اعتراض ، وقد تقدّم فى سورة هود اختلاف القراء فى « لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هى المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدّر ، وهو اسمها ، واللام هى الفارقة ، وما مزيدة ، أى إن الشأن كل نفس لعلها حافظ ، ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا ، أى ما كل نفس إلا عليها حافظ ، وقد قرأ هنا بالتشديد ابن عامر ، وعاصم وحمة وقرأ الباقر بالتخفيف . قيل : والحافظ : هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشر . وقيل : الحافظ : هو الله عز وجل . وقيل : هو العقل يرشدهم إلى المصالح ، ويكفهم عن المفاسد ، والأول أولى لقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ [الانفطار : ١٠] وقوله : ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ [الأنعام : ٦١] وقوله : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ [الرعد : ١١] والحافظ على الحقيقة هو الله عز وجل كما فى قوله : ﴿ فالله خير حافظا ﴾ [يوسف : ٦٥] وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم بأمره .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ الفاء للدلالة على أن كون على كل نفس حافظ يوجب على

(١) أحمد ٣ / ٤١٩ . وهو جزء من حديث طويل عن عبد الرحمن بن خنيس .

الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون ذلك من البعث. قال مقاتل :
يعنى : المكذب بالبعث ﴿مَمَّ خَلَقَ﴾ من أى شئ خلقه الله ، والمعنى : فلينظر نظر التفكير
والاستدلال حتى يعرف أن الذى ابتدأه من نقطة قادر على إعادته . ثم بين سبحانه ذلك فقال :
﴿ خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، والماء : هو المنى ، والدفق :
الصب . يقال : دفقت الماء ، أى صببته ، يقال : ماء دافق ، أى مدفوق ، مثل ﴿ عَيْشَةٍ
رَاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : ٧] أى مرضية . قال الفراء والأخفش : ﴿ ماء دافق ﴾ أى مصبوب فى
الرحم . قال الفراء : وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول فى كثير من كلامهم كقولهم :
سرّ كاتم أى مكتوم ، وهم ناصب أى منصوب ، وليل نائم ونحو ذلك . قال الزجاج : من ماء
ذى اندفاق ، يقال : دارع وقايس ونابل ، أى ذو درع وقوس ونبل ، وأراد سبحانه ماء الرجل
والمرأة ؛ لأن الإنسان مخلوق منهما ، لكن جعلهما ماء واحدا لامتزاجهما .

ثم وصف هذا الماء فقال : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ أى صلب الرجل ،
وترائب المرأة ، والترائب جمع تربية ، وهى موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من
الماءين . قرأ الجمهور : ﴿ يخرج ﴾ مبنيا للفاعل ، وقرأ ابن أبى عبله وابن مقسم مبنيا للمفعول ،
وفى الصلب ، وهو الظهر ، لغات : قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة
بضم الصاد واللام . وقرأ اليماني بفتحهما . ويقال : صالب على وزن قالب ، ومنه قول
العباس بن عبد المطلب :

تنقل من صلب إلى رحم

فى أبياته المشهورة فى مدح النبى ﷺ ، وقد تقدّم كلام فى هذا عند تفسير قوله :
﴿الذين من أصلا بكم﴾ [النساء : ٢٣] وقيل : الترائب : ما بين الثديين . وقال الضحاك :
ترائب المرأة : اليدين والرجلين والعينين . وقال سعيد بن جبير : هى الجيد . وقال مجاهد : ما
بين المنكبين والصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى الصدر ، وروى عنه أيضا أنه قال : هى
التراقى ، وحكى الزجاج : أن الترائب عصارة القلب ، ومنه يكون الولد ، والمشهور فى اللغة
أنها عظام الصدر والنحر ، ومنه قول دريد بن الصمة :

فإن تدبروا نأخذكم فى ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم فى الترائب

قال عكرمة : الترائب الصدر ، وأنشد :

نظامٌ درّ على ترائبها

قال فى الصحاح : التربية واحدة الترائب . وهى عظام الصدر - قال أبو عبيدة : جمع
التربية تريب ، ومنه قول المثقب العبدى :

ومن ذهب يمين على تريب كلون العاج ليس بذى غضون

وقول امرئ القيس :

تراثها مصقولة كالسجنجل (١)

وحكى الزجاج: أن الترائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر ، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر ، قال قتادة والحسن : المعنى : ويخرج من صلب الرجل وترائب المرأة . وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي عن العرب يكون معنى ﴿ من بين الصلب ﴾ : من الصلب . وقيل : إن ماء الرجل ينزل من الدماغ ، ولا يخالف هذا ما فى الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من الصلب والترائب . وقيل : إن المعنى : يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما فى الآية ، لأن نسبة خروجه إلى بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هى الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها . ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ الضمير فى ﴿ إنه ﴾ يرجع إلى الله سبحانه لدلالة قوله : ﴿ خلق ﴾ عليه ، فإن الذى خلقه هو الله سبحانه ، والضمير فى ﴿ رجعه ﴾ عائد إلى الإنسان . والمعنى : أن الله سبحانه على رجوع الإنسان ، أى إعادته بالبعث بعد الموت ﴿ لقادر ﴾ هكذا قال جماعة من المفسرين : وقال مجاهد : على أن يردّ الماء فى الإحليل . وقال عكرمة والضحاك : على أن يردّ الماء فى الصلب . وقال مقاتل بن حيان : يقول : إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة . وقال ابن زيد : إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر . والأول أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبى والقرطبى . ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ العامل فى الظرف على التفسير الأول هو ﴿ رجعه ﴾ . وقيل : ﴿ لقادر ﴾ . واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم . وقيل : العامل فيه مقدّر ، أى يرجعه يوم تبلى السرائر . وقيل : العامل فيه مقدّر ، وهو اذكر ، فيكون مفعولا به ، وأما على قول من قال : إن المراد رجع الماء ، فالعامل فى الظرف مقدّر ، وهو اذكر ، ومعنى ﴿ تبلى السرائر ﴾ : تختبر وتعرف ، ومنه قول الراجز :

قد كنت قبل اليوم تزدرينى فالיום أبلوك وتبلىينى

أى أختبرك وتختبرينى ، وأمتحنك وتمتحنينى ، والسرائر : ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيات وغيرها ، والمراد هنا : عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغث من السمين ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أى فما للإنسان من قوة فى نفسه يتمتع بها من عذاب الله ، ولا ناصر ينصره مما نزل به ، وقال عكرمة : هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر . قال سفيان : القوة : العشيرة ، والناصر : الحليف ، والأول أولى . ﴿ والسماء ذات الرجع ﴾ الرجع : المطر . قال الزجاج : الرجع : المطر ؛ لأنه يجىء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل : الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع . قال أهل اللغة :

(١) السجنجل : المرأة أو سبيكة الفضة أو ماء الذهب .

الرجع : المطر ، قال المنخل يصف شيئاً له :

أبيض كالرجع رسوب إذا مباح في محتفل يختلى

قال الواحدى : الرجع : المطر فى قول جميع المفسرين ، وفى هذا الذى حكاه عن جميع المفسرين نظر ، فإن ابن زيد قال : الرجع : الشمس والقمر والنجوم يرجعن فى السماء تطلع من ناحية وتغيب فى أخرى . وقال بعض المفسرين : ﴿ ذات الرجع ﴾ : ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم : معنى ﴿ ذات الرجع ﴾ : ذات النفع ، ووجه تسمية المطر رجعا ما قاله القفال : إنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته ، وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعا . وقيل : إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب يحمل الماء من بحار الأرض ، ثم يرجعه إلى الأرض . وقيل : سمته العرب رجعا لأجل التفاؤل ليرجع عليهم . وقيل : لأن الله يرجعه وقتا بعد وقت . ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والصدع : الشق لأنه يصدع الأرض فتصدع له . قال أبو عبيدة والفرء : تتصدع بالنبات . قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التى تصدعها المياه . وقيل : ذات الحرث لأنه يصدعها . وقيل : ذات الأموات لانصداعها عنهم عند البعث . والحاصل أن الصدع إن كان اسما للنبات فكأنه قال : والأرض ذات النبات ، وإن كان المراد به الشق فكأنه قال : والأرض ذات الشق الذى يخرج منه النبات ونحوه ، وجواب القسم قوله : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ أى إن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أى لم ينزل باللعب ، فهو جدّ ليس بالهزل ، والهزل ضدّ الجدّ . قال الكميت :

تجدّ بنا فى كل يوم وتهزل

﴿ إنهم يكيدون كيدا ﴾ أى يمكرون فى إبطال ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين الحق . قال الزجاج : يخاتلون النبى ﷺ ويظهرون ما هم على خلافه . ﴿ وأكيد كيدا ﴾ أى أستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأجازيهم جزاء كيدهم . قيل : هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والأسر ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أى أخرهم ، ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم ، وارضى بما يدبره لك فى أمورهم ، وقوله : ﴿ أمهلهم ﴾ بدل من مهل ، ومهل وأمهل بمعنى ، مثل نزل وأنزل ، والإمهال : الإنظار ، وتمهل فى الأمر : اتأد ، وانتصاب ﴿ رويدا ﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور ، أو نعت لمصدر محذوف ، أى أمهلهم إمهالا رويدا ، أى قريبا أو قليلا . قال أبو عبيدة : والرويد فى كلام العرب تصغير الرود ، وأنشد :

كأنها [ثملٌ] ^(١) تمشى على رود

أى مهل ^(٢) . وقيل : تصغير أرواد مصدر رود تصغير الترخيم ، ويأتى اسم فعل نحو رويد زيدا ، أى أمهله ، ويأتى حالا نحو سار القوم رويدا ، أى متمهلين ، ذكر معنى هذا الجوهري ، والبحث مستوفى فى علم النحو .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والسما والطارق ﴾ قال : أقسم ربك بالطارق : وكل شىء طرقت بالليل فهو طارق . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : كل نفس عليها حفظة من الملائكة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال : النجم المضى ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ قال : إلا عليها حافظ . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ قال : ما بين الجلد والنحر . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : تربية المرأة وهى موضع القلادة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا قال : الترائب بين ثديي المرأة . وأخرج الحاكم وصححه أيضا قال : الترائب أربعة أضلاع من كل جانب من أسفل الأضلاع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه أيضا ﴿ إنه على رجه لقادر ﴾ قال : على أن يجعل الشيخ شابا والشاب شيخا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والسما ذات الرجع ﴾ قال : المطر بعد المطر ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : صدعها عن النبات . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ تصدع الأودية . وأخرج ابن منده والديلمى عن معاذ بن أنس مرفوعا : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ قال : تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ قال : حق ، ﴿ وما هو بالهزل ﴾ قال : بالباطل ، وفى قوله : ﴿ أمهلهم رويدا ﴾ قال : قريبا .

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة والمخطوطة وقد أثبتناه من القرطبي ١٠ / ٧١٠٢ .

(٢) فى المطبوعة : « على مهل » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

تفسير سورة الأعلى

ويقال : سورة سبح . هي تسع عشرة آية . وهي مكية في قول الجمهور . وقال الضحاك : هي مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها (١) . وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن علي قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ (٢) . أخرجه أحمد عن وكيع عن إسرائيل عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه عن علي .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وأهل السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ ، وإن وافق يوم جمعة قرأهما جميعاً . وفي لفظ : وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما . وفي الباب أحاديث (٣) . وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بسبح اسم ربك الأعلى (٤) . وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٥) . وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، والحاكم وصححه ، والبيهقي عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿ سبح ﴾ ، وفي الثانية : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين (٦) . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، والشمس وضحاها ﴾ ، والليل إذا يغشى ﴾ » (٧) .

(١) أحمد ٤ / ٢٨٤ والبخاري في التفسير (٢٩٤١) . (٢) أحمد ١ / ٩٦ .

(٣) أحمد ٤ / ٢٧١ ومسلم في الجمعة (٨٧٨ / ٦٢) . (٤) مسلم في الصلاة (٤٦٠ / ١٧١) .

(٥) أبو داود في الصلاة (١٤٢٣) والنسائي في الصلاة ٣ / ٢٤٤ وابن ماجة في إقامة الصلاة (١١٧١) والدارقطني ٢ / ٣١ وصححه الحاكم ٢ / ٢٥٧ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الصلاة ٣ / ٣٨ .

(٦) أبو داود في الصلاة (١٤٢٤) والترمذي في الصلاة (٤٦٣) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن ماجة في إقامة الصلاة (١١٧٣) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٠ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الصلاة ٣ / ٣٧ .

(٧) البخاري في الأدب (٦١٠٦) ومسلم في الصلاة (٤٦٥ / ١٧٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنَقِرُكَ فَلَا تَنسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَتَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)﴾ .

قوله : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أى نزهه عن كل ما لا يليق به : قال السدى : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ أى عظمه ، قيل : والاسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، كما فى قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

والمعنى : سبِّح ربك الأعلى . قال ابن جرير : المعنى : نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواء ، فلا تكون على هذا مقحمة . وقيل : المعنى : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت خاشع معظم ، ولذكره محترم . وقال الحسن : معنى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ : صل له . وقيل : المعنى : صل بأسماء الله ، لا كما يصلى المشركون بالمكاء والتصدية . وقيل : المعنى : ارفع صوتك بذكر ربك . ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيح وكبروا تكبيرا

والأعلى صفة للرب . وقيل : للاسم . والأول أولى . وقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ : صفة أخرى للرب . قال الزجاج : خلق الإنسان مستوياً . ومعنى سوى : عدل قامته . قال الضحاك : خلقه فسوى خلقه . وقيل : خلق الأجساد فسوى الأفهام . وقيل : خلق الإنسان وهياًه للتكليف . ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ : صفة أخرى للرب ، أو معطوف على الموصول الذى قبله . قرأ على بن أبى طالب ، والكسائى والسلمى : « قدر » مخففاً . وقرأ الباقون بالتشديد . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب ، فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها . وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والشر ، والسعادة والشقاوة . وروى عنه أيضاً أنه قال فى معنى الآية : قدر السعادة والشقاوة ، وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الأنعام لمراعيها . وقيل : قدر أرزاقهم وأقواتهم ، وهدهم لمعايشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً . وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له . وقيل : خلق المنافع فى

الأشياء ، وهدى الإنسان أوجه استخراجها منها . وقال السدى : قدر مدة الجنين فى الرحم تسعة أشهر وأقل وأكثر ، ثم هدها للخروج من الرحم . قال الفراء : أى قدر فهدى ، وأضل ، فاكتفى بأحدهما . وفى تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى ، إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين، إما على البدل أو على الشمول . والمعنى : قدر أجناس الأشياء ، وأنواعها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغى له ، ويسره لما خلق له ، وألهمهم إلى أمور دينه ودنياه . ﴿ والذى أخرج المرعى ﴾ صفة أخرى للرب ، أى : أثبت العشب وما ترعاه النعم من النبات الأخضر . ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ أى فجعله بعد أن كان أخضر غثاء ، أى : هشيماً جافاً كالغثاء الذى يكون فوق السيل . ﴿ أحوى ﴾ أى أسود بعد اخضراره . وذلك أن الكلاً إذا بيس اسود قال قتادة : الغثاء : الشئ اليابس . ويقال للبقل والحشيش إذا انحطم ويبس : غثاء وهشيم ، قال امرؤ القيس :

كأن ذرى رأس المجيرم وغدوه من السيل والأغثاء فلكة مغزل

وانتصاب ﴿ غثاء ﴾ على أنه المفعول الثانى ، أو على الحال ، و ﴿ أحوى ﴾ صفة له . وقال الكسائى : هو حال من المرعى ، أى أخرجه أحوى من شدة الخضرة والرى . ﴿ فجعله غثاء ﴾ بعد ذلك . والأحوى مأخوذ من الحوة ، وهى سواد يضرب إلى الخضرة . قال فى الصحاح : والحوة سمرة الشفة ، ومنه قول ذى الرمة :

لمياء فى شفتيها حوة لعس وفى اللثات وفى أنيابها شنب

﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ أى سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة . فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ الخاصة به بعد بيان الهداية العامة . وهى هدايته ﷺ لحفظ القرآن . قال مجاهد والكلبي : كان النبى ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحى لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبى ﷺ بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ . وقوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل . أى لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه . قال الفراء : وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد ﷺ شيئاً كقوله : ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [هود : ٧] . وقيل : إلا ما شاء الله أن تنسى ، ثم تذكر بعد ذلك ، فإذا قد نسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً . وقيل : بمعنى النسخ ، أى إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته . وقيل : معنى ﴿ فلا تنسى ﴾ : فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه . وقيل : المعنى : إلا ما شاء الله أن يؤخر إنزاله . وقيل : « لا » فى قوله : ﴿ فلا تنسى ﴾ للنهى . والألف مزيدة لرعاية الفاصلة كما فى قوله : ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ [الأحزاب : ٦٧] يعنى

فلا تغفل قراءته وتذكره . ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ الجملة تعليل لما قلبها ، أى يعلم ما ظهر وما بطن ، والإعلان والإسرار . وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل : إن الجهر ما حفظه رسول الله ﷺ من القرآن . وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة ، وما يخفى هو إخفاؤها ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل : إن الجهر جهرة ﷺ بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما فى نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

﴿ ونيسرك لليسر ﴾ معطوف على ﴿ سنقرئك ﴾ ، وما بينهما اعتراض . قال مقاتل : أى نهون عليك عمل الجنة . وقيل : نوفتك للطريقة التى هى أيسر وأسهل . وقيل : للشيعة اليسرى . وهى الخيفية السهلة . وقيل : نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به . والأولى حمل الآية على العموم ، أى نوفتك للطريقة اليسرى فى الدين والدنيا ، فى كل أمر من أمورها التى تتوجه إليك . ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أى عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدهم إلى سبل الخير ، واهداهم إلى شرائع الدين . قال الحسن : تذكرة للمؤمن ، وحجة على الكافر . قال الواحدى : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبى ﷺ بعث مبعثاً للإعذار والإنذار ، فعليه التذكير فى كل حال نفع أو لم ينفع ؛ ولم يذكر الحالة الثانية كقوله : ﴿ سراييل تقيكم الحر ﴾ الآية [النحل : ٨١] . قال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع . فالمعنى : إن نفعت الذكرى أو لم تنفع . وقيل : إنه مخصوص فى قوم بأعيانهم . وقيل : «إن» بمعنى «ما» ، أى فذكر ما نفعت الذكرى . لأن الذكرى نافعة بكل حال . وقيل : إنها بمعنى «قد» . وقيل : إنها بمعنى «إذ» . وما قال الواحدى والجرجاني أولى . وقد سبقهما إلى القول به الفراء والنحاس . قال الرازى : إن قوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ للتنبيه على أشرف الخالين ، وهو وجود النفع الذى لأجله شرعت الذكرى ، والمعلق بأن على شئ لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشئ . ويدل عليه آيات منها الآية . ومنها قوله تعالى : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ [البقرة : ١٧٢] . ومنها قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتكم ﴾ [النساء : ١٠١] فإن القصر جائز عند الخوف وعدمه . ومنها قوله : ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ [البقرة : ٢٣٠] والمراجعة جائزة بدون هذا الظن . فهذا الشرط فيه فوائد . منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الرجل لمن يرشده : قد أوضحت لك إن كنت تعقل . وهو تنبيه للنبى ﷺ على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا فى تكرير الدعوة . فأما الدعاء الأول فعام . انتهى .

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾

أى سيتعظ بوعظك من يخشى الله ، فيزداد بالتذكير خشية وصلاحاً . ﴿ ويتجنبها الأشقى ﴾ أى ويتجنب الذكرى ويبعد عنها الأشقى من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه فى معاصيه . ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ الذى يصلى النار الكبرى ﴾ أى العظيمة الفظيعة ؛ لأنها أشد حرّاً من غيرها . قال الحسن : ﴿ النار الكبرى ﴾ : نار جهنم . والنار الصغرى : نار الدنيا . وقال الزجاج : هى السفلى من أطباق النار . ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أى لا يموت فيها فيستريح مما هو فيه من العذاب ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم

و « ثم » للتراخى فى مراتب الشدة ؛ لأن التردد بين الموت والحياة أقطع من صلى النار الكبرى . ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أى من تطهر من الشرك فأمن بالله ووحده وعمل بشرائعه . قال عطاء ، والربيع : من كان عمله زاكياً نامياً . وقال قتادة : تزكى بعمل صالح . قال قتادة وعطاء وأبو العالية : نزلت فى صدقة الفطر . قال عكرمة : كان الرجل يقول : أقدم زكاتى بين يدى صلاتى . وأصل الزكاة فى اللغة : النماء . وقيل : المراد بالآية : زكاة الأموال كلها . وقيل : المراد بها زكاة الأعمال ، لا زكاة الأموال ، لأن الأكثر أن يقال فى الأموال : زكى لا تزكى . ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قيل : المعنى : ذكر اسم ربه بالخوف فعبده وصلى له . وقيل : ذكر اسم ربه بلسانه فصلى ، أى فأقام الصلوات الخمس . وقيل : ذكر موقفه ومعاده فعبده . وهو كالقول الأول . وقيل : ذكر اسم ربه بالتكبير فى أول الصلاة ؛ لأنها لا تنعقد إلا بذكره ، وهو قوله : الله أكبر . وقيل : ذكر اسم ربه فى طريق المصلى فصلى . وقيل : هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة . وقيل : المراد بالصلاة هنا : صلاة العيد . كما أن المراد بالتزكى فى الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول ؛ لأن السورة مكية ، ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

﴿ بل تؤثرن الحياة الدنيا ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق ، أى لا تفعلون ذلك ، بل تؤثرن اللذات الفانية فى الدنيا . قرأ الجمهور : ﴿ تؤثرن ﴾ بالفوقية على الخطاب . ويؤيدها قراءة أبى : « بل أنتم تؤثرن » . وقرأ أبو عمرو بالتحتية على الغيبة . وقيل : المراد بالآية : الكفرة . والمراد بإيثار الحياة الدنيا : هو الرضا بها والاطمئنان إليها والإعراض عن الآخرة بالكلية . وقيل : المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر . والمراد بإيثارها : ما هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من تأثير جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات . وجملة : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل تؤثرن ، أى والحال أن الدار الآخرة التى هى الجنة أفضل وأدوم من الدنيا . قال مالك بن دينار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خرف

يبقى ، لكان الواجب أن يؤثر خذف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ،
والدنيا من خذف يفنى ؟

والإشارة بقوله : ﴿ إن هذا ﴾ إلى ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده . وقيل : إنه
إشارة إلى جميع السورة . ومعنى ﴿ لفى الصحف الأولى ﴾ أى ثابت فيها . وقوله : ﴿ صحف
إبراهيم وموسى ﴾ بدل من الصحف الأولى . قال قتادة وابن زيد : يريد بقوله : ﴿ إن هذا ﴾
والآخرة خير وأبقى . وقالوا : تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا . وقال
الحسن : تتابعت كتب الله جل ثناؤه إن هذا لفى الصحف الأولى ، وهو قوله : ﴿ قد أفلح ﴾
إلى آخر السورة قرأ الجمهور : ﴿ لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم ﴾ بضم الحاء فى
الموضعين . وقرأ الأعمش ، وهارون ، وأبو عمرو فى رواية عنه بسكونها فيهما . وقرأ الجمهور
﴿ إبراهيم ﴾ بالالف بعد الراء ، وبالياء بعد الهاء . وقرأ أبو رجاء بحذفهما وفتح الهاء . وقرأ
أبو موسى وابن الزبير : « إبراهيم » بالفتن .

وقد أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة بن عامر الجهنى
قال : لما نزلت : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [الواقعة : ٧٤] ، قال لنا رسول الله ﷺ :
« اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، قال : « اجعلوها فى
سجودكم » . ولا مطعن فى إسناده (١) . وأخرج أحمد وأبو داود والطبرانى وابن مردويه ،
والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾
قال : « سبحان ربى الأعلى » (٢) . قال أبو داود : خولف فيه وكيع ، فرواه شعبة عن أبى
إسحاق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً . وأخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق وابن أبى شيبه ،
وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال :
« سبحان ربى الأعلى » . وفى لفظ لعبد بن حميد عنه قال : إذا قرأت : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾
فقل : سبحان ربى الأعلى . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبه وعبد بن حميد ، وابن الأبارى فى
المصاحف عن على بن أبى طالب أنه قرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربى
الأعلى ، وهو فى الصلاة ، فقل له : أتزيد فى القرآن ؟ قال : لا ، إنما أمرنا بشئ فقلته .
وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر عن أبى موسى
الأشعرى ؛ أنه قرأ فى الجمعة بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن

(١) أحمد ٤ / ١٥٥ وأبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (٨٨٧) .

(٢) أحمد ١ / ٢٣٢ وأبو داود فى الصلاة (٨٨٣) والطبرانى (١٢٣٣٥) والبيهقى ٢ / ٣١٠ .

سعيد بن جبير قال : سمعت ابن عمر يقرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى . وكذلك هى فى قراءة أبى بن كعب . وأخرج ابن أبى شيبه عن عمر أنه قال : إذا قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : سبحان ربى الأعلى . وأخرج ابن أبى شيبه وعبد بن حميد عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه قرأ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فقال : سبحان ربى الأعلى ، وهو فى الصلاة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فجعله غناء ﴾ قال : هشيماً ﴿ أحوى ﴾ ، قال : متغيراً . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان النبى ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينسى ، ف قيل له : قد كفيئك ذلك ، ونزلت : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ . وأخرج الحاكم عن سعد بن أبى وقاص نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ يقول : إلا ما شئت أنا فانسيك . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ ونيسرك للنيسرى ﴾ قال : للخير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود : ﴿ ونيسرك للنيسرى ﴾ قال : الجنة . وأخرج البزار وابن مردويه عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وقطع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : « هى الصلوات الخمس ، والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها » . قال البزار : لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من الشرك ﴿ وذكر اسم ربه ﴾ قال : وحد الله ﴿ فصلى ﴾ قال : الصلوات الخمس . وأخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : من قال : لا إله إلا الله . وأخرج البزار ، وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى سنته عن كثير بن عبد الله ابن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ ؛ أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يصلى صلاة العيد ، ويتلو هذه الآية : ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ (١) . وفى لفظ قال : سئل النبى ﷺ عن زكاة الفطر فقال : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال : « هى زكاة الفطر » . وكثير بن عبد الله ضعيف جداً . قال فيه أبو داود : هو ركن من أركان الكذب . وقد صحح الترمذى حديثاً من طريقه ، وخطئ فى ذلك ، ولكنه يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر » . وليس فى هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول ، بل فيهما أنه ﷺ تلا الآية ، وقوله : « هى زكاة الفطر » يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكى ، وقد قدمنا أن السورة مكية ، ولم تكن فى مكة صلاة عيد ولا فطر . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبى سعيد الخدرى :

(١) البزار (٩٠٥) والبيهقى فى الزكاة ٤ / ١٥٩ .

﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ ، قال : أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد . ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قال : خرج إلى العيد وصلى . وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن ابن عمر قال : إنما أنزلت هذه الآية فى إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد (١) : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : قلت لابن عباس : رأيت قوله : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ للفطر ؟ قال : لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها . ثم عاودته فقال لى : والصدقات كلها .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عرفة الثقفى قال : استقرأ ابن مسعود : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بل يؤثرون الحياة الدنيا ترك القراءة وأقبل على أصحابه : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زيتتها ، ونساءها ، وطعامها ، وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فاخترنا هذا العاجل ، وتركنا الآجل . وقال : « بل يؤثرون الحياة الدنيا » بالياء . وأخرج البزار وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هى كلها فى صحف إبراهيم وموسى » . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى الآية ، قال : نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى . وفى لفظ : هذه السورة فى صحف إبراهيم وموسى . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، كم أنزل الله من كتاب ؟ قال : « مائة كتاب وأربعة كتب . . . » الحديث .

تفسير سورة الغاشية

هى ست وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت سورة الغاشية بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ كان يقرأ : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ﴾ .

قوله : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ قال جماعة من المفسرين : هل هنا بمعنى قد . وبه قال قطرب ، أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية ، وهى القيامة ؛ لأنها تغشى الخلائق بأهوالها . وقيل : إن بقاء « هل » هنا على معناها الاستفهامى المتضمن للتعجب بما فى خبره ، والتشويق إلى استماعه أولى . وقد ذهب إلى أن المراد بالغاشية هنا : القيامة أكثر المفسرين . وقال سعيد بن جبيرة ومحمد بن كعب : الغاشية : النار . تغشى وجوه الكفار كما فى قوله : ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ [إبراهيم : ٥٠] وقيل : الغاشية : أهل النار؛ لأنهم يغشونها ويقتحمونها . والأول أولى . قال الكلبي : المعنى : إن لم يكن أتاك حديث الغاشية ، فقد أتاك . ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما هو ؟ أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه فى ذلك اليوم متصفة بهذه الصفة المذكورة . ووجوه مرتفع على الابتداء ، وإن كانت نكرة لوقوعه فى مقام التفصيل . وقد تقدم

(١) سبق تخريجه .

مثل هذا فى سورة القيامة ، وفى سورة النازعات . والتنوين فى ﴿يومئذ﴾ عوض عن المضاف إليه ، أى يوم غشيان الغاشية . والخاشعة : الذليلة الخاضعة . وكل متضائل ساكن يقال له : خاشع . يقال : خشع الصوت : إذا خفى ، وخشع فى صلاته : إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا : أصحابها . قال مقاتل : يعنى الكفار ؛ لأنهم تكبروا عن عبادة الله . قال قتادة وابن زيد : خاشعة فى النار . وقيل : أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص . والأول أولى .

قوله : ﴿عاملة ناصبة﴾ : معنى ﴿عاملة﴾ : أنها تعمل عملاً شاقاً . قال أهل اللغة : يقال للرجل إذا دأب فى سيره : عمل يعمل عملاً . ويقال للسحاب إذا دام برقه : قد عمل يعمل عملاً . قيل : وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار . ﴿ناصبة﴾ أى تعب . يقال : نصب بالكسر ينصب نصباً إذا تعب . والمعنى : أنها فى الآخرة تعب لما تلاقيه من عذاب الله . وقيل : إن قوله : ﴿عاملة﴾ فى الدنيا ؛ إذ لا عمل فى الآخرة ، أى تعمل فى الدنيا بالكفر والمعاصى وتنصب فى ذلك . وقيل : إنها عاملة فى الدنيا ، ناصبة فى الآخرة . والأول أولى . قال قتادة : ﴿عاملة ناصبة﴾ : تكبرت فى الدنيا عن طاعة الله ، وأنصبها فى النار بجر السلاسل الثقيل ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة فى العرصات ﴿فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ [المعارج : ٤] قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله فى الدنيا ولم تنصب ، فأعملها وأنصبها فى جهنم . قال الكلبي : يجرون على وجوههم فى النار . وقال أيضاً : يكلفون ارتقاء جبل من حديد فى جهنم ، فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل . قرأ الجمهور : ﴿عاملة ناصبة﴾ بالرفع فهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ ، أو على تقدير مبتدأ ، وهما خبران له . وقرأ ابن محيصن وعيسى وحמיד وابن كثير فى رواية عنه بنصبهما على الحال أو على الذم . وقوله : ﴿تصلى ناراً حامية﴾ خبر آخر للمبتدأ ، أى تدخل ناراً متناهية فى الحر . يقال : حمى النهار ، وحمى التنور ، أى اشتد حرهما . قال الكسائي : يقال : اشتد حمى النهار وحموه بمعنى . قرأ الجمهور : « تصلى » بفتح التاء مبنياً للفاعل . وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر بضمها مبنياً للمفعول . وقرأ أبو رجاء بضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام . والضمير راجع إلى الوجوه على جميع هذه القراءات . والمراد أصحابها كما تقدم . وهكذا الضمير ﴿تسقى من عين آنية﴾ والمراد بالعين الآنية : المتناهية فى الحر . والآنى الذى قد انتهى حره ، من الإبناء بمعنى التأخر يقال : آناه يؤنيه إبناء ، أى أخره وحبه كما فى قوله : ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ [الرحمن : ٤٤] قال الواحدي : قال المفسرون : لو وقعت منها نقطة على جبال الدنيا ، لذابت .

ولما ذكر سبحانه شراهم ، عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ ،

هو نوع من الشوك يقال له : الشبرق فى لسان قريش إذا كان رطباً ، فإذا يبس ، فهو الضريع كذا قال مجاهد وقتادة ، وغيرهما من المفسرين . قيل : وهو سم قاتل . وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه . وقيل : هو شئ يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام ، لا من أقوات الناس ، فإذا رعت منه الإبل لم تشبع وهلكت هزالاً . قال الخليل : الضريع نبات أخضر منتن الريح ، يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالاول . ومنه قول أبى ذؤيب :

رمى الشبرق الريان حتى إذا ذوى وعاد ضريعاً بان عنه التحايص

وقال الهذلى ، يذكر إبلاً وسوء مرعاها :

وحبس فى هزم الضريع وكلها قرناء دامية اليدين جرود

وقال سعيد بن جبير : الضريع : الحجارة . وقيل : هو شجرة فى نار جهنم . وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويذلون ويتضرعون إلى الله بالخلاص منه ، فسمى بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله فى أن يعرض عنه لكرهته وخشونته . قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الذليل ، أى من شربه يلحقه ضراعة وذلة . وقال الحسن أيضاً : هو الزقوم . وقيل : هو واد فى جهنم . وقد تقدم فى سورة الحاقة : ﴿ فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين ﴾ [الحاقة : ٣٥ ، ٣٦] : والغسلين غير الضريع كما تقدم . وجمع بين الآيتين بأن النار دركات . فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين . ثم وصف سبحانه الضريع فقال : ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ أى لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع . قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية ، قال المشركون : إن إبلنا تسمن من الضريع ، فنزلت : ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ وكذبوا فى قولهم هذا ، فإن الإبل لا تأكل الضريع ولا تقربه . وقيل : اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

ثم شرع سبحانه فى بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار ، فقال : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أى ذات نعمة وبهجة . وهى وجوه المؤمنين : صارت وجوههم ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم ، وما أعد الله لهم من الخير الذى يفوق الوصف . ومثله قوله : ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ [المطففين : ٢٤] ثم قال : ﴿ لسعيا راضية ﴾ أى لعملها الذى عملته فى الدنيا راضية ؛ لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها . والمراد بالوجوه هنا : أصحابها ، كما تقدم . ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى عالية المكان ، مرتفعة على غيرها من الأمكنة ، أو عالية القدر ؛ لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلد الأعين . ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ لا تسمع ﴾ بفتح الفوقية ونصب ﴿ لاغية ﴾ أى لا تسمع أنت أيها المخاطب ، أو لا تسمع تلك الوجوه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتحتيّة مضمومة مبنياً للمفعول ورفع ﴿ لاغية ﴾ وقرأ نافع بالفوقية مضمومة مبنياً للمفعول ، ورفع ﴿ لاغية ﴾ ، وقرأ الفضل والجحدري

بفتح التحتية مبنيًا للفاعل ، ونصب ﴿لاغية﴾ . واللغو : الكلام الساقط . قال الفراء والأخفش : أى لا تسمع فيها كلمة لغو . قيل : المراد بذلك : الكذب ، والبهتان ، والكفر . قاله قتادة . وقال مجاهد : أى الشتم . وقال الفراء : لا تسمع فيها حالًا يحلف بكذب . وقال الكلبي : لا تسمع فى الجنة حالًا يمين برة ولا فاجرة . وقال الفراء أيضًا : لا تسمع فى كلام أهل الجنة كلمة تلغى ؛ لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم . وهذا أرجح الأقوال ؛ لأن النكرة فى سياق النفي من صيغ العموم . ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص . و﴿لاغية﴾ إما صفة موصوف محذوف ، أى كلمة لاغية أو نفسًا لاغية ، أو مصدرًا ، أى لا تسمع فيها لغوًا .

﴿ فيها عين جارية ﴾ قد تقدم فى سورة الإنسان أن فيها عيونًا . والعين هنا بمعنى العيون كما فى قوله : ﴿ علمت نفس ﴾ [التكويد : ١٨] ومعنى ﴿ جارية ﴾ أنها تجري مياهها وتتدفق بأنواع الأشربة المستلذة . قال الكلبي : لا أدري بماء أو غيره . ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أى عالية مرتفعة السلم ، أو عالية القدر . ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذى لا عروة له . ومعنى ﴿ موضوعة ﴾ : أنها موضوعة بين أيديهم يشربون منها . ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ النمارق : الوسائد . قال الواحدي : فى قول الجميع : واحدها نمرقة بضم النون . وزاد الفراء سماعًا عن العرب : نمرقة بكسرهما . قال الكلبي : وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض ، ومنه قول الشاعر :

وإننا لنجربى الكأس بين شروبنا وبين أبى قابوس فوق النمارق

وقال الآخر :

كهول وشبان حسان وجوههم على سرر مصفوفة ونمارق

قال فى الصحاح : النمرق والنمرقة وسادة صغيرة ، وكذلك النمرقة بالكسر لغة حكاها يعقوب . ﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ يعنى : البسط . واحدها زربى وزربية . قال أبو عبيدة والفراء : الزرابى : الطنافس التى لها خمل رقيق . واحدها زربية . والمبثوثة : المبسوطة ، قاله قتادة . وقال عكرمة : بعضها فوق بعض . قال الواحدي : ويجوز أن يكون المعنى : أنها مفرقة فى المجالس . وبه قال القتيبي . وقال الفراء : معنى ﴿ مبثوثة ﴾ : كثيرة . والظاهر أن معنى البث : التفرق مع كثرة . ومنه : ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ، والفاء للعطف على مقدر كما فى نظائره مما مر غير مرة . والجملة مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه . وكذا ما بعدها . و﴿ كيف ﴾ منصوبة بما بعدها ، والجملة فى محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل . والمعنى : أينكرون أمر البعث ، ويستبعدون وقوعه ؟! أفلا ينظرون إلى الإبل التى هى غالب مواشيهم ، وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات ﴿ كيف خلقت ﴾ على ما هى عليه من

الخلق البديع ، من عظم جثتها ، ومزيد قوتها ، وبديع أوصافها ؟ قال أبو عمرو بن العلاء : إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع ، تبرك فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم . قال الزجاج : نبههم على عظيم من خلقه ، قد ذلله للصغير يقوده ، وينبئهم ، وينهضه ، ويحمل عليه الثقل من الحمل وهو بارك ، فينهض بثقل حمله ، وليس ذلك فى شيء من الحوامل غيره . فأراهم عظيمًا من خلقه ليدل بذلك على توحيده . وسئل الحسن عن هذه الآية ، وقيل له : الفيل أعظم فى الأعجوبة؟ فقال : أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به . ثم هو خنزير لا يركب ظهره ، ولا يؤكل لحمه ، ولا يحلب دمه . والإبل من أعز مال العرب وأنفسه ، تأكل النوى ، والقت ، وتخرج اللبن . ويأخذ الصبي بزمامها ، فيذهب بها حيث شاء مع عظمها فى نفسها . وقال المبرد : الإبل هنا : هى القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف ما ذكره أهل التفسير واللغة . وروى عن الأصمعى أنه قال : من قرأ ﴿ خلقت ﴾ بالتخفيف ، عنى به البعير . ومن قرأ بالتشديد ، عنى به السحاب . ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ أى رفعت فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله الفهم ولا يدركه العقل . وقيل : رفعت فلا ينالها شيء . ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ على الأرض مرساة راسخة لا تميد ، ولا تميل ، ولا تزول . ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أى بسطت . والسطح : بسط الشيء . يقال : لظهر البيت إذا كان مستويًا : سطح . قرأ الجمهور : ﴿ سطحت ﴾ مبنياً للمفعول مخففاً . وقرأ الحسن بالتشديد . وقرأ على بن أبى طالب وابن السميع ، وأبو العالية : « خلقت » و « رفعت » و « نصبت » و « سطحت » على البناء للفاعل ، وضم التاء فيها كلها . ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ بالتذكير فقال : ﴿ فذكر ﴾ . والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى فعظمهم يا محمد وخوفهم . ثم علل الأمر بالتذكير فقال : ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ أى ليس عليك إلا ذلك . و « لست عليهم بمسيطر ﴾ المسيطر والمسيطر بالسين والصاد : المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله . كذا فى الصحاح ، أى لست عليهم بمسيطر حتى تكرهمهم على الإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . قرأ الجمهور : ﴿ بمسيطر ﴾ بالصاد . وقرأ هشام وقنبل فى رواية بالسين . وقرأ خلف بإشمام الصاد زائياً . وقرأ هارون الأعور بفتح الطاء اسم مفعول . ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ هذا استثناء منقطع ، أى لكن من تولى عن الوعظ والتذكير . ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب جهنم الدائم . وقيل : هو استثناء متصل من قوله : ﴿ فذكر ﴾ أى فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعه عن إيمانه ، وتولى فاستحق العذاب الأكبر . والأول أولى . وإنما قال : ﴿ الأكبر ﴾ لأنهم قد عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر . وقرأ ابن مسعود : « فإنه يعذبه الله » . وقرأ ابن عباس وقتادة : ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ على أنها « إلا » التى للتنبيه والاستفتاح . ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أى رجوعهم بعد الموت . يقال : آب يؤوب : إذا رجع ، ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وكل ذى غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

قرأ الجمهور : ﴿ إياهم ﴾ بالتخفيف . وقرأ جعفر وشيبة بالتشديد . قال أبو حاتم : لا يجوز التشديد ، ولو جاز لجاز مثله فى الصيام والقيام . وقيل : هما لغتان بمعنى . قال الواحدى : وأما « إياهم » بتشديد الياء ، فإنه شاذ ، لم يجزه أحد غير الزجاج . ﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ يعنى : جزاءهم بعد رجوعهم إلى الله بالبعث . و« ثم » للتراخى فى الرتبة لبعث منزلة الحساب فى الشدة عن منزلة الإياب .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الغاشية من أسماء القيامة . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال : الساعة . ﴿ وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة ﴾ قال : تعمل وتنصب فى النار ﴿ تسقى من عين آية ﴾ قال : هى التى قد طال أنيها . ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة ﴾ قال : يعنى : اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها . ﴿ تسقى من عين آية ﴾ قال : قد أنى غليانها . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ قال : حارة . ﴿ تسقى من عين آية ﴾ قال : انتهى حرها ، ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ يقول : من شجر من نار . وأخرج عبد ابن حميد عنه أيضاً : ﴿ إلا من ضريع ﴾ قال : الشبرق اليابس .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ لا تسمع فيها لأغية ﴾ يقول : لا تسمع أذى ولا باطل . وفى قوله : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ قال : بعضها فوق بعض . ﴿ ونمارق ﴾ قال : مجالس . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ ونمارق ﴾ قال : المرافق . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ قال : جبار . ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ قال : حسابه على الله . وأخرج أبو داود فى ناسخه عنه أيضاً : ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ ثم نسخ ذلك فقال : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [التوبة : ٥] وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً : ﴿ إن علينا إياهم ﴾ قال : مرجعهم .

تفسير سورة الفجر

هى ثلاثون آية . وقيل : تسع وعشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس ، والنحاس فى ناسخه ، وابن مردويه والبيهقى من طرق عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ والفجر ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله . وأخرج النسائى عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطول ، فصلى فى ناحية المسجد ، ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذ ، فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى فطول على ، فانصرفت فصليت فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى ، فقال رسول الله ﷺ : «أفتان أنت يا معاذ ؟ أين أنت من ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ ﴿ والفجر ﴾ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾» (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَاكْتَرَوْا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِرْصَادِ ١٤ .

أقسم سبحانه بهذه الأشياء ، كما أقسم بغيرها من مخلوقاته . واختلف فى الفجر الذى أقسم الله به هنا ، فقيل : هو الوقت المعروف . وسمى فجرًا لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم . وقال قتادة : إنه فجر أول يوم من شهر محرم ؛ لأن منه تتفجر السنة . وقال مجاهد : يريد يوم النحر . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله قرن الأيام به فقال : ﴿ وليالٍ عشر ﴾ أى لىالى عشر من ذى الحجة . وبه قال السدى والكلبى . وقيل : المعنى : وصلاة الفجر ، أو رب الفجر . والأول أولى ، وجواب هذا القسم وما بعده وهو قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ كذا قال ابن الأثير . وقيل : محذوف لدلالة السياق عليه ، أى ليجازين كل أحد بما عمل ، أو ليعذب . وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التى قبله ، أى ﴿ والفجر ... ﴾ إلخ لإيابهم علينا وحسابهم علينا . وهذا ضعيف جدًا . وأضعف منه قول من قال : إن الجواب قوله : ﴿ هل فى ذلك قسم لذي حجر ﴾ . وأن هل بمعنى قد ؛ لأن هذا لا يصح أن يكون مقسمًا عليه أبدًا . ﴿ وليالٍ عشر ﴾ هى عشر ذى الحجة فى قول جمهور

(١) النسائى فى التفسير (٦٩٣) .

المفسرين . وقال الضحاك : إنها الأواخر من رمضان . وقيل : العشر الأول من محرم إلى عاشرها يوم عاشوراء . قرأ الجمهور : ﴿ ليال ﴾ بالتثنية و ﴿ عشر ﴾ صفة لها . وقرأ ابن عباس : « وليالي عشر » بالإضافة . قيل : والمراد : ليالي أيام عشر . وكان حقه على هذا أن يقال : عشرة لأن المعدود مذكر . وأجيب عنه : بأنه إذا حذف المعدود ، جاز الوجهان .

﴿ والشفع والوتر ﴾ الشفع والوتر يعلمان كل الأشياء شفعها ووترها . وقيل : شفع الليالي ووترها . وقال قتادة : الشفع والوتر : شفع الصلاة ووترها ؛ منها شفع ومنها وتر . وقيل : الشفع يوم عرفة ، ويوم النحر ، والوتر : ليلة يوم النحر . وقال مجاهد وعطية العوفى : الشفع : الخلق ، والوتر : الله الواحد الصمد . وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقاتدة . وقال الربيع بن أنس وأبو العالية : هي صلاة المغرب فيها ركعتان ، والوتر الركعة . وقال الضحاك : الشفع عشر ذى الحجة ، والوتر : أيام منى الثلاثة . وبه قال عطاء . وقيل : هما آدم وحواء لأن آدم كان وترأ ، فشفع بحواء . وقيل : الشفع : درجات الجنة ، وهي ثمان ، والوتر : دركات النار ، وهي سبع . وبه قال الحسين بن الفضل . وقيل : الشفع : الصفا والمروة ، والوتر : الكعبة . وقال مقاتل : الشفع : الأيام والليالي ، والوتر : اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة . وقال سفيان بن عيينة : الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضاً لقوله : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... ﴾ الآية [المجادلة : ٧] ، وقال الحسن : المراد بالشفع والوتر : العدد كله ؛ لأن العدد لا يخلو عنهما . وقيل : الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر : مسجد بيت المقدس . وقيل : الشفع حجج القرآن ، والوتر الأفراد . وقيل : الشفع : الحيوان لأنه ذكر وأنثى ، والوتر : الجماد . وقيل : الشفع : ما سمي ، والوتر : ما لا يسمى .

ولا يخفأك ما فى غالب هذه الأقوال من السقوط البين والضعف الظاهر ، والانتكال فى التعيين على مجرد رأى الزائف ، والخطر الخطأ . والذى ينبغى التعويل عليه ويتعين المصير إليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر فى كلام العرب ، وهما معروفان واضحان . فالشفع عند العرب : الزوج ، والوتر : الفرد . فالمراد بالآية إما نفس العدد ، أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر . وإذا قام دليل على تعيين شئ من المعدودات فى تفسير هذه الآية ، فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره ، فذاك . وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية ، لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره . قرأ الجمهور : ﴿ والوتر ﴾ بفتح الواو . وقرأ حمزة ، والكسائى ، وخلف بكسرهما . وهى قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان . والفتح لغة قريش وأهل الحجاز . والكسر لغة تميم . قال الأصمعى : كل فرد وتر . وأهل الحجاز يفتحون فيقولون : وتر فى الفرد . وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء . فيحتمل أن تكون لغة ثالثة . ويحتمل أنه نقل كسرة الرءاء إلى التاء إجراء للتوصل

مجرى الوقف .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ يسر ﴾ بحذف الياء وصلأً ووقفًا اتباعاً لرسم المصحف . وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها فى الوقف ، وإثباتها فى الوصل . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها فى الوصل والموقف .

قال الخليل : تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآى . قال الزجاج : والحذف أحب إلى لأنها فاصلة ، والفواصل تحذف منها الياءات . قال الفراء : قد تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وأنشد بعضهم :

كفأك كفٌ ما تليقُ درهماً جوداً وأخرى تعط بالسيف دما

ما تليق : أى ما تمسك . قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة فى إسقاط الياء من ﴿ يسر ﴾ ، فقال : لا أجيبك حتى تبين على باب دارى سنة . فبت على باب داره سنة ، فقال : الليل لا يسرى . وإنما يسرى فيه ، فهو مصروف عن جهته ، وكل ما صرفته عن جهته ، بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وما كانت أملك بغيا ﴾ [مريم : ٢٨] ولم يقل : بغية ؛ لأنه صرفها من باغية . وفى كلام الأخفش هذا نظر . فإن صرف الشيء عن معناه لسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه . ولو صح ذلك للزم فى كل المجازات العقلية واللفظية ؛ واللازم باطل ، فالملزوم مثله . والأصل ههنا إثبات الياء ؛ لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ، ولم تحذف لعللة من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآى ، إجراء للفواصل مجرى القوافى . ومعنى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ : إذا يَمْضى ، كقوله : ﴿ والليل إذا أدير ﴾ [المدثر : ٣٣] ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ [التكوثر : ١٧] وقيل : معنى ﴿ يسر ﴾ : يسار فيه . كما يقال : ليل نائم ، ونهار صائم ، كما فى قول الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم

وبهذا قال الأخفش والقتيبى وغيرهما من أهل المعانى . وبالأول قال جمهور المفسرين . وقال قتادة وأبو العالية : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أى : جاء وأقبل . وقال النخعى : أى استوى . قال عكرمة وقاتدة والكلبي ومحمد بن كعب : هى ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه . وقيل : ليلة القدر لسراية الرحمة فيها . والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالى دون الأخرى . ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ ؟ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى تلك الأمور ، والتذكير بتأويل المذكور ، أى هل فى ذلك المذكور من الأمور التى أقسمنا بها قسم ، أى مقسم به حقيق بأن تؤكد به الأخبار . ﴿ لذى حجر ﴾ أى عقل ولب . فمن كان ذا

عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به . ومثل هذا قوله : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة : ٧٦] . قال الحسن : ﴿ لذى حجر ﴾ أى لذى حلم . وقال أبو مالك : لذى ستر من الناس . وقال الجمهور : الحجر : العقل . قال الفراء : الكل يرجع إلى معنى واحد لذى عقل ، ولذى حلم ، ولذى ستر . والكل بمعنى العقل . وأصل الحجر : المنع . يقال لمن ملك نفسه ومنعها : إنه لذو حجر . ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته . ومنه : حجر الحاكم على فلان ، أى منعه . قال : والعرب تقول : « إنه لذو حجر » إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها .

ثم ذكر سبحانه على طريقة الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسل ، تحذيراً للكفار فى عصر نبينا ﷺ . وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد ﴾ قرأ الجمهور بتونين ﴿ عاد ﴾ على أن يكون ﴿ إرم ﴾ عطف بيان لعاد . والمراد بعاد : اسم أبيهم . وإرم اسم القبيلة أو بدلاً منه . وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث . وقيل : المراد بعاد : أولاد عاد ، وهم عاد الأولى . ويقال لمن بعدهم : عاد الأخرى . فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البديل للدلالة على أنهم عاد الأولى ، لا عاد الأخرى . ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين ، أى أهل إرم ، أو سبط إرم . فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح . وقرأ الحسن وأبو العالية بإضافة عاد إلى إرم . وقرأ الجمهور ﴿ إرم ﴾ بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ، وقرأ الحسن ومجاهد وقاتدة والضحاك : « إرم » بفتح الهمزة والراء . وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً . وقرأ بإضافة « إرم » إلى « ذات العماد » . قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة ، شبههم بالإرم التى هى الأعلام . واحدها إرم . وفى الكلام تقديم وتأخير ، أى والفجر ، وكذا وكذا ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ . ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد . وهذه الرؤيا رؤية القلب . والخطاب للنبي ﷺ ، أو لكل من يصلح له . وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ؛ لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون . وقال مجاهد أيضاً : إرم أمة من الأمم . وقال قتادة : هى قبيلة من عاد . وقيل : هما عادان . فالأولى هى إرم . ومنه قول قيس بن الرقيات :

مجدداً تليداً بناء أولهم أدرك عادا وقبلة إرم

قال معمر : إرم إليه مجتمع عاد وثمود . وكان يقال : عاد إرم وعاد ثمود . وكانت القبيلتان تنسب إلى إرم . قال أبو عبيدة : هما عادان . فالأولى إرم . ومعنى ﴿ ذات العماد ﴾ : ذات القوة والشدة ، مأخوذة من قوة الأعمدة ، كما قال الضحاك . وقال قتادة ومجاهد : إنهم كانوا أهل عمد سياراة فى الربيع . فإذا هاج النبت ، رجعوا إلى منازلهم . وقال مقاتل : ذات

العماد : يعنى طولهم . كان طول الرجل منهم اثنا عشر ذراعاً . ويقال : رجل طويل العماد ، أى القامة .

قال أبو عبيدة : ذات العماد : ذات الطول . يقال : رجل معمد : إذا كان طويلاً . وقال مجاهد وقتادة أيضاً : كان عماداً لقومهم . يقال : فلان عميد القوم وعمودهم ، أى سيدهم . وقال ابن زيد : ذات العماد : يعنى إحكام البنيان بالعمد . قال فى الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة ، تذكر وتؤنث ، قال عمرو بن كلثوم :

ونحنُ إذا عمادُ الحى خَرَّتْ
على الأحفاض نمنعُ من يَلِينا

وقال عكرمة وسعيد المقبرى : هى دمشق . ورواه ابن وهب ، وأشهد عن مالك . وقال محمد بن كعب : هى الإسكندرية . ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ هذه صفة لعاد ، أى لم يخلق مثل تلك القبيلة فى الطول والشدة والقوة ، وهم الذين قالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ [فصلت : ١٥] أو صفة للقريّة على قول من قال : إن إرم اسم لقريتهم ، أو للأرض التى كانوا فيها ، والأول أولى ، ويدل عليه قراءة أبى : ﴿ التى لم يخلق مثلهم فى البلاد ﴾ . وقيل : الإرم : الهلاك . قال الضحاك : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ أى أهلكتهم فجعلهم رميماً . وبه قال شهر ابن حوشب . وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة ، قصورها ، ودورها ، وبساتينها ، وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ، ولا فيها ساكن من بنى آدم ، وإنها لا تزال تنتقل من موضع إلى موضع ، فتارة تكون باليمن ، وتارة تكون بالشام ، وتارة تكون بالعراق ، وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحت لا يتفق على من له أدنى تميز . وزاد الثعلبى فى تفسيره فقال : إن عبد الله بن قلابة فى زمان معاوية دخل هذه المدينة . وهذا كذب على كذب ، وافترأ على افتراء . وقد أصيب الإسلام وأهله بدهاية دهياء ، وفارقة عظمية ، ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذى يجترئون على الكذب ، تارة على بنى إسرائيل ، وتارة على الأنبياء ، وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين . وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعفها من موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز ، فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاويص المنحولة ، والأساطير المفتعلة فى تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا . ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر فى كتابى الذى سميته «الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة» .

ثم عطف سبحانه القبيلة الآخرة ، وهى ثمود على قبيلة عاد فقال : ﴿ وثمود الذين جابوا

الصخر بالواد ﴿ وهم قوم صالح ، سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . ومعنى ﴿ جابوا الصخر ﴾ : قطعوه . والجواب القطع . ومنه جاب البلاد : إذا قطعها . ومنه سمى جيب القميص لأنه جيب ، أى قطع . قال المفسرون : أول من نحت الجبال والصخور ثمود ، فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة . ومنه قوله سبحانه : ﴿ وتحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (١) [الشعراء : ١٤٩] ، وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ، ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها . وقوله : ﴿ بالواد ﴾ متعلق بـ ﴿ جابوا ﴾ ، أو محذوف على أنه حال من الصخر ، وهو وادى القرى . قرأ الجمهور : ﴿ ثمود ﴾ بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ، ففيه التأنيث والتعريف . وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأيها . وقرأ الجمهور أيضاً بالواد بحذف الياء وصلأً ووفقاً اتباعاً لرسم المصحف . وقرأ ابن كثير بإثباتها فيهما . وقرأ قبل في رواية بإثباتها في الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى ذو الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدون بها الأوتاد . أو جعل الجنود أنفسهم أوتاداً لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام . وقيل : كان له أوتاد يعذب الناس بها ، ويشدهم إليها . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ص . ﴿ الذين طغوا فى البلاد ﴾ الموصول صفة لعاد وثمرود وفرعون ، أى طغت كل طائفة منهم فى بلادهم وتمردت وعتت . والطغيان : مجاوزة الحد . ﴿ فأكثروا فيها الفساد ﴾ بالكفر ومعاصى الله والجور على عباده . ويجوز أن يكون الموصول فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين طغوا ، أو فى محل نصب على الذم . ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أى أفرغ عليهم وألقى على تلك الطوائف سوط عذاب ، وهو ما عذبهم به . قال الزجاج : جعل سوطه الذى ضربهم به العذاب . يقال : صب على فلان خلعة ، أى ألغاها عليه . ومنه قول النابغة :

فصب الله عليه أحسن صبغة وكان له بين السبرية ناصر (٢)

ومنه قول الآخر :

ألم تر أن الله أظهر دينه وصب على الكفار سوط عذاب

ومعنى ﴿ سوط عذاب ﴾ : نصيب عذاب . وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم فى الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعدّه لهم فى الآخرة كالسوط ، إذا قيس إلى سائر ما يعذب به . وقيل : ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم ، وكان السوط عندهم هو نهاية

(١) فى المخطوطة : « آمين » وهو خطأ .

(٢) هكذا فى الأصل ، وصحتها : « ناصر » ، والبيت من قصيدة للنابغة مطلعها :

كتمت ليلاً بالجمومين ساهراً وهمين .. هما مستكنا وظاهرا

ما يعذب به . قال الفراء : هى كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذى يعذبون به ، فجرى لكل عذاب إذا كان فيه عندهم غاية العذاب . وقيل : معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم : ساطه يسوطه سوطاً ، أى خلطه . فالسوط خلط الشيء ببعضه ببعض . ومنه قول كعب بن زهير :

لكنها خلة قد سيط من دمها
فجع وولع وإخلاف وتبديل
وقال الآخر :

أحارث إنا لو تساط دماؤنا
تزايلن حتى لا يمس دم دما
وقال آخر :

فسطها ذميم الرأى غير موفق
فلست على تسويتها بمعان

﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قد قدمنا قول من قال : إن هذا جواب القسم . والأولى أن الجواب محذوف ، وهذه الجملة تعليل لما قبلها . وفيها إرشاد إلى أن كفار قومه ﷺ سيصيهم ما أصاب أولئك الكفار . ومعنى ﴿ بالمرصاد ﴾ : أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً وبالشر شراً . قال الحسن وعكرمة : أى عليه طريق العباد لا يفوته أحد . والرصد والمرصاد : الطريق . وقد تقدم بيانه فى سورة براءة ، وتقدم أيضاً عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ [النبأ : ٢١] .

وقد أخرج الفريابي وابن جرير وابن أبى حاتم والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : فجر النهار . وأخرج سعيد بن منصور ، والبيهقى فى الشعب ، وابن عساكر عنه أيضاً فى قوله : ﴿ والفجر ﴾ قال : هو المحرم فجر السنة . وقد ورد فى فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على أنه المراد بالآية ، لا مطابقة ولا تضامناً ولا التزاماً . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن جابر : أن النبى ﷺ قال : ﴿ والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر ﴾ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » . وفى لفظ : « هى ليالى من ذى الحجة » (١) . وأخرج عبد بن حميد عن طلحة بن عبد الله : أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، فدعاهم ابن عمر إلى العشاء يوم عرفة ، فقال أبو سلمة : أليس هذه الليالى العشر التى ذكرها الله فى القرآن ؟ فقال ابن عمر : وما يدريك ؟ قال : ما أشك . قال : بلى فاشكك . وقد ورد فى فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدل على أنها المرادة بما فى القرآن هنا بوجه من

(١) أحمد ٣ / ٣٢٧ والنسائى فى التفسير (٦٩١ ، ٦٩٢) وابن جرير ١٠٨ / ٣٠٠ وصححه الحاكم ٤ / ٢٢٠ على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٣٤٦٨) ورجاله موثقون .

الوجوه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿وليل عشر﴾ قال : هى العشر الأواخر من رمضان . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وصححه ، وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن النبى ﷺ سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هى الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » (١) . وفى إسناده رجل مجهول . وهو الراوى له عن عمران بن حصين . وقد روى عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين بإسقاط الرجل المجهول . وقال الترمذى بعد إخرجه بالإسناد الذى فيه الرجل المجهول : هو حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة . قال ابن كثير : وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه . والله أعلم . قال : ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر . وقد روى هذا الحديث موقوفاً على عمران بن حصين عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . فهذا يقوى ما قاله ابن كثير .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس فى قوله : ﴿والشفع والوتر﴾ فقال : كل شىء شفع ، فهو اثنان . والوتر واحد . وأخرج الطبرانى وابن مردويه - قال السيوطى : بسند ضعيف - عن أبى أيوب عن النبى ﷺ ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : « يومان وليلة ، يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » . وأخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « الشفع : اليومان ، والوتر : اليوم الثالث » (٢) . وأخرج عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الزبير ؛ أنه سئل عن الشفع والوتر فقال : الشفع : قول الله : ﴿فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه﴾ [البقرة : ٢٠٣] والوتر : اليوم الثالث . وفى لفظ : الوتر أوسط أيام التشريق . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس قال : الشفع : يوم النحر ، والوتر : يوم عرفة . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿والليل إذا يسر﴾ ، قال : إذا ذهب . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أنه قرأ : ﴿والفجر﴾ إلى قوله : ﴿إذا يسر﴾ ، قال : هذا قسم على ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقى فى الشعب من طرق عن ابن عباس فى قوله : ﴿قسم لذى حجر﴾ قال : لذى حصى وعقل ونهى . وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿بعاد . إرم﴾ ، يعنى بالإرم : الهالك . ألا ترى أنك تقول : أرم بنو فلان . ﴿ذات العماد﴾ يعنى : طولهم مثل العماد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن المقدم بن معدى كرب عن النبى ﷺ ؛ أنه ذكر ﴿إرم

(١) أحمد ٤٣٨/٤ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن غريب » وابن جرير ١٠٩/٣٠ .

(٢) ابن جرير ١٠٨/٣٠ .

ذات العماد ﴿ فقال : « كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة فيحملها على كاهله ، فيلقها على أى حى أراد فيهلكهم » . وفى إسناده رجل مجهول ؛ لأن معاوية بن صالح رواه عن حدثه عن المقدم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ جابوا الصخر بالواد ﴾ قال : خرقوها . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً . ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ قال : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ ذى الأوتاد ﴾ قال : وتد فرعون لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رضى عظيمة حتى ماتت . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال : يسمع ويرى . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ قال : من وراء الصراط جسر ، جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرحم ، وجسر عليه الرب عز وجل .

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَّا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .

لما ذكر سبحانه أنه بالمرصاد ، ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وأن مطعم أنظارهم ، ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى امتحنه واختبره بالنعم ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ أى أكرمه بالمال ، ووسع عليه رزقه ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ فرحاً بما نال ، وسروراً بما أعطى غير شاكر لله على ذلك ، ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف لما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرانها . و « ما » فى قوله : ﴿ إِذَا مَا ﴾ زائدة . وقوله : ﴿ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴾ تفسير للابتلاء . ومعنى ﴿ أكرمن ﴾ أى فضلنى بما أعطانى من المال ، وأسبغنى على من النعم لمزيد استحقاقى لذلك ، وكونى موضعاً له ، والإنسان مبتدأ ، وخبره : ﴿ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ . ودخلت الناء فيه لتضمن إما معنى الشرط . والظرف المتوسط بين المبتدأ والخبر ، وإن تقدم

لفظاً ، فهو مؤخر فى المعنى . أى فأما الإنسان فيقول : ربى أكرمنى وقت ، ابتلائه بالإنعام . قال الكلبي : الإنسان هو الكافر أبى بن خلف . وقال مقاتل : نزلت فى أمية بن خلف . وقيل : نزلت فى عتبة بن ربيعة وأبى حذيفة بن المغيرة .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أى اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ فقد رزقه ﴾ أى ضيقه ولم يوسع له ، ولا بسط له فيه . ﴿ فيقول ربى أهاننى ﴾ أى أولانى هواناً . وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث ، لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا ، والتوسع فى متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زيتها . فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ، ويوفقه لعمل الآخرة ، ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير ، وما أصيب به من الشر فى الدنيا ليس إلا للاختبار والامتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء . قرأ نافع بإثبات الياء فى ﴿ أكرمنى ﴾ و ﴿ أهاننى ﴾ وصلاً ، وحذفهما وفقاً . وقرأ ابن كثير فى رواية البزى عنه ، وابن محيصن ، ويعقوب بإثباتهما وصلاً ووفقاً . وقرأ الباقر بحذفهما فى الوصل والوقف اتباعاً لرسم المصحف ، ولموافقة رؤوس الآى . والأصل إثباتها ، لأنها اسم . ومن الحذف قول الشاعر :

ومن كاشح ظاهر غمره إذا ما انتصبت له أنكرن

أى : أنكرنى . وقرأ الجمهور : ﴿ فقد رزق ﴾ بالتخفيف . وقرأ ابن عامر بالتشديد ، وهما لغتان . وقرأ الحرميان ، وأبو عمرو : « ربى » بفتح الياء فى الموضعين ، وأسكنها الباقر . وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان القاتل فى الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويسط النعم للإنسان ، لا لكرامته ، ويضيقه عليه ، لا لإهائته ، بل للاختبار والامتحان كما تقدم . قال الفراء : كلا فى هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ ، والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحية على الخبر . وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور ﴿ تحاضون ﴾ ، و ﴿ تأكلون ﴾ و ﴿ تحبون ﴾ بالفوقية على الخطاب فيها . وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحية فيها . والجمع فى هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس ، أى بل لكم أفعال هى أقبح مما ذكر ، وهى أنكم تتركون إكرام اليتيم ، فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم . قال مقاتل : نزلت فى قدامة بن مظعون ، وكان يتيماً فى حجر أمية بن

خلف . ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ قرأ الجمهور « تحضون » من حضه على كذا ، أى أغراه به ، ومفعوله محذوف ، أى لا تحضون أنفسكم . أولاً يحض بعضكم بعضاً على ذلك ، ولا يأمر به ، ولا يرشد إليه . وقرأ الكوفيون ﴿ تحاضون ﴾ بفتح التاء والحاء بعدها ألف ، وأصله تتحاضون ، فحذف إحدى التائين . أى لا يحض بعضكم بعضاً . وقرأ الكسائي فى رواية عنه ، والسلمى : « تحاضون » بضم التاء من الحض ، وهو الحث . وقوله : ﴿ على طعام المسكين ﴾ متعلق بـ ﴿ تحاضون ﴾ . وهو إما اسم مصدر ، أى على إطعام المسكين ، أو اسم للمطعم ، ويكون على حذف مضاف ، أى على بذل طعام المسكين ، أو على إعطاء طعام المسكين ، ﴿ وتأكلون التراث ﴾ أصله التراث ، فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما فى تجاه ووجه . والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم . وكذلك أموال النساء . وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، ويأكلون أموالهم أكلاً لما ، أى أكلاً شديداً . وقيل : معنى ﴿ لما ﴾ جمعاً من قولهم : لممت الطعام : إذا أكلته جميعاً . قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليتيم . وكذا قال أبو عبيدة . وأصل اللم فى كلام العرب : الجمع . يقال لممت الشيء ألمه لما جمعته . ومنه قولهم : لم الله شعثه ، أى جمع ما تفرق من أموره . ومنه قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

قال الليث : اللم : الجمع الشديد . ومنه حجر ملموم ، وكتيبة ملمومة . وللأكل يللم الثريد ، فيجمعه ثم يأكله . وقال مجاهد : يسفه سقاً . وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ، ألم بمال غيره فأكله ، ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب . ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أى حباً كثيراً . والجم : الكثير ، يقال : جم الماء فى الحوض إذا كثر واجتمع . والجمة : المكان الذى يجتمع فيه الماء .

ثم كرر سبحانه الردع لهم ، والزجر فقال : ﴿ كلا ﴾ أى ما هكذا ينبغى أن يكون عملكم . ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿ إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ ، وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر . والدك : الكسر والدق . والمعنى هنا : إنها زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك . قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت . قال الزجاج : أى تزلزلت ، فدك بعضها بعضاً . قال المبرد : أى بسطت وذهب ارتفاعها . قال : والدك : حط المرتفع بالبسط . وقد تقدم الكلام على الدك فى سورة الأعراف ، وفى سورة الحاقة ، والمعنى : أنها دكت مرة بعد أخرى . وانتصاب ﴿ دكا ﴾ الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل . و﴿ دكا ﴾ الثانى تأكيد للأول . كذا قال ابن عصفور ، ويجوز أن يكون النصب على الحال ، أى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة كما يقال : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته الخط حرفاً حرفاً . والمعنى : أنه كرر الدك عليها حتى صارت هباء منبثاً .

﴿ وجاء ربك ﴾ أى جاء أمره وقضاؤه ، وظهرت آياته . وقيل : المعنى : أنها زالت الشبهة فى ذلك اليوم ، وظهرت المعارف ، وصارت ضرورية ، كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذى كان يشك فيه . وقيل : جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك . ﴿ والمملك صفا صفا ﴾ انتصاب ﴿ صفاً صفا ﴾ على الحال ، أى مصطفين ، أو ذوى صفوف . قال عطاء : يريد صفوف الملائكة . وأهل كل سماء صف على حدة . قال الضحاك : أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيه ، فيكونون سبعة صفوف . ﴿ وجيء يومئذ بجهنم ﴾ ﴿ يومئذ ﴾ منصوب بـ ﴿ جيء ﴾ والقائم مقام الفاعل ﴿ بجهنم ﴾ . وجوز مكى أن يكون ﴿ يومئذ ﴾ هو القائم مقام الفاعل ، وليس بذاك . قال الواحدي : قال جماعة من المفسرين : جيء بها يوم القيامة مزومة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه ، يقول : يارب ، نفسى نفسى . وسيأتى هذا الذى نقله عن جماعة المفسرين مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ إن شاء الله .

﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ : ﴿ يومئذ ﴾ هذا بدل من ﴿ يومئذ ﴾ الذى قبله ، أى : يوم جىء بجهنم يتذكر الإنسان ، أى : يتعظ . ويذكر ما فرط منه ، ويندم على ما قدمه فى الدنيا من الكفر والمعاصى . وقيل : إن قوله يومئذ الثانى بدل من قوله : ﴿ إذا دكت ﴾ ، والعامل فيهما هو قوله : ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ . ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أى ومن أين له التذكر والاتعاظ . وقيل : هو على حذف مضاف أى ومن أين له منفعة الذكرى . قال الزجاج : يظهر التوبة ، ومن أين له التوبة . ﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ماذا يقول الإنسان ؟ ويجوز أن تكون بدل اشتمال من قوله : ﴿ يتذكر ﴾ . والمعنى : يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح . واللام فى ﴿ لحياتى ﴾ بمعنى : لأجل حياتى . والمراد : حياة الآخرة ، فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة . وقيل : إن اللام بمعنى « فى » . والمراد حياة الدنيا ، أى ياليتنى قدمت الأعمال الصالحة فى وقت حياتى فى الدنيا ، أنتفع بها هذا اليوم . والأول أولى . قال الحسن : علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ أى يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال لا يعذب كعذاب الله أحد ، ﴿ ولا يوثق ﴾ كـ ﴿ وثاقه أحد ﴾ أو لا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواء ، إذ الأمر كله له . والضميران على التقديرين فى عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور ﴿ يعذب ﴾ و ﴿ يوثق ﴾ مبنيين للفاعل . وقرأ الكسائى على البناء للمفعول فيهما ، فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أى لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ، ولا يوثق كوثاقه أحد . والمراد بالإنسان الكافر ، أى لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر . وقيل : إبليس . وقيل : المراد به أبى بن خلف . قال الفراء : المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر

المعين أحد ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه في الكفر والعناد . وقيل : المعنى : أنه لا يعذب مكانه أحد ، ولا يوثق مكانه أحد ، فلا تؤخذ منه فدية . وهو كقوله : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام : ١٦٤] ، والعذاب بمعنى التعذيب ، والوثاق بمعنى التوثيق . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الكسائي . قال : وتكون الهاء في الموضعين ضمير الكافر ، لأنه معروف أنه لا يعذب أحد كعذاب الله . قال أبو على الفارسي : يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة ، أي لا يعذب أحد أحدًا مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ، ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ المطمئنة هي : الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله ، الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعتربها ريب . قال الحسن هي المؤمنة الموقنة . وقال مجاهد : الراضية بقضاء الله ، التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقال مقاتل : هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان : المطمئنة بذكر الله . وقيل : المخلصة . قال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث . ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ أي ارجعي إلى الله ﴿ راضية ﴾ بالثواب الذي أعطاك . ﴿ مرضية ﴾ عنده . وقيل : ارجعي إلى مواعده ، وقيل : إلى أمره . وقال عكرمة وعطاء : معنى ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ : إلى جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير . ويدل على هذا قراءة ابن عباس : « فادخلي في عبادي » بالأفراد . والأول أولى . ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في زمرة عبادي الصالحين ، وكوني من جملتهم ، وانتظمي في سلوكهم . ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم . قيل : إنه يقال لها : ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا . ويقال لها : ادخلي في عبادي وادخلي جنتي يوم القيامة . والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم ، ولا ينافي ذلك نزولها في نفس معينة . فالاعتبار بعموم اللفظ ، لا بخصوص السبب .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ أكلاً لما ﴾ قال : سفا . وفي قوله : ﴿ حبا جما ﴾ قال : شديداً . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ أكلاً لما ﴾ قال : شديداً . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أيضاً في قوله : ﴿ إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ ، قال : تحريكها . وأخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » (١) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ يقول : وكيف له . وأخرج ابن أبي حاتم في

(١) مسلم في الجنة (٢٨٤٢ / ٢٩) والترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٣) وابن جرير ١٢٠ / ٣٠ .

قوله : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ...﴾ الآية قال : لا يعذب بعذاب الله أحد ، ولا يوثق بوثاقه الله أحد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عنه أيضاً فى قوله : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ قال : المؤمنة ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يقول : إلى جسدك . قال : نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا ، فقال : «أما أنه سيقال لك هذا» (١) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية عن سعيد بن جبيرة نحوه مرسلأ . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول نحوه عن أبى بكر الصديق .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ قال : هو النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال : النفس المطمئنة : المصدقة . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً فى الآية قال : ترد الأرواح يوم القيامة فى الأجساد . وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً فى قوله : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ قال : بما أعطيت من الثواب ﴿راضية﴾ عنها بعملها . ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ المؤمنين . وأخرج ابن أبي حاتم والطبرانى عن سعيد بن جبيرة قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجاً منه . فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندرى من تلاها : ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ . أرجع إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى . وادخلى جنتى . وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن عكرمة مثله .

تفسير سورة البلد

ويقال : سورة ﴿ لا أقسم ﴾ . هي عشرون آية وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه ، عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٌ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُ رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (١٧) وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٨) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٢٠) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ (٢١) ﴾

قوله : ﴿ لا أقسم ﴾ « لا » زائدة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد . وقد تقدم الكلام على هذا فى تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ [القيامة : ١] ، ومن زيادة « لا » فى الكلام فى غير القسم قول الشاعر :

تذكرت ليلى فاعترتنى صباة وكاد صميم القلب لا يتصدع

أى يتصدع . ومن ذلك قوله : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] أى أن تسجد . قال الواحدى : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام ، وهو مكة . قرأ الجمهور : ﴿ لا أقسم ﴾ ، وقرأ الحسن والأعمش : « لأقسم » من غير ألف . وقيل : هو نفى للقسم . والمعنى : لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه . وقال مجاهد : إن « لا » رد على من أنكر البعث ، ثم ابتداء فقال : أقسم . والمعنى : ليس الأمر كما تحسبون . والأول أولى . والمعنى : أقسم بالبلد الحرام الذى أنت حل فيه . وقال الواسطى : إن المراد بالبلد : المدينة . وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضا مدفوع لكون السورة مكية لا مدنية . وجملة قوله : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ معترضة . والمعنى : أقسم بهذا البلد ﴿ ووالد وما ولد . لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ واعترض بينهما بهذه الجملة . والمعنى : ومن المكابد أن مثلك على عظيم حرمة يستحل بهذا البلد ، كما يستحل الصيد فى غير الحرم .

وقال الواحدى : الحل والحلال والمحل واحد . وهو ضد المحرم . أحل الله لنبىه ﷺ مكة

يوم الفتح حتى قاتل . وقد قال ﷺ : « لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار » (١) . قال : والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة ، دل ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً ، وعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ، ويفتحها على يده ، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً . انتهى . فالمعنى : وأنت حل بهذا البلد فى المستقبل ، كما فى قوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : ٣٠] . قال مجاهد : المعنى : ما صنعت فيه من شيء فأنت حل . قال قتادة : أنت حل به لست بأنم ، يعنى : أنك غير مرتكب فى هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه ، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصى . وقيل : المعنى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حال به ، ومقيم فيه وهو محلك . فعلى القول بأن « لا » نافية غير زائدة يكون المعنى : لا أقسم به وأنت حال به . فأنت أحق بالإقسام بك . وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى : أقسم بهذا البلد الذى أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك ، لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم . ولكن هذا إذا تقرر فى لغة العرب أن لفظ « حل » يجرى بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون فى محل نصب على الحال .

﴿ ووالد وما ولد ﴾ عطف على البلد . قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ﴿ ووالد ﴾ أى آدم ﴿ وما ولد ﴾ أى وما تناسل من ولده ، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض ، لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، وفيهم الأنبياء والعلماء والصالحون . وقال أبو عمران الجوني : الوالد : إبراهيم . وما ولد : ذريته . قال الفراء : إن « ما » عبارة عن الناس ، كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ [النساء : ٣] . وقيل : الوالد : إبراهيم ، والولد : إسماعيل ومحمد ﷺ . وقال عكرمة وسعيد بن جبير : ﴿ ووالد ﴾ يعنى : الذى يولد له ﴿ وما ولد ﴾ يعنى : العاقر الذى لا يولد له . وكأنهما جعلاً « ما » نافية . وهو بعيد . ولا يصح ذلك إلا بإضمار موصول ، أى ووالد الذى ما ولد . ولا يجوز إضمار الموصول عند البصريين . وقال عطية العوفى : هو عام فى كل والد ومولود من جميع الحيوانات . واختار هذا ابن جرير . ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ هذا جواب القسم . والإنسان هو هذا النوع الإنسانى . والكبد : الشدة والمشقة . يقال : كابدت الأمر : قاسيت شدته . والإنسان لا يزال فى مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدها حتى يموت . وأصل الكبد : الشدة . ومنه تكبد اللبن : إذا غلظ واشتد . يقال : كبد الرجل : إذا وجعت كبده . ثم استعمل فى كل شدة ومشقة ، ومنه قول أبى الأصيص :

لى ابن عم لو أن الناس فى كبد لظل محتجراً بالنبل يرمينى

قال الحسن : يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة ، وقال أيضاً : يكابد الشكر على السراء ، ويكابد الصبر على الضراء . لا يخلو عن أحدهما . قال الكلبي : نزلت هذه الآية فى رجل من بنى جمح ، يقال له : أبو الأشدين . وكان يأخذ الأديم العكاظى ، ويجعله تحت رجله

(١) البخارى فى المغازى (٤٣١٣) عن مجاهد .

ويقول : من أزالنى عنه فله كذا . فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماءه ، وكان من أعداء النبى ﷺ . وفيه نزل : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ يعنى : لقوته . ويكون معنى ﴿ فى كبد ﴾ على هذا فى شدة خلق . وقيل : معنى ﴿ فى كبد ﴾ : أنه جرى القلب ، غليظ الكبد . ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ أى يظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد ، أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أى كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض . قال الليث : مال لبـد : لا يخاف فناؤه من كثرتة . قال الكلبي ومقاتل : يقول : أهلكت فى عداوة محمد مالا كثيراً . وقال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عامر ابن نوفل ، أذنب فاستفتى النبى ﷺ فأمره أن يكفر فقال : لقد ذهب مالى فى الكفارات والتفقات منذ دخلت فى دين محمد . قرأ الجمهور : ﴿ لبدا ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففا . وقرأ مجاهد وحميد بضم اللام والباء مخففا . وقرأ أبو جعفر بضم اللام وفتح الباء مشددا . قال أبو عبيدة : لبـد فعل من التلبيد ، وهو المال الكثير بعضه على بعض . قال الزجاج : فعل للكثرة . يقال : رجل حطم : إذا كان كثير الخطم . قال الفراء : واحده لبـدة ، والجمع لبـد . وقد تقدم بيان هذا فى سورة الجن . ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أى أظن أنه لم يعاينه أحد . قال قتادة : أظن أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه ، وأين أنفقه ؟ وقال الكلبي : كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال الله : أظن أن الله لم ير ذلك منه ، فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم ليعتبروا فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ يبصر بهما ﴿ وَلِسَانًا ﴾ ينطق به ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستر بهما ثغره . قال الزجاج : المعنى : أَلَمْ نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام ، وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفهة . ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ النجد : الطريق فى ارتفاع . قال المفسرون : بينا له طريق الخير ، وطريق الشر . قال الزجاج : المعنى : أَلَمْ نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبينتين كتبين الطريقين العاليتين . وقال عكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان : الثديان لأنهما كالطريقين لحياة الولد ورزقه . والأول أولى . وأصل النجد : المكان المرتفع ، وجمعه نجود . ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة . فالنجدان : الطريقان العاليان . ومنه قول امرئ القيس :

فريقان منهم قاطع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ الاقتحام : الرمى بالنفس فى شىء من غير روية ، يقال منه : قحم فى الأرض قحوما ، أى رمى بنفسه فيه من غير روية . وتقحيم النفس فى الشىء : إدخالها فيه من غير روية . والقحمة بالضم : المهلكة . والعقبة فى الأصل الطريق التى فى الجبل ، سميت

بذلك لصعوبة سلوكها . وهو مثل ضربه سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان فى أعمال البر ، فجعله كالذى يتكلف صعود العقبة . قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا « لا » مرة واحدة . والعرب لا تكاد تفرد « لا » مع الفعل الماضى فى مثل هذا الموضع حتى يعيدها فى كلام آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ [القيامة : ٣١] وإنما أفردا هنا لدلالة آخر الكلام على معناه ، فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قائماً مقام التكرير كأنه قال : فلا اقتحم العقبة ، ولا آمن . قال المبرد وأبو على الفارسى : إن « لا » هنا بمعنى لم ، أى فلم يقتحم العقبة . وروى نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، ومنه قول زهير :

وكان طوى كشحاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

أى فلم يبدها ولم يتقدم . وقيل : هوجارى مجرى الدعاء كقولهم : لا نجاء . قال أبو زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذى بمعنى الإنكار . تقديره : أفلا اقتحم العقبة ، أو هلا اقتحم العقبة . ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أى أى شئ أعلمك ما اقتحامها . ﴿ فك رقة ﴾ أى هى إعتاق رقة وتخليصها من أسار الرق . وكل شئ أطلقته ، فقد فككته . ومنه فك الرهن ، وفك الكتاب . فقد بين سبحانه أن العقبة هى هذه القرب المذكورة التى تكون بها النجاة من النار . قال الحسن وقتادة : هى عقبة شديدة فى النار ، دون الجسر ، فاقتموها بطاعة الله . وقال مجاهد والضحاك والكلبي : هى الصراط الذى يضرب على جهنم كحد السيف . وقال كعب : هى نار دون الجسر . قيل : وفى الكلام حذف ، أى وما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ قرأ أبو عمرو وابن كثير والكسائى : « فك رقة » على أنه فعل ماضى ، ونصب رقة على المفعولية . وهكذا قرأ : « أو أطعم » على أنه فعل ماضى . وقرأ الباقون : « فك أو إطعم » على أنهما مصدران ، وجر رقة بإضافة المصدر إليها ، فعلى القراءة الأولى يكون الفعلان بدلاً من اقتحم أو بيانا له كأنه قيل : فلا فك ولا أطعم . والفك فى الأصل : حل القيد ، سمي العتق فكاً لأن الرق كالقيد . وسمى المرفوق رقة لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته . ﴿ أو إطعم فى يوم ذى مسغبة ﴾ والمسغبة : المجاعة ، والسغب : الجوع . والساغب : الجائع . قال الراغب : يقال منه : سغب الرجل سغباً وسغبوا ، فهو ساغب وسغبان . والمسغبة : مفعلة منه . وأنشد أبو عبيدة :

فلو كنت حراً يابن قيس بن عاصم لما بت شبعاناً وجارك ساغباً

قال النخعى : ﴿ فى يوم ذى مسغبة ﴾ : أى عزيز فيه الطعام . ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أى قرابة . يقال : فلان ذو قرابتى وذو مقربتى . واليتيم فى الأصل : الضعيف . يقال : يتم الرجل : إذا ضعف . واليتيم عند أهل اللغة : من لا أب له . وقيل : هو من لا أب له ولا أم . ومنه قول قيس بن الملوح :

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيماً

﴿أو مسكيناً ذا متربة﴾ أى لا شئ له كأنه لصق بالتراب لفقره وليس له مأوى إلا التراب، يقال : ترب الرجل يترب ترباً ومتربة : إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرراً . قال مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره . وقال قتادة : هو ذو العيال . وقال عكرمة : هو المديون . وقال أبو سنان : هو ذو الزمانة . وقال ابن جبير : هو الذى ليس له أحد . وقال عكرمة : هو البعيد التربة ، الغريب عن وطنه . والأول أولى ، ومنه قول الهذلي :

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن فى تربة الحال

قرأ الجمهور : ﴿ذى مسغبة﴾ على أنه صفة ليوم . و «يتيماً» هو مفعول إطعام . وقرأ الحسن : «ذا مسغبة» بالنصب على أنه مفعول إطعام ، أى يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدل منه . ثم كان من الذين آمنوا ﴿عطف على المنفى بلا . وجاء بثم للدلالة على تراضى رتبة الإيمان، ورفعة محلّه . وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان . وقيل : المعنى : ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم . وقيل : المعنى : أنه أتى بهذه القرب لوجه الله . ﴿وتواصوا بالصبر﴾ معطوف على ﴿آمنوا﴾ أى أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلاء والمصائب . ﴿وتواصوا بالرحمة﴾ أى بالرحمة على عباد الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، رحموا اليتيم والمساكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها . والإشارة بقوله : ﴿أولئك﴾ إلى الموصول باعتبار اتصافه بالصفات المذكورة ﴿هم أصحاب الميمنة﴾ أى أصحاب جهة اليمين ، أو أصحاب اليمين . أو الذين يعطون كتبهم بآيمانهم . وقيل غير ذلك مما قد قدمنا ذكره فى سورة الواقعة . ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أى بالقرآن أو بما هو أعم منه ، فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التى تدل على الصانع سبحانه ﴿هم أصحاب المشأمة﴾ أى أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم . أو الذين يعطون كتبهم بشمالهم ، أو غير ذلك مما تقدم . ﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أى مطبقة مغلقة ، يقال : أضدت الباب وأوصدته : إذا أغلقته وأطبقتة ، ومنه قول الشاعر :

نحن إلى أجبال مكة ناقتى ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

قرأ الجمهور : «مؤصدة» بالواو . وقرأ أبو عمرو ، وحزمة ، وحفص بالهمزة مكان الواو . وهما لغتان . والمعنى واحد .

وقد أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿لا أقسم بهذا البلد﴾ قال : مكة ﴿وأنت حل بهذا البلد﴾ يعنى بذلك : النبى ﷺ : أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيى من شاء . فقتل له يومئذ ابن خطل صبراً ، وهو أخذ بأستار الكعبة ، فلم يحل لأحد من الناس بعد النبى ﷺ أن يفعل فيها حراماً حرمه الله ، فأحل الله له ما صنع بأهل مكة ^(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه فى قوله : ﴿لا أقسم بهذا

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٢٤ .

البلد ﴿ قال : مكة . ﴾ وأنت حل بهذا البلد ﴿ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقتاتل فيه . وأما غيرك فلا . وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي قال : نزلت هذه الآية : ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد ﴾ في ، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل وهو معلق بأستار الكعبة ، فضربت عنقه بين الركن والمقام .

وأخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ، قال : أحل له أن يصنع فيه ما شاء . ﴿ ووالد وما ولد ﴾ ، قال : يعني بالوالد : آدم . وما ولد : ولده . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : الوالد : الذي يلد ، ﴿ وما ولد ﴾ : العاقر لا يلد من الرجال والنساء . وأخرج ابن جرير والطبراني عنه أيضاً : ﴿ ووالد ﴾ : قال : آدم . ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : في اعتدال وانتصاب . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ ، قال : في نصب . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : في شدة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : في شدة خلق ولادته ، ونبت أسنانه ، ومعيشته ، وختانه . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : خلق الله كل شيء يمشی على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً . وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ قال : منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه لولا ذلك لغرق في الدم . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في قوله : ﴿ ما لا لبدا ﴾ قال : كثيراً .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : الهدى والضلالة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عنه قال : سبيل الخير والشر . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سنان بن سعد عن أنس قال : قال النبي ﷺ : «هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . تفرد به سنان بن سعد . ويقال : سعد بن سنان . وقد وثقه يحيى بن معين . وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني : منكر الحديث . وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه ، قد روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها ، ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث الحسن البصري ، لا يشبه حديث أنس . وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن قال : ذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول فذكره (١) . وهذا مرسل . وكذا رواه قتادة مرسلأ . أخرجه عنه ابن جرير ، ويشهد له ما أخرج الطبراني عن أبي أمامة : أن النبي ﷺ قال :

(١) ابن جرير ١٢٨/٣ .

«يأيها الناس ، إنهما نجدان : نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»^(١) . ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «إنما هما نجدان : نجد الخير ، ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير» . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله : «وهديناه النجدين» قال : الثدين .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عمر في قوله : «فلا اقتحم العقبة» قال : جبل زلال في جهنم . وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : العقبة : النار . وأخرج عبد بن حميد عنه قال : عقبة بين الجنة والنار . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عائشة قالت : لما نزل «فلا اقتحم العقبة» قيل : يارسول الله ، ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه ، فلو أمرناهن بالزنى فجئن بالأولاد فاعتقناهم ، فقال رسول الله ﷺ : «لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلى من أن آمر بالزنى ثم أعتق الولد»^(٢) . وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ : «لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا» . وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة ، منها في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أعتق رقبة مؤمنة ، أعتق الله بكل عضو منها عضواً منه من النار ، حتى الفرج بالفرج»^(٣) .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : «في يوم ذى مسغبة» قال : مجاعة . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عنه «في يوم ذى مسغبة» قال : جوع . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً : «يتيماً ذا مقربة» قال : ذا قرابة . وفي قوله : «ذا متربة» قال : بعيد التربة ، أى غريباً عن وطنه . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً : «أو مسكيناً ذا متربة» قال : هو المطروح الذي ليس له بيت . وفي لفظ للحاكم : هو الذي لا يقيه من التراب شيء . وفي لفظ : هو اللازق بالتراب من شدة الفقر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي ﷺ : «مسكيناً ذا متربة» قال : «الذى مأواه المزابل» . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : «وتواصوا بالرحمة» يعنى بذلك : رحمة الناس كلهم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : «مؤصدة» قال : مغلقة الأبواب . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة «مؤصدة» قال : مطبقة .

(١) الطبراني (٨٠٢٠) وهو جزء من حديث طويل .

(٢) صححه الحاكم ٢١٥/٢ على شرط مسلم ، وقال الذهبي : «وسلمة لم يحتج به وقد وثق وضعفه ابن راهويه» والبيهقي ٥٨/١٠ .

(٣) البخاري في العتق (٢٥١٧) ومسلم في العتق (٩-٢٢/١٥٠ ، ٢٣) والبيهقي ٢٧٢/١٠ .

تفسير سورة الشمس

هى خمس عشرة آية وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال: نزلت ﴿والشمس وضحاها﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى عن بريدة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة العشاء : ﴿والشمس وضحاها﴾ وأشباهاها من السور^(١) . وقد تقدم حديث جابر فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ و﴿والشمس وضحاها﴾ و﴿الليل إذا يغشى﴾ »^(٢) . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن النبى ﷺ أمره أن يقرأ فى صلاة الصبح بـ ﴿الليل إذا يغشى﴾ و﴿والشمس وضحاها﴾^(٣) . وأخرج البيهقى فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلّى ركعتى الضحى بسورتيهما بـ ﴿الشمس وضحاها﴾ و ﴿الضحى﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ .

أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته . وقال قوم : إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم وما سأتى هو على حذف مضاف ، أى ورب الشمس ورب القمر ، وهكذا سائرهما ، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له . وقوله : ﴿وضحاها﴾ هو قسم ثان . قال مجاهد : ﴿وضحاها﴾ أى ضوئها وإشراقها . وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي . وقال قتادة : ﴿ضحاها﴾ : نهارها كله . قال الفراء : الضحى هو النهار . وقال المبرد : أصل الضحى : الصبح ، وهو نور الشمس . قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل . وهو نور الشمس على وجه الأرض . وأصله الضحى . فاستقلوا الباء فقلبوها ألفاً . قيل : والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعيد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد . قال المبرد : الضحى والضحوه مشتقان من الضح ،

(١) أحمد ٣٥٤/٥ والترمذى فى الصلاة (٣٠٩) والنسائى فى الصلاة ١٧٣/٢ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الطبرانى (١١٢٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع ١٢٢/٢ : « فيه ابن لهيعة وفيه كلام » .

وهو النور ، فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف فى جواب القسم ماذا هو ؟ فقيل : هو قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ . قاله الزجاج وغيره . قال الزجاج : وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها . وقيل : الجواب محذوف ، أى والشمس وكذا لتبعثن . وقيل : تقديره : ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدن على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً . وأما ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم فى شيء . وقيل : هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى : قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها والشمس وضحاها . والأول أولى .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أى تبعها ، وذلك بأن طلع بعد غروبها . يقال : تلا يتلو تلاوا : إذا تبع . قال المفسرون : وذلك فى النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس ، تلاها القمر فى الإضاءة ، وخلفها فى النور . قال الزجاج : تلاها حين استدار ، فكان يتلو الشمس فى الضياء والنور . يعنى : إذا كمل ضوؤه ، فصار تابعاً للشمس فى الإنارة ، يعنى : كان مثلها فى الإضاءة ، وذلك فى الليالى البيض . وقيل : إذا تلا طلوعه طلوعها . قال قتادة : إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت ، رؤى الهلال . قال ابن زيد : إذا غربت الشمس فى النصف الأول من الشهر ، تلاها القمر بالطلوع . وفى آخر الشهر يتلوها بالغروب . وقال الفراء : تلاها : أخذ منها . يعنى أن القمر يأخذ من ضوء الشمس . ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أى جلى الشمس . وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الانجلاء ، فكانه جلاها مع أنها التى تبسطه . وقيل : الضمير عائد إلى الظلمة ، أى جلى الظلمة ، وإن لم يجز للظلمة ذكر ، لأن المعنى معروف . قال الفراء : كما تقول : أصبحت باردة ، أى أصبحت غداً باردة . والأول أولى ، ومنه قول قيس بن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

وقيل : المعنى : جلى ما فى الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة فى الليل . وقيل : جلى الدنيا . وقيل : جلى الأرض . ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أى يغشى الشمس ، فيذهب بضوئها ، فتغيب وتظلم الآفاق . وقيل : يغشى الآفاق . وقيل : الأرض ، وإن لم يجز لهما ذكر ، لأن ذلك معروف . والأول أولى . ﴿ والسماء وما بناها ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أى والسماء وبينانها ويجوز أن تكون موصولة ، أى والذى بناها . وإيثار « ما » على « من » لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال : والقادر العظيم الشأن الذى بناها . ورجح الأول الفراء والزجاج . ولا وجه لقول من قال : إن جعلها مصدرية مخل بالنظم . ورجح الثانى ابن جرير . ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ الكلام فى « ما » هذه كالكلام فى التى قبلها . ومعنى ﴿ طحاها ﴾ بسطها . كذا قال عامة المفسرين ، كما فى قوله : ﴿ دحاها ﴾ قالوا : طحاها ودحاها واحد ، أى بسطها من كل جانب . والطحو : البسط . وقيل : معنى

﴿طحاها﴾ : قسمها . وقيل : خلقها ، ومنه قول الشاعر :

وما يندرى جذيمة من طحاها ولا من ساكن العرش الرفيع

والأول أولى . والطحو أيضا الذهاب . قال أبو عمرو بن العلاء : طحا الرجل إذا ذهب في الأرض . يقال : ما أدري أين طحا ؟ ويقال : طحا به قلبه : إذا ذهب به ، ومنه قول الشاعر :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

﴿ونفس وما سواها﴾ ، والكلام في « ما » هذه كما تقدم . ومعنى ﴿سواها﴾ : خلقها وأنشأها ، وسوى أعضائها . قال عطاء : يرد جميع ما خلق من الجن والإنس . والتنكير للتفخيم . وقيل : المراد : نفس آدم . ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾ أي عرفها وأفهمها حالهما ، وما فيهما من الحسن والقبح . قال مجاهد : عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية . قال الفراء : فألهمها : عرفها طريق الخير ، وطريق الشر ، كما قال : ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد : ١٠] . قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به . وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به . قال ابن زيد : جعل فيها ذلك بتوقيفه إياها للتقوى ، وخذلانه إياها للفجور . واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان . قال الواحدى : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام . فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع في قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبده شيئاً ، ألزمه ذلك الشيء . قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره .

﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي قد فاز من زكى نفسه وأنماها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب ، وظفر بكل محبوب . وقد قدسنا أن هذا جواب القسم على الراجح . وأصل الزكاة النمو والزيادة ، ومنه : زكا الزرع إذا كثر . ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي خسر من أضلها وأغواها . قال أهل اللغة : دساها أصله دسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء . فمعنى ﴿دساها﴾ في الآية : أخفاها وأخملها ، ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح . وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها ، فيقصدها الضيوف . وكانت لثام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفص مكانها عن الوافدين . وقيل : معنى ﴿دساها﴾ : أغواها ، ومنه قول الشاعر :

وأنت الذى دسيت عمرا فأصبحت حلائله منه أرامل ضيعا

وقال ابن الأعرابي : ﴿وقد خاب من دساها﴾ أي دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم . ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ الطغوى : اسم من الطغيان ، كالدعوى من الدعاء . قال الواحدى : قال المفسرون : كذبت ثمود بطغيانها ، أي الطغيان حملتهم على التكذيب .

والطغيان : مجاوزة الحد فى المعاصى ، والباء للسببية . وقيل : ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أى بعذابها الذى وعدت به . وسمى العذاب طغوى لأنه طغى عليهم ، فتكون الباء على هذا للتعدي . وقال محمد بن كعب : ﴿بطغواها﴾ أى بأجمعها . قرأ الجمهور : ﴿بطغواها﴾ بفتح الطاء . وقرأ الحسن والجحدري ومحمد بن كعب وحماذ بن سلمة بضم الطاء . فعلى القراءة الأولى هو مصدر بمعنى الطغيان . وإنما قلبت الباء والواو للفرق بين الاسم والصفة ؛ لأنهم يلقبون الباء فى الأسماء كثيراً ، نحو تقوى وسروى . وعلى القراءة الثانية هو مصدر كالرجعى والحسنى ، ونحوهما . وقيل : هما لغتان . ﴿إذ أنبعث أشقاها﴾ ، العامل فى الظرف ﴿كذبت﴾ ، أو ﴿بطغواها﴾ ، أى حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف ، فعقر الناقة . ومعنى ﴿أنبعث﴾ : انتدب لذلك وقام به . يقال : بعثته على الأمر فانبعث له . وقد تقدم بيان هذا فى الأعراف .

﴿فقال لهم رسول الله﴾ يعنى : صالحاً ﴿ناقة الله﴾ . قال الزجاج : ﴿ناقة الله﴾ منصوبة على معنى : ذروا ناقة الله . قال الفراء : حذرهم إياها . وكل تحذير فهو نصب . ﴿وسقياها﴾ معطوف على ناقة ، وهو شربها من الماء . قال الكلبي ومقاتل : قال لهم صالح : ذروا ناقة الله ، فلا تعقروها ، وذروا سقياها ، وهو شربها من النهر فلا تعرضوا له يوم شربها ، فكذبوا بتحذيره إياهم . ﴿فعقروها﴾ أى عقرها الأشقى . وإنما أسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله . قال قتادة : إنه لم يعقروها حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم . قال الفراء : عقرها اثنان . والعرب تقول : هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس . فلهذا لم يقل أشقياها .

﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها﴾ أى أهلكهم وأطبق عليهم العذاب . وحقيقة الدممة تضعيف العذاب وترديده . يقال : دمدمت على الشيء ، أى أطبقت عليه . ودمدم عليه القبر ، أى أطبقه . وناقة مدمومة : إذا لبسها الشحم ، والدممة : إهلاك باستئصال . كذا قال المؤرج . قاله فى الصحاح : دمدمت الشيء : إذا ألزقته بالأرض وطحطحته . ودمدم الله عليهم ، أى أهلكهم . وقال ابن الأعرابي : دمدم إذا عذب عذاباً تاماً . والضمير فى ﴿فسواها﴾ يعود إلى الدممة ، أى فسوى الدممة عليهم وعمهم بها فاستوت على صغيرهم وكبيرهم . وقيل : يعود إلى الأرض ، أى فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب . وقيل : يعود إلى الأمة ، أى ثمود . قال الفراء : سوى الأمة : أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها ، بمعنى سوى بينهم . قرأ الجمهور : فدمدم بيم بين الدالين . وقرأ ابن الزبير : فدهدم بهاء بين الدالين . قال القرطبي : وهما لغتان كما يقال : امتقع لونه ، واهتقع لونه . ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أى فعل الله ذلك بهم غير خائف من عاقبة ولا تبعة . والضمير فى ﴿عقباها﴾ يرجع إلى الفعل أو إلى الدممة المدلول عليها بدمدم . وقال السدى والضحاك والكلبي : إن الكلام يرجع إلى العاقر ، لا إلى الله سبحانه ، أى لم يخف الذى عقرها عقبى ما صنع . وقيل : لا يخاف

رسول الله ﷺ عاقبة إهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم .
والأول أولى . قرأ الجمهور : ﴿ ولا يخاف ﴾ بالواو . وقرأ نافع وابن عامر بالفاء .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس : ﴿ وضحاها ﴾ قال : ضوؤها . ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ قال : تبعها . ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ قال : أضاءها . ﴿ والسماء وما بناها ﴾ قال : الله بنى السماء . ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ قال : دحاها . ﴿ فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : علمها الطاعة والمعصية . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه : ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ يقول : قسمها . ﴿ فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : من الخير والشر . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضا : ﴿ فآلهمها ﴾ قال : ألزمها فجورها وتقواها . وأخرج أحمد وعبد ابن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين ؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه ، شيء قد قضى عليهم ، ومضى في قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما آتاهم نبيهم ، واتخذت عليهم به الحجة ، قال : « بل شيء قد قضى عليهم » . قال : فلم يعملون إذن ؟ قال : « من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ »^(١) . وسيأتى في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث . وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها »^(٢) . وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس . وزاد : كان إذا تلا هذه الآية : ﴿ ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها ﴾ قال : فذكره . وزاد أيضاً وهو في الصلاة^(٣) . وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً^(٤) . وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة^(٥) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ يقول : قد أفلح من زكى الله نفسه . ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ يقول : قد خاب من دس الله نفسه فأضله . ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ قال : لا يخاف من أحد تبعه . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ يعني : مكر بها . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ... ﴾ الآية : « أفلحت نفس زكاها الله ، وخابت نفس خيبها الله من كل خير » . وجويبر ضعيف^(٦) . وأخرج ابن جرير عنه أيضا

(١) أحمد ٤/ ٤٣٨ ومسلم في القدر (١٠ / ٢٦٥٠) وابن جرير ٣٠ / ١٣٥ .

(٢) ابن أبي شيبة (٩١٧٣) وأحمد ٤ / ٣٧١ والنسائي في الاستعاذة ٨ / ٢٦٠ .

(٣) الطبراني (١١١٩١) .

(٤) مسلم في الذكر (٢٧٢٢ / ٧٣) . (٥) أحمد ٦ / ٢٠٩ .

(٦) قال ابن كثير ٧ / ٣٠١ : « جويبر متروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس » .

﴿بطغواها﴾ قال : اسم العذاب الذى جاءها الطغوى ، فقال : كذبت ثمود بعذابها . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة ، قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : ﴿إذا انبعث أشقاها﴾ قال : « انبعث لها رجل عارم عزيز منيع فى رهطه مثل أبى زمعة » (١) . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والبخارى والطبرانى وابن مردويه والحاكم ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ » قال : بلى . قال : « رجلان : أحمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك على هذا - يعنى « قرنه - حتى تبتل منه هذه - يعنى : لحيته » (٢) .

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٤٢) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٤٩/٢٨٥٥) والنسائى فى التفسير (٦٩٥) .
 (٢) أحمد ٤ / ٢٦٣ ، وصححه الحاكم ٣ / ١٤٠ ، ١٤١ ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩ / ١٣٩ : « رواه أحمد والطبرانى والبخارى باختصار ورجال المجمع موثقون ، إلا أن التابعى لم يسمع من عمار » .

تفسير سورة الليل

هى إحدى وعشرون آية . وهى مكية عند الجمهور . وقيل : مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت سورة : ﴿والليل إذا يغشى﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البيهقى فى سننه عن جابر بن سمرة قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر : ﴿والليل إذا يغشى﴾ ونحوها ^(١) . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس أن رسول الله ﷺ صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ : ﴿والشمس وضحاها﴾ ، ﴿والليل إذا يغشى﴾ فقال له أبى بن كعب : يا رسول الله أمرت فى هذه الصلاة بشيء ؟ قال : « لا ، ولكن أردت أن أوقت لكم » ^(٢) . وقد تقدم حديث : « فهلا صليت بـ ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ، ﴿والشمس وضحاها﴾ ، ﴿والليل إذا يغشى﴾ ؟ » . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إني لأقول : إن هذه السورة نزلت فى السماحة والبخل : ﴿والليل إذا يغشى﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ .

قوله : ﴿والليل إذا يغشى﴾ أى يغطى بظلمته ما كان مضيئاً . قال الزجاج : يغشى الليل الأفق ، وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار ، وقيل : يغشى النهار . وقيل : يغشى الأرض . والأول أولى . ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾ أى ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التى كانت فى الليل ، وذلك بطلوع الشمس . ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ « ما » هنا هى الموصولة ، أى والذى خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخيم ، أى والقادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى . قال الحسن والكلبى :

(١) البيهقى ٢ / ٣٩١ .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط وقال الهيثمى فى المجمع ٢ / ١١٩ : « وفيه أبو الرجال الأنصارى البصرى وهو منكر الحديث » .

معناه : والذى خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه . قال أبو عبيدة : ﴿ وما خلق ﴾ أى ومن خلق . وقال مقاتل : يعنى : وخلق الذكر والأنثى ، فتكون « ما » على هذا مصدرية . قال الكلبي ومقاتل : يعنى : آدم وحواء ، والظاهر العموم . قرأ الجمهور : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ . وقرأ ابن مسعود : « والذكر والأنثى بدون « ما خلق » . ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم ، أى إن عملكم لمختلف ، فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل النار . قال جمهور المفسرين : السعى : العمل ، فساع فى فكاك نفسه ، وساع فى عطائها . و﴿ شتى ﴾ جمع شتيت ، كمرض ومريض . وقيل للمختلف : شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض .

﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى بذل ماله فى وجوه الخير ، واتقى محارم الله التى نهى عنها . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى بالخلف من الله . قال المفسرون : فأما من أعطى العسرين . وقال قتادة : أعطى حق الله الذى عليه . وقال الحسن : أعطى الصدق من قلبه . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى بلا إله إلا الله . وبه قال الضحاك والسلمى . وقال مجاهد : بالحسنى : بالجنة . وقال زيد ابن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم . والأول أولى . قال قتادة : ﴿ بالحسنى ﴾ أى بموجود الله الذى وعده أن يثيبه . قال الحسن : بالخلف من عطائه . واختار هذا ابن جرير . ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى فسنهيئه للخصلة الحسنى ، وهى عمل الخير . والمعنى : فسنيسره الإنفاق فى سبيل الخير ، والعمل بالطاعة لله . قال الواحدى : قال المفسرون : نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى أيدي أهل مكة يعذبونهم فى الله^(١) .

﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ أى بخل بماله فلم يبذله فى سبيل الخير ﴿ واستغنى ﴾ أى زهد فى الأجر والثواب ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة . ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى بالخلف من الله عز وجل . وقال مجاهد : بالجنة ، وروى عنه أيضاً أنه قال : بلا إله إلا الله . ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى فسنهيئه للخصلة العسرى ونسهلها له حتى تتعر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك إلى النار . قال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيراً . قيل : العسرى : الشر . وذلك أن الشر يؤدى إلى العذاب . والعسرة فى العذاب . والمعنى : سنهيئه للشر بأن نجريه على يديه . وقال الفراء : سنيسره : سنهيئه . والعرب تقول : قد يسرت الغنم : إذا ولدت أو تهيأت للولادة . قال الشاعر :

هما سيدنا يزعمان وإنما يسوداننا إن يَسَرَّتْ غَنَمَاهُمَا

﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ أى لا يغنى عنه شيئاً ماله الذى بخل به ، أو أى شىء يغنى عنه إذا تردى ، أى هلك . يقال : ردى الرجل يردى ردى . وتردى يتردى : إذا هلك .

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم : ﴿ إذا تردى ﴾ إذا سقط في جهنم . يقال : ردى في البئر وتردى : إذا سقط فيها . ويقال : ما أدري أين ردى ، أى أين ذهب ؟ ﴿ إن علينا للهدى ﴾ هذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، أى إن علينا البيان . قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته . قال الفراء : من سلك الهدى ، فعلى الله سبيله لقوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل : ٩] يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال الفراء أيضاً : المعنى : إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله : ﴿ سرايل تقيكم الحر ﴾ [النحل ٨١] وقيل : المعنى : إن علينا ثواب هداية هديناه . ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أى لنا كل ما فى الآخرة ، وكل ما فى الدنيا نتصرف به كيف نشاء . فمن أرادهما أو إحداهما فليطلب ذلك منا . وقيل : المعنى : إن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا .

﴿ فأنذرتكم نارا تلظى ﴾ أى حذرتكم وخوفتكم نارا تتوقد وتتوهج . وأصله : تتلظى ، فحذفت إحدى التائين تخفيفاً . وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ويحيى بن يعمر وطلحة بن مصرف . ﴿ لا يصلها إلا الأشقى ﴾ أى يصلها صلياً لازماً على جهة الخلود إلا الأشقى ، وإن صليها غيره من العصاة فليس عليه كصليه . والمراد بقوله : ﴿ يصلها ﴾ : يدخلها أو يجد صلاها ، وهو حرها . ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ الذى كذب وتولى ﴾ أى كذب بالحق الذى جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان . قال الفراء : ﴿ إلا الأشقى ﴾ : إلا من كان شقياً فى علم الله جل ثناؤه . قال أيضاً : لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة ؛ فجعل تكذيباً كما تقول : لقي فلان العدو فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه . قال الزجاج : هذه الآية هى التى من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء . فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر . ولأهل النار منازل . فمنها أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب ، فجدير أن يعذب به . وقد قال : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ٤٨] فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب ، لم يكن فى قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة . وقال فى الكشف : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين ، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ فى صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : الأشقى ، وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصاً بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل : المراد بالأشقى : أبو جهل ، أو أمية بن خلف ، وبالأتقى : أبو بكر الصديق . ومعنى ﴿ سيجنها الأتقى ﴾ : سيأخذ عنها المتقى للكفر اتقاء بالغا . قال الواحدى : الأتقى : أبو بكر الصديق فى قول جميع المفسرين (١) . انتهى . والأولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصف بالصفيتين المذكورتين . ويكون المعنى : أنه لا يصلها صلياً تاماً لازماً إلا الكامل

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٥٥ .

فى الشقاء وهو الكافر . ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل فى التقوى . فلا ينافى هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تباعد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ مبلغ تباعد الكامل فى التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله : ﴿ لا يصلها إلا الأَشقى ﴾ زاعماً أن الأَشقى الكافر ، لأنه الذى كذب وتولى . ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين . فيقال له : فما تقول فى قوله : ﴿ وسيجنبها الأَتقى ﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلا الكامل فى التقوى . فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين ، لم يكن ممن يجنب النار . فإن أولت الأَتقى بوجه من وجوه التأويل ، لزمك مثله فى الأَشقى ، فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا على ولا ليه

وقيل : أراد بالأَشقى والأَتقى : الشقى والتقى ، كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى بواحد . ولا يخفاك أنه ينافى هذا وصف الأَشقى بالتكذيب . فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر . فلا يتم ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين . ثم ذكر سبحانه صفة الأَتقى فقال : ﴿ الذى يؤتى ماله ﴾ أى يعطيه ويصرفه فى وجوه الخير . وقوله : ﴿ يتزكى ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يؤتى ، أى حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة . ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتى داخلاً معه فى حكم الصلة . قرأ الجمهور : ﴿ يتزكى ﴾ مضارع « تزكى » . وقرأ على بن الحسين بن على : « تزكى » بإدغام التاء فى الزاى . ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ الجملة مستأنفة ، لتقرير ما قبلها من كون التزكى على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافى الخلوص ، أى ليس ممن يتصدق بماله ليجازى بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها . وإنما يتغنى بصدقته وجه الله تعالى . ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتى من ماله مجازاتها . وإنما قال : ﴿ تجزى ﴾ مضارعاً مبنيًا للمفعول لأجل الفواصل . والأصل يجزيها إياه ، أو يجزيه إياها .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ إلا ابتغاء ﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجهم تحت جنس النعمة ، أى لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى . ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول له على المعنى ، أى لا يؤتى إلا لابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمة . قال الفراء : هو منصوب على التأويل ، أى ما أعطيتك ابتغاء جزائك ، بل ابتغاء وجه الله . وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ؛ لأن محلها الرفع ، إما على الفاعلية ، وإما على الابتداء . و« من » مزيدة ، والرفع لغة تميم ، لأنهم يجوزون البدل فى المنقطع ،

ويجرونه مجرى المتصل . قال مكي : وأجاز الفراء الرفع في «ابتغاء» على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد . قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة واستبعاده هو البعيد ، فإنها لغة فاشية . وقرأ الجمهور أيضاً : ﴿ ابتغاء ﴾ بالمد . وقرأ ابن أبي عجلة بالقصر ، و﴿ الأعلى ﴾ نعت للرب . ﴿ ولسوف يرضى ﴾ اللام هي الموطئة للقسم ، أي وتالله لسوف يرضى بما نعطيهِ من الكرامة والجزاء العظيم . قرأ الجمهور : ﴿ يرضى ﴾ مبنياً للفاعل . وقرئ مبنياً للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال : إذا أظلم . وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية ابن خلف وأبى بن خلف ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله . فأنزل الله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ سعى أبي بكر ، وأميه ، وأبى ، إلى قوله : ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال : لا إله إلا الله ، إلى قوله : ﴿ فسئسره للعسرى ﴾ قال : النار . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأما من أعطى ﴾ من الفضل : ﴿ واتقى ﴾ قال : اتقى ربه . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : صدق بالخلف من الله . ﴿ فسئسره للعسرى ﴾ قال : للخير من الله . ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ قال : بخل بماله واستغنى عن ربه . ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال بالخلف من الله . ﴿ فسئسره للعسرى ﴾ قال : للشر من الله . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : أيقن بالخلف . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ يقول : صدق بلا إله إلا الله . ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ يقول : من أغناه الله فبخل بالزكاة .

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني ، أراك تعتق أناساً ضعافاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جلدًا يقومون معك ، ويمنعونك ويدفعون عنك . قال : أي أبت ، إنما أريد ما عند الله . قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسئسره للعسرى ﴾ ^(١) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى ﴾ قال : أبو بكر الصديق . ﴿ وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب . وأخرج البخاري ، ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال : كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعه من النار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له . أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة . وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء » . ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى ﴾ إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾ ^(٢) . وأخرج أحمد

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٤٢ .

(٢) البخاري في التفسير (٤٩٤٥) ومسلم في القدر (٢٦٤٧ / ٧) وأبو داود في السنة (٤٦٩٤) والترمذي في القدر (٢١٣٦) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائي في التفسير (٦٩٨) وابن ماجه في المقدمة (٧٨) وابن جرير ٣٠ / ١٤٣ .

ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله أن سراقاً قال : يا رسول الله في أي شيء نعمل؟ أفى شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به الأقلام أم في شيء يستقبل فيه العمل؟ قال : « بل في شيء ثبتت فيه المقادير، وجرت فيه الأقلام » . قال سراق : فقيم العمل إذن يا رسول الله؟ قال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » . وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (١) . وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه . وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : لتدخلن الجنة إلا من يأبى . قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ فقرأ : ﴿ الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٢) . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أمامة قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة ، إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله . فمن لم يصدقني ، فإن الله يقول : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ كذب بما جاء به محمد ﷺ وتولى عنه . وأخرج أحمد والحاكم والضياء عن أبي أمامة الباهلي ؛ أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » (٣) . وأخرج أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقى » . قيل : ومن الشقى؟ قال : « الذي لا يعمل لله بطاعة ، ولا يترك لله معصية » (٤) .

وأخرج أحمد والبخاري عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » (٥) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وأم عيسى وأمة بنى المؤمل . وفيه نزلت : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ﴾ إلى آخر السورة . وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدمنا عنه ، وزاد فيه : فنزلت فيه هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ﴾ قال : هو أبو بكر الصديق .

(١) أحمد ٣ / ٣٠٤ / ٣٠٤ مسلم في القدر (٢٦٤٨ / ٨) وابن ماجه في المقدمة (٩١) .

(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٥ .

(٣) أحمد ٥ / ٢٥٨ / ٢٥٨ وصححه الحاكم ١ / ٥٥ ووافقه الذهبي .

(٤) أحمد ٢ / ٣٤٩ / ٣٤٩ وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٨) وفي الزوائد : « في إسناد ابن لهيعة وهو ضعيف » .

(٥) أحمد ٢ / ٣٩١ / ٣٩١ والبخاري في الاعتصام (٧٢٨٠) .

تفسير سورة الضحى

هى إحدى عشرة آية . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : نزلت ﴿ والضحى ﴾ بمكة . وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب من طريق أبى الحسن المقرئ قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن قسطنطين ، فلما بلغت : ﴿ والضحى ﴾ قال : كبر حتى تختتم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك . وأخبره ابن عباس أن أبى بن كعب أمره بذلك . وأخبره أبى أن رسول الله ﷺ أمره بذلك ، وأبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزة المقرئ . قال ابن كثير : فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى من ولد القاسم بن أبى بزة ، وكان إماماً فى القراءات ، وأما فى الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أخذت عنه . وكذلك أبو جعفر العجلي ، قال : هو منكر الحديث . قال ابن كثير : ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر الليل إذا يغشى . وقال آخرون : من آخر الضحى . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول : الله أكبر لا إله إلا الله ، الله أكبر .

وذكروا فى مناسبة التكبير من أول الضحى أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، وفتر تلك المدة ، ثم جاء الملك ، فأوحى إليه ﴿ والضحى ﴾ . والليل إذا سجدى ﴿ السورة ﴾ ، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرووا ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي ، قال : اشتكى النبى ﷺ ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فأنته امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم يقربك ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله : ﴿ والضحى والليل إذا سجدى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾ ^(١) . وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير والطبرانى وابن مردويه عن جندب قال : أبطأ جبريل عن النبى ﷺ ، فقال المشركون : قد ودع محمد . فنزلت : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ ^(٢) . وأخرج الطبرانى عن جندب قال : احتبس جبريل عن النبى ﷺ ، فقالت بعض بنات عمه : ما أرى صاحبك إلا قد فلاك . فنزلت : ﴿ والضحى ﴾ ^(٣) . وأخرجه الترمذى وصححه ، وابن أبى حاتم عن جندب وفيه : فقالت امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت : ﴿ والضحى ﴾ ^(٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ والضحى ﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ

(١) أحمد ٤ / ٣١٢ والبخارى فى التفسير (٤٩٥٠) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩٧ / ١١٤ ، ١١٥) .

(٢) ابن جرير ٣٠ / ١٤٨ والطبرانى (١٧١٢) . (٣) الطبرانى (١٧١٠) .

(٤) الترمذى فى التفسير (٣٣٤٥) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) .

والمراد بالضحى هنا : النهار كله ؛ لقوله : ﴿ واللّيل إذا سجدى ﴾ . فلما قابل الضحى بالليل ، دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه . وهو فى الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم فى قوله : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : ١] . والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين . وقال قتادة ومقاتل ، وجعفر الصادق : إن المراد به الضحى الذى كلم الله فيه موسى . والمراد بقوله : ﴿ واللّيل إذا سجدى ﴾ ليلة المعراج . وقيل : المراد بالضحى : هو الساعة التى خر فيها السحرة سجداً ، كما فى قوله : ﴿ وأن يحشّر الناس ضحى ﴾ [طه : ٥٩] . وقيل : المقسم به مضاف مقدر كما تقدم فى نظائره ، أى ورب الضحى . وقيل : تقديره : وضحاوة الضحى . ولا وجه لهذا ، فله سببانه أن يقسم بما شاء من خلقه . وقيل : الضحى : نور الجنة . والليل : ظلمة النار . وقيل : الضحى : نور قلوب العارفين . والليل : سواد قلوب الكافرين . ﴿ واللّيل إذا سجدى ﴾ أى سكن . كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم . يقال : ليلة ساجية ، أى ساكنة . ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية . يقال : سجا الشيء يسجو سجواً : إذا سكن . قال عطاء : سجا : إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي : سجا : امتد ظلامه . وقال الأصمعى : سجو الليل : تغطيته النهار ، مثل ما يسجد الرجل بالثوب . وقال الحسن : غشى بظلامه . وقال سعيد بن جبیر : أقبل . وقال مجاهد أيضاً : استوى . والأول أولى . وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة . ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزداد بعد ذلك . ﴿ ما ودعك ربك ﴾ هذا جواب القسم ، أى ما قطعك قطع المودع . قرأ الجمهور : ﴿ ما ودعك ﴾ بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق . وقرأ ابن عباس وعروة بن الزبير وابنه هاشم وابن أبى عبلّة وأبو حيوة بتخفيفها من قولهم : ودعه أى تركه . ومنه قول الشاعر :

مل أميرى ما الذى غيره عن وصالى اليوم حتى ودعه ؟

والتوديع أبلغ فى الودع ؛ لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ فى تركك . قال المبرد : لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك . قال أبو عبيدة : ودعك من التوديع كما يودع المفارق . وقال الزجاج : لم يقطع الوحى . وقد قدمنا سبب نزول هذه الآية فى فاتحة هذه السورة . ﴿ وما قلى ﴾ القلى : البغض . يقال : قلاه يقليه قلاء قال الزجاج : وما أبغضك . وقال : ﴿ وما قلى ﴾ ولم يقل : وما قلاك ؛ لموافقة رؤوس الآى . والمعنى : وما أبغضك ومنه قول امرئ القيس :

ولست بمقلى الخلال ولا قالى

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ اللام جواب قسم محذوف، أى الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه ﷺ قد أوتى فى الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، ويتضاءل بالنسبة إليه كل مكرمة فى الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار ، منغصة بالعوارض البشرية، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم ، أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً . ولما كانت طريقاً إلى الآخرة ، وسبباً لنيل ما أعد الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة ، كان فيها خير فى الجملة من هذه الحيثية . ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ هذه اللام قيل : هى لام الابتداء ، دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك . . . إلخ، وليست للقسم ؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة . وقيل : هى للقسم . قال أبو على الفارسى : ليست هذه اللام هى التى فى قولك : إن زيداً لقائم . بل هى التى فى قولك : لأقومن ، ونابت «سوف» عن إحدى نونى التأكيد ، فكأنه قال : وليعطيك . قيل : المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة فترضى . وقيل : الحوض والشفاعة . وقيل : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ، ترابه المسك . وقيل : غير ذلك . والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيرى الدنيا والآخرة . ومن أهم ذلك عنده وأقدمه لديه قبول شفاعته لأتمته .

﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ هذا شروع فى تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم ، أى وجدك يتيماً لا أب لك ﴿فأوى﴾ أى جعل لك مأوى تأوى إليه . قرأ الجمهور : ﴿فأوى﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه . وقرأ أبو الأشهب : « فأوى » ثلاثياً . وهى إما بمعنى الرباعى ، أو هو من أوى له إذا رحمه . وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدك واحداً فى شرفك لا نظير لك ، فأواك الله بأصحاب يحفظونك ، ويحوظونك ، فجعل يتيماً من قولهم : درة يتيمة . وهو بعيد جدا . والهمزة لإنكار النفى ، وتقرير المنفى على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيماً فأوى . والوجود بمعنى العلم . و﴿يتيماً﴾ مفعوله الثانى . وقيل : بمعنى المصادفة . و﴿يتيماً﴾ حال من مفعوله ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ معطوف على المضارع المنفى . وقيل : هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذى قبله كما ذكرنا ، أى قد وجدك يتيماً فأوى، ووجدك ضالاً فهدى . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما فى قوله : ﴿لا يضل ربى ولا ينسى﴾ [طه: ٥٢] ، وكما فى قوله : ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ [يوسف: ٣] . والمعنى : أنه وجدك غافلاً عما يراى بك من أمر النبوة . واختار هذا الزجاج . وقيل : معنى ضالاً : لم تكن تدرى القرآن ، ولا الشرائع ، فهذا لذلك . وقال الكلبي والسدى والفراء : وجدك فى قوم ضلال ، فهداهم الله لك . وقيل : وجدك طالباً للقبلة، فهداك إليها كما فى قوله : ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ [البقرة: ١٤٤] . ويكون الضلال بمعنى : الطلب . وقيل : وجدك ضائعاً فى قومك فهداك إليه . ويكون الضلال بمعنى :

الضياح . وقيل : وجدك محباً للهداية، فهذاك إليها، ويكون الضلال بمعنى : المحبة، ومنه قول الشاعر :
عجباً لعة فى اختيار قطيعتى بعد الضلال فحبها قد أخلقا

وقيل : وجدك ضالاً فى شعاب مكة فهذاك . أى : ردك إلى جدك عبد المطلب . ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾ أى وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك . يقال : عال الرجل يعيل عيلة : إذا افتقر . ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

فما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل

أى يفتقر . قال الكلبي : ﴿فأغنى﴾ أى رضاك بما أعطاك من الرزق . واختار هذا الفراء . قال : لأنه لم يكن غنياً من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاء بما آتاه . وذلك حقيقة الغنى . وقال الأخفش : ﴿عائلاً﴾ : ذا عيال ، ومنه قول جرير :

الله أنزل فى الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقيل : فأغنى بما فتح لك من الفتوح . وفيه نظر ؛ لأن السورة مكية . وقيل : بمال خديجة بنت خويلد ، وقيل : وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها . قرأ الجمهور : ﴿عائلاً﴾ . وقرأ محمد بن السميع واليماني : « عيلاً » بكسر الياء المشددة كسيد . ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال : ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أى لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان . قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً . قال الأخفش : لا تسلط عليه بالظلم، ادفع إليه حقه، واذكر يترك . قال الفراء والزجاج : لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه . وكذا كانت العرب تفعل فى حق اليتامى تأخذ أموالهم ، وتظلمهم حقوقهم . وكان رسول الله . يحسن إلى اليتيم ويبره ، ويوصى باليتامى قرأ الجمهور : ﴿فلا تقهر﴾ بالقاف . وقرأ ابن مسعود ، والنخعي والشعبي والأشهب العقيلي : « تكهر » بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف . قال النحاس : إنما يقال : كهره : إذا اشتد عليه وغلظ . وقيل : القهر : الغلبة . والكهر : الزجر . قال أبو حيان : هى لغة . يعنى قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور . و﴿اليتيم﴾ منصوب بـ ﴿تقهر﴾ . ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ يقال : نهره وانتهره : إذا استقبله بكلام يزجره . فهو نهى عن زجر السائل والإغلاظ له ، ولكن يبذل له اليسير ، أو يرده بالجميل . قال الواحدي : قال المفسرون : يريد السائل على الباب . يقول : لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيراً . فإما أن تطعمه ، وإما أن ترده ردّاً ليناً . قال قتادة : معناه : رد السائل برحمة ولين . وقيل : المراد بالسائل : الذى يسأل عن الدين . فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين . كذا قال سفيان . و﴿السائل﴾ منصوب بـ ﴿تنهر﴾ . والتقدير : مهما يكن من شئ فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس ، وإشهارها بينهم . والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها . وقال مجاهد والكلبي : المراد بالنعمة هنا : القرآن . قال الكلبي : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرأه . قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدث به . وقال مجاهد أيضاً : المراد بالنعمة : النبوة التي أعطاه الله . واختار هذا الزجاج ، فقال : أى بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله ، وهى أجل النعم . وقال مقاتل : يعنى : اشكر ما ذكر من النعمة عليك فى هذه السورة من الهدى بعد الضلالة ، وجبر اليتيم ، والإغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر . والجار والمجرور متعلق بحدث . والفاء غير مانعة من تعلقه به . وهذه النواهي لرسول الله ﷺ هى نواه له ولأمته ، لأنهم أسوته . فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهى بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والليل إذا سجي ﴾ قال : إذا أقبل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ إذا سجي ﴾ ، قال : إذا ذهب . ﴿ ما ودعك ربك ﴾ قال : ما تركك ﴿ وما قلى ﴾ ، قال : ما أبغضك . وأخرج الطبراني فى الأوسط ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « عرض على ما هو مفتوح لأمتى بعدى . فأنزل الله : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ » (١) . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم عنه أيضاً ، قال : عرض على رسول الله ﷺ ما هو مفتوح على أمته من بعده ، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف قصر من لؤلؤ ، ترابه المسك ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم (٢) . وأخرج البيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً فى الآية ، قال : من رضا محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . وأخرج الخطيب فى التلخيص من وجه آخر عنه أيضاً فى الآية ، قال : لا يرضى محمد وأحد من أمته فى النار . ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو : أن النبى ﷺ تلا قول الله فى إبراهيم : ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وقول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية [المائدة : ١١٨] فرفع يديه وقال : « اللهم أمتى أمتى ، وبكى » . فقال الله : يا جبريل ، اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك (٣) .

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبراني فى الكبير والأوسط وفيه معاوية بن العباس ولم أعرفه ، وبقيّة رجاله ثقات ، وإسناد الكبير حسن » والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٦١ .

(٢) ابن أبي شيبة (١٥٨٢٧) وابن جرير ٣٠ / ١٤٩ والطبراني (١٠٦٥٠) وصححه الحاكم (٢ / ٥٢٦) وقال الذهبى : « تفرد به عصام بن رواد عن أبيه وقد ضعف » وأبو نعيم ٣ / ٢١٢ وقال : « هذا حديث غريب من حديث على بن عبد الله بن العباس ، ثم يرويه عنه إلا إسماعيل ، ورواه سفيان الثوري عن الأوزاعي عن إسماعيل مثله » .

(٣) مسلم فى الإيمان (٢٠٢ / ٣٤٦) .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبى جعفر محمد بن على بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التى يتحدث بها أهل العراق أحق هى ؟ قال : إى والله ، حدثنى محمد بن الحنفية عن على ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أشفع لأمتى حتى ينادينى ربى : أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت » . ثم أقبل على فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق : إن أرجى آية فى كتاب الله : ﴿ يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : ٥٣] . قلت : إنا لنقول ذلك . قال : فكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، وهى الشفاعة .^(١) . وأخرج ابن أبى شيبه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴾ ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾^(٢) . وأخرج العسكرى فى المواعظ ، وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من جلد الإبل . فلما نظر إليها ، قال : « يا فاطمة ، تعجلى مرارة الدنيا بنعيم الآخرة » ، فأنزل الله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى وأبو نعيم وابن عساکر عن ابن عباس ؛ أن النبى ﷺ قال : « سألت ربى مسألة وددت أنى لم أكن سألتها . قلت : قد كانت قبلى أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فقال تعالى : يا محمد ، ألم أجعلك يتيماً فأويتك ؟ ألم أجعلك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجعلك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى : يا رب »^(٣) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ والضحى ﴾ على رسول الله ﷺ . قال رسول الله ﷺ : « يمين على ربى وأهل أن يمين ربى » . وأخرج ابن مردويه عنه فى قوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ قال : وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن بن على فى قوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : ما علمت من الخير . وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك .

وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والبيهقى فى الشعب ، والخطيب فى المتفق ، قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ على المنبر : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة »^(٤) . وأخرج أبو داود ، والترمذى وحسنه ، وأبو يعلى

(١) أبو نعيم ٣ / ١٧٩ وقال : « هذا حديث لم نكتبه إلا من حديث حرب بن شريح ، ولا رواه عنه إلا عمرو بن

عاصم وهو بصرى ثقة » .

(٢) ابن أبى شيبه (١٥٥٧٣) .

(٣) الطبرانى (١٢٢٨٩) وصححه الحاكم ٢ / ٥٢٦ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٧ / ٦٣ .

(٤) البيهقى فى الشعب (٩١١٩) .

وابن حبان والبيهقى والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: « من أبلى بلاء فذكره ، فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » (١) . وأخرج البخارى فى الأدب ، وأبو داود والضياء عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاء فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط ، فإنه كلابس ثوبى زور » (٢) . وأخرج أحمد ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أولى معروفاً فليكافئ به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره » (٣) .

(١) أبو داود فى الأدب (٤٨١٤) والترمذى فى البر والصلة (٢٠٣٤) وقال : « حديث حسن غريب » وأبو يعلى (٢١٣٧) وقال : « إسناده ضعيف وفيه جهالة » ووصله البخارى فى الأدب المفرد (٢١٥) من طريق يحيى بن أيوب عن عمارة بن غزية عن شرحبيل مولى الأنصار عن جابر ، وابن حبان فى صدقة التطوع (٣٤٠٦) والبيهقى ٦ / ١٨٢ .
(٢) أبو داود فى الأدب (٤٨١٣) .
(٣) أحمد ٦ / ٩٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٨ / ١٨٤ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه صالح بن أبى الأخضر ، وقد وثق على ضعفه ، وبقيّة رجال أحمد ثقات » .

تفسير سورة ألم نشرح

هى ثمان آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة . وزاد بعضهم بعد الضحى . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ (١) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۚ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ (٢) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ (٣) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ (٤) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ (٥) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ (٦) ﴾ .

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب ما يصد عن الإدراك . والاستفهام إذا دخل على النفى قرره ، فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك . وإنما خص الصدر ؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات . والمراد : الامتنان عليه ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوة ، وحفظ الوحي . وقد مضى القول فى هذا عند تفسير قوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ [الزمر : ٢٢] .
﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ معطوف على معنى ما تقدم ، لا على لفظه ، أى قد شرحنا لك صدرك ، ووضعنا ... إلخ . ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أى أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى ... إلخ . قرأ الجمهور : ﴿ نشرح ﴾ بسكون الحاء بالجزم . وقرأ أبو جعفر المنصور العباسى بفتحها . قال الزمخشري : قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها فى مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها . وقال ابن عطية : إن الأصل : « ألم نشرحن » ، بالنون الخفيفة ، ثم إبدالها ألفاً . ثم حذفها تخفيفاً ، كما أنشد أبو زيد :

من أى يومى من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر

بفتح الراء من « لم يقدر » . ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب . وهذا مبنى على جواز تأكيد المجزوم بـ « لم » وهو قليل جداً كقوله :

يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معمما

يحييكم الله ﴿ [آل عمران: ٣١] وغير ذلك. وبالجملة فقد ملاً ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن ، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [الحديد : ٢١] اللهم صل وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان . وما أحسن قول حسان :

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله فذو العرش محمود وهذا محمد

﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ أى إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج . وفى هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين . ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيذاً فقال مكرراً له بلفظ : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ أى إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثانى عين الأول ، سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المتكر إذا أعيد ، فإنه يراد بالثانى فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول فى الغالب . ولهذا قال النبى ﷺ فى معنى هذه الآية : « لن يغلب عسر يسرين » . قال الواحدى : وهذا قول النبى ﷺ والصحابه والمفسرين ، على أن العسر واحد ، واليسر اثنان . قال الزجاج : ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى : إن مع العسر يسرين . قيل : والتذكير فى اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو فى مصحف ابن مسعود غير مكرر . قرأ الجمهور بسكون السين فى العسر واليسر فى الموضعين . وقرأ يحيى بن وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمها فى الجميع .

﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أى إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ ، أو من الغزو فانصب ، أى فاجتهد فى الدعاء ، واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب فى العبادة . والنصب : التعب . يقال : نصب ينصب نصباً ، أى تعب . قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبى : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك فى الدعاء ، وارغب إليه فى المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد . قال الشعبى : إذا فرغت من التشهد ، فادعوا لدينك وآخرتك . وكذا قال الزهرى . وقال الكلبى أيضاً : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب ، أى استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وقال الحسن وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب لعبادة ربك . وقال مجاهد أيضاً : إذا فرغت من دنياك فانصب فى صلاتك ، ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الزجاج : أى اجعل رغبتك إلى الله وحده . قال عطاء : يريد أنه يضرع إليه راهباً من النار ، راغباً فى الجنة . والمعنى : أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائنًا من كان ، فلا يطلب حاجاته إلا منه ، ولا يعول فى جميع أموره إلا عليه قرأ الجمهور : ﴿ فارغب ﴾ وقرأ زيد بن على وابن أبى عتبة : « فرغب » بتشديد الغين ، أى فرغب الناس إلى الله ، وشوقهم إلى ما عنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ، قال : شرح الله صدره للإسلام . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « أتاني جبريل فقال : إن ربك يقول : تدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معي » . وإسناد ابن جرير هكذا : حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ، وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به . وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ الآية ، قال : لا يذكر الله إلا ذكر معه .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس ، قال : كان النبي ﷺ جالساً وحياله جحر ، فقال : « لو دخل العسر هذا الجحر ، لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » . فأنزل الله : ﴿ فَإِنْ (١) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ «إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا» (٢) . ولفظ الطبراني : وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ . وأخرج ابن النجار عنه مرفوعاً نحوه . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور أيضاً مرفوعاً نحوه ، قال السيوطي : وسنده ضعيف . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في الصبر ، وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً : « لو كان العسر في جحر ، لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين ، إن الله يقول : ﴿ فَإِنْ (٣) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ » (٤) قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح . قال فيه أبو حاتم الرازي : في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل . عن عبد الله بن مسعود . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً فرحاً مسروراً ، وهو يضحك ويقول : « لن يغلب عسر يسرين ، ﴿ فَإِنْ (٥) مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ » (٦) . وهذا مرسل . وروى نحوه مرفوعاً مرسلًا عن قتادة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن

(١) في المخطوطة : « إِنْ » .

(٢) قال الهيثمي في المجمع ١٤٢ / ٧ : « رواه الطبراني في الأوسط والبزار بنحوه ، وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف » والحاكم ٢ / ٢٥٥ وقال : « هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح » وقال الذهبي : « انفرد به حميد بن حماد عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ » والبيهقي في الشعب (١٠٠١٢) ط . دار الكتب العلمية .

(٣) في المطبوعة : « إِنْ » . (٤) البيهقي في الشعب (١٠٠١١) ط . دار الكتب العلمية .

(٥) في المطبوعة : « إِنْ » . (٦) ابن جرير ٣٠ / ١٥١ وسكت عنه الحاكم ٢ / ٥٢٨ وقال الذهبي : « مرسل » .

ابن عباس فى قوله: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ الآية ، قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب فى الدعاء ، واسأل الله وارغب إليه . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال الله لرسوله: «إذا فرغت من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك» . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن ابن مسعود : ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ إلى الدعاء . ﴿وإلى ربك فارغب﴾ فى المسألة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه : ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل .

تفسير سورة التين

هي ثمان آيات . وهي مكية في قول الجمهور . وروى القرطبي عن ابن عباس أنها مدنية . ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : أنزلت سورة التين بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله . وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن ، وغيرهم عن البراء بن عازب ، قال : كان النبي ﷺ في سفر ، فصلى العشاء ، فقرأ في إحدى الركعتين : ﴿ التين والزيتون ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً ولا قراءة منه ^(١) . وأخرج الخطيب عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ المغرب ، فقرأ : ﴿ التين والزيتون ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وعبد بن حميد في مسنده ، والطبراني عن عبد الله بن يزيد ؛ أن النبي ﷺ قرأ في المغرب : ﴿ والتين والزيتون ﴾ ^(٢) . وأخرج ابن قانع وابن السكن ، والشيرازي في الألقاب عن زرعة بن خليفة قال : أتيت النبي ﷺ من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة ، قرأ بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ و﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . [القدر : ١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ (٨) ﴾ .

قال أكثر المفسرين : هو التين الذي يأكله الناس ، والزيتون الذي يعصرون منه الزيت . وإنما أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلائلها على من هياها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة . قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء . وذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات . وأما الزيتون فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية . وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام . والزيتون : المسجد الأقصى . وقال ابن زيد : التين : مسجد دمشق . والزيتون : جبل الذي عليه بيت المقدس . وقال قتادة : التين : الجبل الذي عليه دمشق . والزيتون : الجبل الذي عليه بيت المقدس . وقال عكرمة وكعب الأحبار : التين : دمشق . والزيتون :

(١) البخاري في التفسير (٤٩٥٢) ومسلم في الصلاة (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود في الصلاة (١٢٢١) والترمذي في الصلاة (٣١٠) والنسائي في التفسير (٧٠٢) وابن ماجه في الصلاة (٨٣٤ ، ٨٣٥) .
(٢) ابن أبي شيبة ٣٥٨ / ١ .

بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل . وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية . قال الفراء : سمعت رجلاً يقول : التين : جبال حلوان إلى همدان . والزيتون : جبال الشام . قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع . وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف . والزيتون : مسجد إيلياء . وقيل : إنه على حذف مضاف ، أي ومنابت التين والزيتون . قال النحاس : لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه .

﴿ وطور سينين ﴾ : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ، اسمه الطور . ومعنى ﴿ سينين ﴾ : المبارك الحسن بلغة الحبشة ، قاله قتادة . وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية ، وقال مجاهد والكلبي : ﴿ سينين ﴾ : كل جبل فيه شجر شمر ، فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط . قال الأخفش : طور : جبل ، وسينين : شجر ، واحدته سينة . قال أبو علي الفارسي : سينين : فعليل ، فكررت اللام التي هي نون فيه ، ولم ينصرف سين ، كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة . وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام ، وهي الأرض المقدسة كما في قوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ [الإسراء : ١] . وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه . قرأ الجمهور : ﴿ سينين ﴾ بكسر السين . وقرأ ابن إسحاق وعمر بن ميمون وأبو رجاء بفتحها ، وهي لغة بكر وقيم . وقرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والحسن وطلحة : « سيناء » بالكسر والمد . ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني : مكة . سماه أميناً لأنه آمن ، كما قال : ﴿ أننا جعلنا محرماً آمناً ﴾ [العنكبوت : ٦٧] . يقال : أمن الرجل أمانة فهو أمين . قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن . ويجوز أن يكون فعلاً بمعنى مفعول من أمنه ؛ لأنه مأمون الغوائل .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ هذا جواب القسم ، أي خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل . قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده . ومعنى التقويم : التعديل . يقال : قوته فاستقام . قال القرطبي : هو اعتداله واستواء شأنه . كذا قال عامة المفسرين . قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً ، عالماً ، قادراً ، مريداً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، مدبراً ، حكيماً . وهذه صفات الرب سبحانه . وعليها حمل بعض العلماء قوله ﷺ : « إن الله خلق آدم على صورته » ^(١) يعني على صفاته التي

(١) مسلم في البر والصلة (٢٦١٢ / ١١٥) .

تقدم ذكرها . قلت : وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] وقوله : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ [طه : ١١٠] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع ، فلينظر فى كتاب : « العبر والاعتبار » للجاحظ . وفى الكتاب الذى عقده النيسابورى على قوله : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : ٢١] وهو فى مجلدين ضخمين .

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أى رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم والضعف ، بعد الشباب والقوة ، حتى يصير كالصبي ، فيخرف وينقص عقله . كذا قال جماعة من المفسرين . قال الواحدى : والسافلون : هم الضعفاء ، والزمناء ، والأطفال . والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً . وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى : ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات ، بعضها أسفل من بعض . فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة . ولا ينافى هذا قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : ٤٥] فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين فى ذلك الدرك الأسفل . وقوله : ﴿ أسفل سافلين ﴾ إما حال من المفعول ، أى رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف ، أى مكانا أسفل سافلين . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، أى لكن الذين آمنوا ... إلخ . ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر ، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى . وعلى القول الثانى يكون الاستثناء متصلاً من ضمير ﴿ رددناه ﴾ ، فإنه فى معنى الجمع ، أى رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أى غير مقطوع ، أى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثانى مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد . وقال : ﴿ أسفل سافلين ﴾ على الجمع ؛ لأن الإنسان فى معنى الجمع . ولو قال : أسفل سافل لجاز ؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد . وقيل : معنى ﴿ رددناه أسفل سافلين ﴾ : رددناه إلى الضلال ، كما قال : ﴿ إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [العصر : ٢ ، ٣] أى إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ الخطاب للإنسان الكافر . والاستفهام للتقريع والتوبيخ وإلزام الحجة ، أى إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك فى أحسن تقويم ، وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ وقيل : الخطاب للنبي ﷺ ، أى أى شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة ، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين . قال الفراء والأخفش : المعنى : فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين . كأنه قال : من يقدر على ذلك ؟ أى على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر . واختار هذا ابن جرير . والدين : الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دنا تقيماً كما كانت أوائلنا دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر :

ولما صرح الشر فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أى ليس الذى فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعا وتدبيراً ؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء . وفيه وعيد شديد للكفار . ومعنى ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ : أتقن الحاكمين فى كل ما يخلق . وقيل : أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً . والاستفهام إذا دخل على النفى صار الكلام إيجاباً كما تقدم تفسير قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : ١] .

وقد أخرج الخطيب وابن عساكر ، قال السيوطى : بسند فيه مجهول ، عن الزهرى عن أنس قال : لما أنزلت سورة ﴿ التين والزيتون ﴾ على رسول الله ﷺ ، فرح فرحاً شديداً ، حتى تبين لنا شدة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها ، فقال : التين : بلاد الشام . والزيتون : بلاد فلسطين . وطور سيناء : الذى كلم الله عليه موسى . ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ : مكة ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ : محمداً ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ : عبدة اللات والعزى . ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ﴿ فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ إذ بعثك فيهم نبياً ، وجمعك على التقوى يا محمد . ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدم من كون فى إسناده ذلك المجهول .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : مسجد نوح الذى بنى على الجودى ﴿ والزيتون ﴾ قال : بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ قال : مسجد الطور . ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال : مكة ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : يرد إلى أرذل العمر ، كبر حتى ذهب عقله . هم نفر كانوا على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل رسول الله ﷺ حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذى عملوا قبل أن تذهب عقولهم . ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ يقول : بحكم الله . وأخرج ابن مردويه عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عنه أيضاً : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : الفاكهة التى يأكلها الناس ﴿ وطور سينين ﴾ قال : الطور : الجبل . السينين : المبارك . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضاً قال : ﴿ سينين ﴾ : هو الحسن . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ قال : فى أعدل خلق ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : إلى أرذل العمر ﴿ إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴿ يعنى : غير منقوص . يقول : فإذا بلغ المؤمن أردل العمر ، وكان يعمل فى شبابه عملاً صالحاً ، كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل فى صحته وشبابه ، ولم يضره ما عمل فى كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التى يعمل بعد ما يبلغ أردل العمر .

وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن ، لم يرد إلى أردل العمر ، وذلك قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً . وأخرج ابن أبى حاتم عنه : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : إلى الكبر وضعفه . فإذا كبر وضعف عن العمل ، كتب له مثل أجر ما كان يعمل فى شبابه . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مرض العبد أو سافر ، كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » (١) . وأخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً : « من قرأ : ﴿ التين والزيتون ﴾ فقرأ : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » (٢) . وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً : « إذا قرأت : ﴿ التين والزيتون ﴾ فقرأت : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فقل : بلى . » . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ؛ أنه كان إذا قرأ : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ قال : سبحانك اللهم بلى . ا . ه .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣٤٧) .

(١) أحمد ٤ / ٤١٠ والبخارى فى الجهاد (٢٩٩٦) .

تفسير سورة اقرأ

ويقال : سورة العلق . وهى تسع عشرة آية . وقيل : عشرون آية . وهى مكية بلا خلاف . وهى أول ما نزل من القرآن . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ . وأخرج ابن أبى شيبه ، وابن الضريس وابن الأنبارى والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية عن أبى موسى الأشعرى قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أول سورة أنزلت على محمد^(١) . وأخرج ابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى وصححه عن عائشة قالت : إن أول ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾^(٢) ويدل على أن هذه السورة أول ما نزل ، الحديث الطويل الثابت فى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عائشة ، وفيه : « فجاءه الحق وهو فى غار حراء فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ . . . » الحديث^(٣) . وفى الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ (١) خلق الإنسان من علق (٢) اقرأ وربك الأكرم (٣) الذى علم بالقلم (٤) علم الإنسان ما لم يعلم (٥) كلاً إن الإنسان ليطغى (٦) أن رآه استغنى (٧) إن إلى ربك الرجعى (٨) أرأيت الذى ينهى (٩) عبداً إذا صلى (١٠) أرأيت إن كان على الهدى (١١) أو أمر بالتقوى (١٢) أرأيت إن كذب وتولى (١٣) ألم يعلم بأن الله يرى (١٤) كلاً لئن لم ينته نسفعاً بالناسية (١٥) ناصية كاذبة خاطئة (١٦) فلیدع ناديه (١٧) سندع الزبانية (١٨) كلاً لا تطعه واسجد واقترب (١٩) ﴿

قرأ الجمهور : ﴿ اقرأ ﴾ بسكون الهمزة أمراً من القراءة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بفتح الراء ، وكأنه قلب الهمزة ألفاً ، ثم حذفها للأمر . والأمر بالقراءة يقتضى مقروءاً فالتقدير : اقرأ ما يوحى إليك ، أو ما نزل عليك ، أو ما أمرت بقراءته وقوله : ﴿ باسم ربك ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أى اقرأ ملتبساً باسم ربك ، أو مبتدئاً باسم ربك ، أو مفتتحاً . ويجوز أن تكون الباء زائدة ، والتقدير : اقرأ اسم ربك ، كقول الشاعر :

سود المحاجر لا يقرآن بالسور

(١) ابن أبى شيبه (١٠٢٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٢/٧ : « رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » وأبو نعيم فى الحلية ٢٥٦/١ .

(٢) ابن جرير ١٦١/٣٠ وصححه الحاكم ٥٢٩/٢ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى ٦/٩ .

(٣) البخارى فى بدء الوحي (٣) ومسلم فى الإيمان (٢٥٢/١٦٠) .

قاله أبو عبيدة . وقال أيضا : الاسم صلة ، أى اذكر ربك وقيل : الباء بمعنى على ، أى اقرأ على اسم ربك ، يقال : افعل كذا باسم الله ، وعلى اسم الله . قاله الأخفش . وقيل : الباء للاستعانة ، أى مستعينًا باسم ربك . ووصف الرب بقوله : ﴿ الذى خلق ﴾ لتذكير النعمة ؛ لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه يترتب سائر النعم . قال الكلبي : يعنى الخلائق . ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يعنى : بنى آدم . والعلقة : الدم الجامد . وإذا جرى فهو المسفوح . وقال : ﴿ من علق ﴾ بجمع علق ؛ لأن المراد بالإنسان الجنس . والمعنى : خلق جنس الإنسان ؛ من جنس العلق . وإذا كان المراد بقوله : ﴿ الذى خلق ﴾ كل المخلوقات ، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفًا له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع . وإذا كان المراد بالذى خلق : الذى خلق الإنسان ، فيكون الثانى تفسيرًا للأول . والنكتة ما فى الإيهام ثم التفسير ، من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولا ، ثم فسر ثانيًا . ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى افعل ما أمرت به من القراءة وجملة : ﴿ وربك الأكرم ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله : « ما أنا بقارئ » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أمى . فقيل له : اقرأ وربك الذى أمرك بالقراءة هو الأكرم . قال الكلبي : يعنى الحليم عن جهل العباد ، فلم يعجل بعقوبتهم . وقيل : إنه أمره بالقراءة أولا لنفسه ، ثم أمره بالقراءة ثانيًا للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد . والأول أولى .

﴿ الذى علم بالقلم ﴾ أى علم الإنسان الخط بالقلم . فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب . قال الزجاج : علم الإنسان الكتابة بالقلم . قال قتادة : القلم نعمة من الله عز وجل عظيمة ، لولا ذلك لم يقيم دين ، ولم يصلح عيش . فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم . ونبه على فضل علم الكتاب لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو . وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضببت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة ، إلا بالكتابة . ولولا هى ما استقامت أمور الدين ، ولا أمور الدنيا . وسمى قلمًا ؛ لأنه يقلم ، أى يقطع . ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ هذه الجملة بدل احتمال من التى قبلها ، أى علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها . قيل : المراد بالإنسان هنا : آدم كما فى قوله : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ [البقرة: ٣١] . وقيل : الإنسان هنا : رسول الله ﷺ . والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى : أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم ، فقد علمه ما لم يعلم .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه . وإن لم يتقدم له ذكر . ومعنى ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ : أنه يجاوز الحد ، ويستكبر على ربه . وقيل : المراد بالإنسان هنا : أبو جهل . وهو المراد بهذا وما بعده . . . إلى آخر السورة . وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة فى أول هذه السورة . وقيل : ﴿ كلا ﴾ هنا بمعنى حقًا . قاله الجرجاني . وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون «كلا» ردا له . وقوله :

﴿ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ علة ليطفى ، أى ليطفى أن رأى نفسه مستغنياً ، أو لأن رأى نفسه مستغنياً . والرؤية هنا بمعنى العلم . ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين فى فعلها لشيء واحد ؛ لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه . قال الفراء : لم يقل رأى نفسه ، كما قيل : قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التى تريد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان . فلا يقتصر فيه على مفعول واحد والعرب تطرح النفس من هذا الجنس ، تقول : رأيتنى وحسبتنى ، ومتى تراك خارجاً ، ومتى تظنك خارجاً . قيل : والمراد هنا : أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال . قرأ الجمهور : ﴿ أَنْ رَأَاهُ ﴾ بمد الهمزة . وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها . قال مقاتل : كان أبو جهل إذا أصاب مالا ، زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه . وكذا قال الكلبي .

ثم هدد سبحانه وخوف ، فقال : ﴿ إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الرَّجْعَى ﴾ ، أى المرجع . والرجعى والمرجع والرجوع مصادر . يقال : رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى . وتقدم الجار والمجرور للقصر ، أى الرجعى إليه سبحانه ، لا إلى غيره . ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴾ عبداً إذا صلى ﴿ قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الَّذِي يَنْهَى : أَبُو جَهْل . والمراد بالعبد : محمد ﷺ . وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية . ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ يعنى : العبد المنهى إذا صلى ، وهو محمد ﷺ . ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ أى بالإخلاص والتوحيد ، والعمل الصالح الذى تتقى به النار . ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ يعنى أبا جهل . كذب بما جاء به رسول الله ﷺ ، وتولى عن الإيمان .

وقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ فى الثلاثة المواضع بمعنى أخبرنى ؛ لأن الرؤية كما كانت سبباً للإخبار عن المرئى ، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها . والخطاب لكل من يصلح له . وقد ذكر هنا : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها . بجملة استفهامية ، فتكون فى موضع المفعول الثانى لها . ومفعولها الأول محذوف ، وهو ضمير يعود على ﴿ الَّذِي يَنْهَى ﴾ الواقع مفعولاً أول لـ ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الأولى ، ومفعول ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الأولى الثانى محذوف . وهو جملة استفهامية كالجمله الواقعة بعد ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الثانية . وأما ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثانى ، حذف الأول لدلالة مفعول ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الثالثة عليه ، فقد حذف الثانى من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية . وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنارع ؛ لأنه يستدعى إضماراً ، والجمل لا تضر ، إنما تضر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة . وأما جواب الشرط المذكور مع ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ فى الموضعين الآخرين فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ، وإنما حذف لدلالة ذكره فى جواب الشرط الثانى . ومعنى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أى يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجتراً على ما اجتراً عليه؟

والاستفهام للتقريع والتوبيخ . وقيل : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الأولى مفعولها الأول الموصول ، ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالذكور . و﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ فى الموضعين تكرير للتأكيد . وقيل : كل واحدة من ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بدل من الأولى . و ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ الخبر .

قوله : ﴿ كَلَّا ﴾ ردع للناهى . واللام فى قوله : ﴿ لئن لم ينته ﴾ هى الموطئة للقسم ، أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ السفع : الجذب الشديد . والمعنى : لناخذن بناصيته ، ولنجرنه إلى النار . وهذا قوله : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : ٤١] ويقال : سفعت الشيء : إذا قبضته وجذبه . . ويقال : سفع بناصية فرسه . قال الراغب : السفع : الأخذ بسفعة الفرس ، أى بسواد ناصيته . وباعتبار السواد . وقيل : به سفعة غضب . اعتباراً بما يعلو من اللون الدخانى وجه من اشتد به الغضب . . وقيل للصقر : أسفع . لما فيه من لمع السواد . وامرأة سفعاء اللون . انتهى . وقيل : هو مأخوذ من سفع النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، ومنه قول الشاعر :

أثافى سفعاً فى معرس مرجل

وقوله : ﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية . وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله : ﴿ كاذبة خاطئة ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة ، إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز إبدال النكرة من المعرفة بلا شرط ، وأنشدوا :

فلا وأبيك خير منك إني ليؤذنى التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجر : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ والوجه ما ذكرنا . وقرأ الكسائى فى رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ ، أى هى ناصية . وقرأ أبو حيوه وابن أبى عبله وزيد بن على بنصبها على الذم . قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطئ ، فقال : ناصية كاذبة خاطئة . تأويلها : صاحبها كاذب خاطئ . ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى أهل ناديه . والنادى : المجلس الذى يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة . والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر :

واستب بعدك يا كليب المجلس

أى أهله . قيل : إنا أبا جهل قال لرسول الله ﷺ : أتهددنى وأنا أكثر الوادى نادياً ؟ فنزلت : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ أى الملائكة الغلاظ الشداد كذا قال الزجاج . قال الكسائى والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم : زابن . وقال أبو عبيدة : زبنة . وقيل : زبانى . وقيل : هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعبايد وأبايل . وقال قتادة : هم الشرط فى كلام العرب . وأصل الزبن : الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمم
والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مطاعيم فى القصوى مطاعين فى الوغى زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور: ﴿سندع﴾ بالنون ، ولم ترسم الواو كما فى قوله : ﴿يوم يدع الداع﴾ [القمر : ٦] . وقرأ ابن أبى عبة: «سيدعى» على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة . ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿كلا لا تطعه﴾ أى لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿واسجد﴾ أى صل لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه ﴿واقرب﴾ أى تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة . وقيل : المعنى : إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء . وقال زيد بن أسلم : واسجد أنت يا محمد ، واقرب أنت يا أبا جهل من النار . والأولى أولى . والسجود هذا ، الظاهر أن المراد به : الصلاة . وقيل : سجود التلاوة . ويدل على هذا ما ثبت عنه ﷺ من السجود عند تلاوة هذه الآية كما سيأتى إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وابن جرير ، وأبو نعيم فى الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : أتى جبريل محمداً ﷺ فقال : يا محمد ، اقرأ . فقال : «وما أقرأ ؟» فضمه ثم قال : يا محمد ، اقرأ قال : «وما أقرأ ؟» قال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾ حتى بلغ ﴿ما لم يعلم﴾ (١) . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة : فجاءه الملك فقال : اقرأ فقال : «قلت : ما أنا بقارئ» قال : «فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى» فقال : اقرأ . فقلت : «ما أنا بقارئ» ، فغطنى الثانية ، حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : «ما أنا بقارئ» ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، فقال : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم﴾ الآية (٢) . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن عنقه . فبلغ النبى ﷺ فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً» (٣) . وأخرج ابن أبى شيبه ، وأحمد والترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : كان النبى ﷺ يصلى ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً منى . فأنزل الله : ﴿فليدع ناديه . سندع الزبانية﴾ فجاء النبى ﷺ يصلى ، فقيل : ما يمنعك؟ فقال : قد اسود ما بينى وبينه (٤) . قال ابن عباس :

(١) ابن أبى شيبه (١٨٤٠٢) وابن جرير ١٦٢/٣٠ .

(٢) البخارى فى بدء الوحي (٣) ومسلم فى الإيمان (١٦٠ / ٢٥٢) .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٥٨) وابن جرير ١٦٣ / ٣٠ .

(٤) ابن أبى شيبه (١٨٤١١) وأحمد ١ / ٢٥٦ والترمذى فى التفسير (٣٣٤٩) وقال : « هذا حديث حسن

غريب صحيح » وابن جرير ٣٠ / ١٣٦ وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٤٢ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ،

وفيه موسى بن سهل وهو ضعيف » .

والله لو تحرك ، لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه .

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : واللات والعزى ، لئن رأيته يصلى كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه فى التراب . فأتى رسول الله ﷺ ، وهو يصلى ليلاً على رقبته . قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى يده . فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقاً من نار وهو لا أجنحه . فقال رسول الله ﷺ : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِنْفٍ ﴾ . أن رآه استغنى ﴿ إلى آخر السورة . يعنى أبا جهل ^(١) . ﴾ فليدع ناديه ﴾ يعنى : قومه . ﴾ سندع الزبانية ﴾ يعنى : الملائكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله ﷺ بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عز وجل . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ قال : لنأخذن . وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال : ناصره . وقد قدمنا أن النبى ﷺ كان يسجد فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وفى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .

(١) أحمد ٢ / ٣٧٠ / مسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٧ / ٣٨) والنسائي فى التفسير (٧٠٣) وابن جرير . ٣٠ / ١٦٥ .

تفسير سورة القدر

هى خمس آيات . وهى مكية عند أكثر المفسرين : كذا قال الماوردى . وقال الثعلبى : هى مدنية فى قول أكثر المفسرين . وذكر الواقدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة ؛ أنها نزلت بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ .

الضمير فى : ﴿ أنزلناه ﴾ للقرآن ، وإن لم يتقدم له ذكر . أنزل جملة واحدة فى ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبى ﷺ نجوماً على حسب الحاجة . وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله ﷺ ثلاث وعشرون سنة . وفى آية أخرى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ [الدخان : ٣] وهى ليلة القدر ، وفى آية أخرى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] وليلة القدر فى شهر رمضان . قال مجاهد : ﴿ فى ليلة القدر ﴾ ليلة الحكم . ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ : ليلة الحكم . قيل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة . وقيل : إنها سميت بذلك ؛ لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لفلان قدر ، أى شرف ومنزلة ، كذا قال الزهرى . وقيل : سميت بذلك ؛ لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً . وقال الخليل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : ٧] أى ضيق . وقد اختلف فى تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً قد ذكرناها بأدلتها ، وبيننا الراجح منها فى شرحنا للممتقى .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق ، لا يدريها إلا الله سبحانه . قال سفيان : كل مافى القرآن من قوله : ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أدراه . وكل ما فيه ﴿ وما يدريك ﴾ [عبس : ٣] فلم يدركه وكذا قال الفراء . والمعنى : أى شئ تجعله دارياً بها ؟ وقد قدمنا الكلام فى إعراب هذه الجملة فى قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ٣] ثم قال : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ ، قال كثير من المفسرين : أى العمل فيها خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . واختار هذا الفراء والزجاج ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع . فلما جعل الله الخير الكثير فى ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما فى هذه الليلة . وقيل : أراد بقوله : ألف شهر : جميع الدهر ؛ لأن العرب تذكر الألف فى كثير من

الأشياء على طريق المبالغة. وقيل : وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابدا حتى يعبد الله ألف شهر . وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيرا من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها . وقيل : إن النبي ﷺ رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر . فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعلها خيرا من ألف شهر لسائر الأمم . وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

وجملة : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها ، موضحة للعلة التي صارت بها خيرا من ألف شهر .

وقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ يتعلق بـ ﴿ تنزل ﴾ أو بمحذوف هو حال ، أى ملتبسين بإذن ربهم . والإذن : الأمر . ومعنى ﴿ تنزل ﴾ تهبط من السموات إلى الأرض . والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين ، أى : تنزل الملائكة ومعهم جبريل . ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه . وقيل : الروح : صنف من الملائكة هم أشرافهم . وقيل : هم جند من جنود الله من غير الملائكة . وقيل : الروح : الرحمة . وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ [النبا : ٣٨] . قرأ الجمهور : ﴿ تنزل ﴾ بفتح التاء . وقرأ طلحة بن مصرف ، وابن السميع بضمها على البناء للمفعول . وقوله : ﴿ من كل أمر ﴾ أى من أجل كل أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة . وقيل : إن ﴿ من ﴾ بمعنى اللام ، أى لكل أمر . وقيل : هى بمعنى الباء ، أى بكل أمر . قرأ الجمهور : ﴿ أمر ﴾ وهو واحد الأمور . وقرأ على وابن عباس وعكرمة والكلبي ، « امرئ » مذكر امرأة ، أى من أجل كل إنسان . وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان فمن على هذا بمعنى على ، والأول أولى .

وقد تم الكلام عند قوله : ﴿ من كل أمر ﴾ ثم ابتداء فقال : ﴿ سلام هى ﴾ أى ما هى إلا سلامة ، وخير كلها لا شر فيها . وقيل : هى ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن أو مؤمنة . قال مجاهد : هى ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا ولا أذى . وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، يرون على كل مؤمن ، ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن . وقيل : يعنى سلام الملائكة بعضهم على بعض . قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أى حتى وقت طلوعه . قرأ الجمهور : ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام . وقرأ الكسائي وابن محيصن بكسرها . فقيل : هما لغتان فى المصدر ، والفتح أكثر نحو : المخرج والمقتل . وقيل : بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر . وقيل العكس . و « حتى » متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل ، أى لمكثهم فى محل تنزلهم بالأى ينقطع تنزلهم فوجا بعد فوج إلى طلوع الفجر . وقيل : متعلقة بـ ﴿ سلام ﴾ بناء على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قال : أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم . وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر . وأخرج الترمذي وضعفه وابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ أن النبي ﷺ أرى بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك ^(١) . فنزلت ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] يا محمد . يعنى : نهرا في الجنة . ونزلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية ^(٢) .

قال القاسم : فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص يوما . والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده . قال الترمذي : إن يوسف هذا مجهول ، يعنى يوسف بن سعد الذى رواه عن الحسن بن علي . قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور . وفى رواية عن ابن معين قال : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى ابن مازن . قال ابن كثير : ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً . قال المزى : هو حديث منكر . وقول القاسم بن الفضل : إنه حسب مدة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد ولا تنقص ، ليس بصحيح ، فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية ، وهى سنة أربعين ، إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهى سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنان وتسعون سنة .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس نحو ما روى عن الحسن بن علي وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلًا نحوه . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سَلَامٌ ﴾ قال : فى تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن ، وتفتح فيها أبواب السماء كلها ، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب . فلذا قال : ﴿ سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ . قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر . والأحاديث فى فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث فى تعيينها ، والاختلاف فى ذلك .

(١) ابن جرير ١٦٦/٣٠ وصححه الحاكم ٥٣٠/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقي فى الدلائل ١٣١/٧ .

(٢) الترمذي فى التفسير (٣٣٥٠) وقال : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل » وابن جرير ١٦٧/٣٠ والطبراني (٢٥٧٤) وصححه الحاكم ١٧٠/٣ ، ١٧١ ووافقه الذهبي ، والبيهقي فى الدلائل ٥٠٩/٦ ، ٥١٠ .

تفسير سورة لم يكن

هى ثمان آيات . وهى مدنية فى قول الجمهور . وقيل : مكية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ لم يكن ﴾ بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة « لم يكن » بمكة . وأخرج أبو نعيم فى المعرفة عن إسماعيل بن أبى حكيم المزنى ، حدثنى فضل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يستمع قراءة : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فيقول : أبشر عبدى ، وعزتى وجلالى لأمكن لك فى الجنة حتى ترضى » قال ابن كثير : حديث غريب جدا . وأخرجه أبو موسى المدينى عن مطر المزنى ، أو المدينى بنحوه (١) .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى (٢) . وأخرج أحمد وابن قانع فى معجم الصحابة والطبرانى وابن مردويه عن أبى حية البدرى قال : لما نزلت : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ . . . إلى آخرها قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أيبا . فقال النبى ﷺ لأبى : « إن جبريل أمرنى أن أقرأك هذه السورة » فقال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . فبكى (٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١)
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) .

المراد بـ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ : اليهود والنصارى . والمراد بـ ﴿ المشركين ﴾ : مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان . و ﴿ منفكين ﴾ خبر كان . يقال فككت الشيء فانفك ،

(١) ابن كثير ٣٤٤/٧ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٩٥٩) . ومسلم فى فضائل الصحابة (٢١/٧٩٩ ، ١٢٢) . والترمذى فى المناقب (٣٧٩٢) .

(٣) أحمد ٤٨٩/٣ والطبرانى ٢٢/٣٢٧ .

أى انفصل . والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا متتهين عنه . ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ وقيل : الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية ، أى لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة . وقيل : منفكين : زائلين ، أى لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة . يقال : ما انفك فلان قائما ، أى ما زال قائما . وأصل الفك : الفتح . ومنه فك الخلل . وقيل : منفكين : بارحين . أى لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : المعنى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد ﷺ حتى بعث . فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : ٨٩] وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ والمشركون ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول فى محمد ﷺ حتى بعث ، فإنهم كانوا يسمونه «الأميين» فلما بعث ، عادوه ، وأسأوا القول فيه . وقيل : منفكين : هالكين . من قولهم : انفك صلبه ، أى انفصل . فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم . وقيل : إن المشركون هم أهل الكتاب ، فيكون وصفا لهم ؛ لأنهم قالوا : المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله .

قال الواحدى : ومعنى الآية : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن يتبها عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان . وهذا بيان عن النعمة والإنقاذ به من الجهل والضلالة . والآية فيمن آمن من الفريقين . قال : وهذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما وتفسيرا ، وقد تخطب فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا فى تفسيرها طرقا لا تفضى بهم إلى الصواب . والوجه ما أخبرتك ، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال . قال : ويدل على أن البينة محمد ﷺ أنه فسرهما وأبدل منها ، فقال : ﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ﴾ يعنى ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن . ويدل على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه . وقيل : إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون : أنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبى الموعود به . فلما بعث ، تفرقوا كما حكا الله عنهم فى هذه السورة . والبينة على ما قاله الجمهور هو محمد ﷺ لأنه فى نفسه بينة وحجة . ولذلك سماه سراجا منيرا . وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله : ﴿ رسول من الله ﴾ فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة . وقال قتادة وابن زيد : البينة هى القرآن كقوله : ﴿ أو لم تأتيهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ [طه : ١٣٣] وقال أبو مسلم : المراد بالبينة : مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتيهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفا مطهرة . والأولى أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ﴾ وقرأ ابن مسعود : «لم يكن المشركون وأهل الكتاب» . قال ابن العربى : وهى قراءة فى معرض البيان ، لا فى معرض التلاوة . وقرأ الأعمش ، والنخعى : « والمشركون » بالرفع عطفًا على الموصول . وقرأ أبى : «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون» . قرأ الجمهور : ﴿ رسول من

اللَّهُ ﴿رفع﴾ رسول ﴿على أنه بدل كل من كل مبالغة ، أو بدل اشتغال . قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة . وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمّر ، أى هى رسول ، أو هو رسول . وقرأ أبى واين مسعود : « رسولا » بالنصب على القطع وقوله : ﴿من الله﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول ، أى كائن من الله ، ويجوز تعلقه بنفس رسول . وجوز أبو البقاء أن يكون حالا من « صحف » . والتقدير : يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله . وقوله : ﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول ، أو: حالا من متعلق الجار والمجرور قبله . ومعنى ﴿ يتلو ﴾ : يقرأ . يقال : تلا يتلو تلاوة . والصحف : جمع صحيفة . وهى ظرف المكتوب . ومعنى ﴿ مطهرة ﴾ أنها منزهة من الزور والضلال . قال قتادة من الباطل . وقيل : مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد . والمعنى : أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، لأنه كان ﷺ يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب كما تقدم .

وقوله : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ صفة لـ ﴿ صحفا ﴾ ، أو حال من ضميرها . والمراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة ، من قول العرب : قام الشيء : إذا استوى وصح . وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ [المجادلة : ٢١] أى حكم . وقوله ﷺ فى قصة العفيف : « لأقضين بينكما بكتاب الله » . ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم فى كتاب الله . فالمعنى : لأقضين بينكما بحكم الله . وبهذا يندفع ما قيل إن الصحف هى الكتب ، فكيف قال : ﴿ صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة ﴾ ؟ وقال الحسن : يعنى بالصحف المطهرة التى فى السماء ، يعنى فى اللوح المحفوظ كما فى قوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] .

﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتفريقهم وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمداً . فلما بعث ، تفرقوا فى أمره ، واختلفوا ، فأمن به بعضهم وكفر آخرون . وخص أهل الكتاب وإن كان غيرهم مثلهم فى التفرق بعد مجئ البينة ، لأنهم كانوا أهل علم . فإذا تفرقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف . والاستثناء فى قوله : ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ مفرغ من أعم الأوقات ، أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهى بعثه رسول الله ﷺ بالشرعية الغراء والمحجة البيضاء . وقيل : البينة : البيان الذى فى كتبهم أنه نبي مرسل كقوله : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ [آل عمران : ١٩] قال القرطبي : قال العلماء : من أول السورة قوله : ﴿ كتب قيمة ﴾ حكما فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين . وقوله : ﴿ وما تفرق . . ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وجملة : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ فى محل نصب على الحال مفيدة لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة ، أى والحال أنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحده حال كونهم ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أى جاعلين دينهم خالصا له سبحانه ، أو جاعلين أنفسهم خالصة له فى الدين . وقيل : إن اللام فى : ﴿ ليعبدوا ﴾ بمعنى «أن» أى ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : ٢٦] أى أن يبين و ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ [الصف : ٨] أى أن يطفئوا . قرأ الجمهور : ﴿ مخلصين ﴾ بكسر اللام . وقرأ الحسن بفتحها . وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية فى العبادات ، لأن الإخلاص من عمل القلب . وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير ﴿ مخلصين ﴾ ، فتكون من باب التداخل . ويجوز أن تكون من فاعل « يعبدوا » . والمعنى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام . قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام ، أى يميل إليه . ﴿ وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى يفعلوا الصلوات فى أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها . وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين . قيل : إن أريد بالصلاة والزكاة ما فى شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر . وإن أريد ما فى شريعتنا ، فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين : أمرهم باتباع شريعتنا . وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها . ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى وذلك المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقام الصلاة والزكاة ﴿ دين القيمة ﴾ أى دين الملة المستقيمة . قال الزجاج : أى ذلك دين الملة المستقيمة . فالقيمة صفة لموصوف محذوف . قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم : القائم . قال الفراء : أضاف الدين إلى القيمة . وهو نعت ، لاختلاف اللفظين . وقال أيضا : هو من إضافة الشئ إلى نفسه . ودخلت الهاء للمدح والمبالغة .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا ، فقال : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم ﴾ . الموصول اسم « إن » و ﴿ المشركين ﴾ معطوف عليه . وخبرها ﴿ فى نار جهنم ﴾ و ﴿ خالدين فيها ﴾ حال من المستكن فى الخبر . ويجوز أن يكون قوله : ﴿ والمشركين ﴾ مجرورا عطفا على أهل الكتاب . ومعنى كونهم فى نار جهنم : أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون فى نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ أى الخليقة . يقال : برا ، أى خلق . والبارئ : الخالق . والبرية : الخليقة . قرأ الجمهور : ﴿ البرية ﴾ بغير همز فى الموضعين . وقرأ نافع وابن ذكوان فيهما بالهمز . قال الفراء : إن أخذت البرية من : البراء ، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ . وإن أخذتها من : برئت القلم ، أى قدرته ، دخلت . وقيل : إن الهمز هو الأصل ، لأنه يقال : برأ الله الخلق بالهمز ، أى ابتدعه واخترعه . ومنه قوله : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ [الحديد : ٢٢] ولكن خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب .

ثم بين حال الفريق الآخر فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَئِكَ﴾ المنعوتون بهذا ﴿هم خير البرية﴾ قال : والمراد : أن أولئك شر البرية فى عصره ﷺ . ولا يبعد أن يكون فى مؤمنى الأمم السابقة من هو خير منهم . ﴿جزاؤهم عند ربهم﴾ أى ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿جنات عدن تجري من تحتها الأنهار﴾ . والمراد بجنات عدن : هى أوسط الجنات وأفضلها . يقال : عدن بالمكان يعدن عدناً ، أى أقام . ومعدن الشيء : مركزه ومستقره . ومنه قول الأعشى :

وإن يستضافوا إلى علمه يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قدمنا فى غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر . وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجرى الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر ، وهو الشجر . ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يخرجون منها ، ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون فى نعيمها ، مستمرون فى لذاتها ، ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء . وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه . ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً ، وأن تكون فى محل نصب على الحال بإضمار قد . ﴿ذلك لمن خشى ربه﴾ أى ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه فى الدنيا ، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التى وقعت له ، لا مجرد الخشية مع الانهماك فى معاصى الله سبحانه ، فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿منفكين﴾ قال : برحين . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ؟ والذى نفسى بيده ، لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . واقروا إن شئتم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، من أكرم الخلق على الله؟ قال : « يا عائشة ، أما تقرئين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ » . وأخرج ابن عساکر عن جابر بن عبد الله ، قال : كنا عند النبى ﷺ فأقبل على ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » ونزلت : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ ، فكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية . وأخرج ابن عدى وابن عساکر عن أبى سعيد مرفوعاً : « على خير البرية » (١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾

(١) ابن عدى ١/ ١٧٠ .

قال رسول الله ﷺ لعلی : « هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » . وأخرج ابن مردويه عن علي مرفوعا نحوه . وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية ؟ » قالوا : بلى . قال : « الذي يسأل بالله ولا يعطى به » (١) . قال أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ . . فذكره .

(١) أحمد ٣٩٦/٢ .

تفسير سورة الزلزلة

هي ثمان آيات . وهي مدنية في قول ابن عباس وقتادة ، ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ بالمدينة . وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : أقرئني يا رسول الله . قال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات الرءاء » . فقال الرجل : كبر سنى ، واشتد قلبى ، وغلظ لسانى . قال : « اقرأ ثلاثاً من ذوات حم » . فقال مثل مقالته الأولى . فقال : « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » . فقال مثل مقالته الأولى ، وقال : ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة . فأقرأه : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى فرغ منها . قال الرجل : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها . فقال رسول الله ﷺ : « أفلح الرويجل ، أفلح الرويجل » (١) . وأخرج الترمذى وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : قال رسول الله : « من قرأ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ عدلت له بنصف القرآن ، ومن قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عدلت له بثالث القرآن ، ومن قرأ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عدلت له بربع القرآن » (٢) .

وأخرج الترمذى وابن الضريس ومحمد بن نصر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل نصف القرآن ، و﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن . و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن » (٣) . قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : « هل تزوجت يا فلان ؟ » . قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج به . قال : « أليس معك ﴾ قل هو الله أحد ؟ » قال : بلى . قال : « ثلث القرآن » . قال : « أليس معك ﴾ إذا جاء نصر الله والفتح ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴾ قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » . قال : « أليس معك ﴾ إذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن . تزوج » . قال الترمذى : هذا حديث حسن (٤) . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ في

(١) أحمد ١٦٩/٢ وأبو داود في الصلاة (١٣٩٩) والنسائي في الكبرى في فضائل القرآن (٨٠٢٧) وصححه الحاكم ٥٣٢/٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، والبيهقى في الشعب (٢٢٨٢) .

(٢) الترمذى في فضائل القرآن (٢٨٩٣) وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث هذا الشيخ الحسن بن سلم » والبيهقى في الشعب (٢٢٨٦) .

(٣) الترمذى في فضائل القرآن (٢٨٩٤) وصححه الحاكم ٥٦٦/١ وقال الذهبي : « بل يمان ضعفه » والبيهقى في الشعب (٢٢٨٤) وإسناده ضعيف .

(٤) الترمذى في فضائل القرآن (٢٨٩٥) .

ليلة : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ كان له عدل نصف القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ ﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ٦ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ٨ ﴾ .

قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أى إذا حركت حركة شديدة . وجواب الشرط : ﴿ تُحَدِّثُ ﴾ . والمراد : تحركها عند قيام الساعة ، فإنها تضطرب حتى يتكسر كل شيء عليها قال مجاهد : وهى النفخة الأولى لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ [النازعات : ٦ ، ٧] وذكر المصدر للتأكيد ، ثم أضافه إلى الأرض ، فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى : زلزالها المخصوص الذى يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها . قرأ الجمهور : ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ بكسر الزاى . وقرأ الجحدري وعيسى بفتحها . وهما مصدران بمعنى . وقيل : المكسور مصدر ، والمفتوح اسم . قال القرطبي : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال . ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أى ما فى جوفها من الأموات والدفائن . والاثقال : جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى بطن الأرض فهو ثقل لها . وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . قال مجاهد : أثقالها : موتها تخرجهم فى النفخة الثانية . وقد قيل للإنسان والجن : الثقلان . وإظهار الأرض فى موضع الإضممار لزيادة التقرير .

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى قال كل فرد من أفراد الإنسان : ما لها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقوله : ﴿ مَا لَهَا ﴾ مبتدأ وخبر . وفيه معنى التعجب ، أى أى شيء لها ؟ أو لآى شيء زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من « إذا » . والعامل فيهما قوله : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ويجوز أن يكون العامل فى « إذا » محذوفاً ، والعامل فى ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ تحدث . والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت : تخبر بأخبارها ، وتحدثهم بما عمل عليها من خير وشر . وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة . أو بلسان المقال بأن ينطقها الله سبحانه . وقيل : هذا متصل بقوله : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى قال : ما لها تحدث أخبارها ؟ متعجباً من ذلك . وقال يحيى بن سلام : تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها . وقيل : تحدث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت . قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة ، وإخراج الموتى . ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثانى هو أخبارها . أى تحدث الخلق أخبارها . ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ متعلق بـ ﴿ تُحَدِّثُ ﴾ ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها . وقيل : الباء زائدة . و« أن » وما فى حيزها بدل من ﴿ أَخْبَارَهَا ﴾ . وقيل : الباء سببية ، أى

بسبب إحياء الله إليها . قال الفراء : تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها . واللام فى ﴿ أوحى لها ﴾ بمعنى إلى . وإنما أثرت على « إلى » لموافقة الفواصل . والعرب تضع لام الصفة موضع إلى . كذا قال أبو عبيدة . وقيل : إن ﴿ أوحى ﴾ يتعدى باللام تارة ، وبـ « إلى » أخرى . وقيل : إن اللام على بابها من كونها للعلة . والموحى إليه محذوف ، وهو الملائكة . والتقدير : أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض ، أى لأجل ما يفعلون فيها . والأول أولى .

﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ الظرف إما يدل من ﴿ يومئذ ﴾ الذى قبله ، وإما منصوب بمقدر هو « اذكر » وإما منصوب بما بعده ، والمعنى : يومئذ يقع ما ذكر ، يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتاً ، أى متفرقين . والصدر : الرجوع . وهو ضد الورود . وقيل : يصدر من موضع الحساب إلى الجنة أو النار . وانتصاب ﴿ أشتاتاً ﴾ على الحال . والمعنى : أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بلون أهل الجنة ، وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد . وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين ، وبعضهم إلى جهة الشمال مع تفرقهم فى الأديان واختلافهم فى الأعمال . ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ متعلق بـ ﴿ يصدر ﴾ . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم ، ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ ليروا ﴾ مبنياً للمفعول . وهو من رؤية البصر ، أى ليربهم الله أعمالهم . وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة وحماد بن سلمة ونصر بن عاصم وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل . ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ أى وزن مثله . وهى أصغر ما يكون من النمل . قال مقاتل : فمن يعمل فى الدنيا مثقال ذرة خيراً ، يره يوم القيامة فى كتابه فيفرج به . وكذلك من يعمل فى الدنيا ﴿ مثقال ذرة شراً يره ﴾ يوم القيامة فيسوّه . ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ [النساء : ٤٠] . وقال بعض أهل اللغة : إن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض فما علق من التراب ، فهو الذرة . وقيل : الذر ما يرى فى شعاع الشمس من الهباء . والأول أولى ، ومنه قول امرئ القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول من الذر فوق الإتب منها لأثرا

و « من » الأولى عبارة عن السعداء . و « من » الثانية عبارة عن الأشقياء . وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابه فى الدنيا ، وفى نفسه ، وماله ، وأهله ، وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير . ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن ، يرى عقوبته فى الدنيا فى ماله ، ونفسه ، وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر . والأول أولى . قال مقاتل : نزلت فى رجلين كان أحدهما يأتى السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : إنما أوعد الله

النار على الكافرين . قرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ فى الموضعين بضم الهاء وصلًا ، وسكونها وقفًا . وقرأ هشام بسكونها وصلًا ووقفًا . ونقل أبو حيان عن هشام وأبى بكر سكونها . وعن أبى عمرو ضمها مشبعة . وباقي السبعة بإشباع الأولى وسكون الثانية . وفى هذا النقل نظر . والصواب ما ذكرنا . وقرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ مبنياً للفاعل فى الموضعين . وقرأ ابن عباس وابن عمر والحسن والحسين ابنا على وزيد بن على وأبو حيوة وعاصم والكسائى ، فى رواية عنهما ، والجحدرى والسلمى وعيسى على البناء للمفعول فيهما ، أى يريه الله إياه . وقرأ عكرمة : يراه على توهم أن « من » موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة فى الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ قال : تحركت من أسفلها . ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الموتى . ﴿ وقال الإنسان مالها ﴾ قال : الكافر يقول : مالها . ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : قال لها ربك : قولى . ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال : أوحى لها : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ ، قال : من كل من هاهنا وهاهنا . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال : الكنوز والموتى . وأخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تقى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت . ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدى . ثم يدعونه ، فلا يأخذون منه شيئاً » (١) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، والنسائى وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها . تقول : عمل كذا وكذا . فهذا أخبارها » (٢) .

وأخرج ابن مردويه والبيهقى عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الأرض لتجىء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها » . وقرأ رسول الله ﷺ : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ (٣) .

وأخرج الطبرانى عن ربيعة الجرشى أن رسول الله ﷺ قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أوشراً إلا وهى مخبرة » (٤) .

(١) مسلم فى الزكاة (١٠١٣/٦٢) والترمذى فى الفتى (٢٢٠٨) .

(٢) أحمد ٣٧٤/٢ والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٩) وقال : « هذا حديث حسن غريب » والنسائى فى التفسير (٧١٣) وصححه الحاكم ٥٣٢/٢ وقال الذهبى : « يحى هذا منكر الحديث ، قاله البخارى » والبيهقى فى الشعب (٧٢٩٨) ط . الكتب العلمية .

(٣) البيهقى فى الشعب (٧٢٩٦) .

(٤) الطبرانى (٤٥٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٢٤٦/١ : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف ، وربيع الجرشى مختلف فى صحبته » وقال الحافظ ابن حجر فى تقريب التهذيب ٢٤٧/١ : « وثقه الدارقطنى وغيره » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم في تاريخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال : بينما أبو بكر الصديق يأكل مع النبي ﷺ ، إذ نزلت عليه : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . فرفع أبو بكر يده وقال : يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر . فقال : « يا أبا بكر ، أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة » .^(١) وأخرج إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أبي أسماء قال : بينا أبو بكر يتغدى مع رسول الله ، إذ نزلت هذه الآية : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فأمسك أبو بكر وقال : يا رسول الله ، ما عملنا من شيء رأيناه . فقال : « ما ترون مما تكرهون ، فذاك مما تحزون ، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة » .^(٢) وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنزلت : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق قاعد ، فبكى . فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر؟ » قال : يبكيني هذه السورة . فقال : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم ، خلق الله قوماً يخطئون ويذنبون ، فيغفر لهم » .^(٣) وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . . . » الحديث . وقال : وسئل عن الحمر فقال : « ما أنزل على فيها إلا هذه الآية الجامعة ، الفادة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ » .^(٤)

(١) ابن جرير ١٧٣/٣٠ وقال الهيثمي في المجمع ١٤٤/٧ ، ١٤٥ : « رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه موسى ابن سهل ، والظاهر أنه الوشاء وهو ضعيف » وقال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب ٢٨٤/٢ : « هو ضعيف » والبيهقي في الشعب (٩٨٠٨) .

(٢) صححه الحاكم ٥٣٣/٢ وقال الذهبي : « مرسل » .

(٣) ابن جرير ١٧٥/٣٠ وقال الهيثمي في المجمع ١٤٤/٧ : « رواه الطبراني وفيه حيي بن عبد الله المعافري ، وثقه ابن معين وغيره ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح » والبيهقي في الشعب (٧١٠٣) عن ابن عمر .

(٤) البخاري في الجهاد (٢٨٦٠) ومسلم في الزكاة (٢٤/٩٨٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٨) .

تفسير سورة العاديات

هى إحدى عشرة آية . وهى مكية فى قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء .
ومدنية فى قول ابن عباس وأنس بن مالك وقتادة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال :
نزلت سورة : ﴿ والعاديات ﴾ بمكة . وأخرج أبو عبيد فى فضائله عن الحسن قال : قال رسول الله
ﷺ : « ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن ﴿ والعاديات ﴾ تعدل نصف القرآن » . وهو
مرسل . وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس مرفوعاً مثله . وزاد :
« ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا (٤)
فَرَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لَحَبِ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم
بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾

العاديات : جمع عادية . وهى الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشى بسرعة ، فأبدلت
الواو ياء لكسر ما قبلها ، كالغازيات من الغزو . والمراد بها : الخيل العادية فى الغزو نحو العدو .
وقوله : ﴿ ضَبْحًا ﴾ مصدر مؤكد لاسم الفاعل . فإن الضبح نوع من السير ، ونوع من العدو .
يقال : ضبح الفرس : إذا عدا بشدة ، مأخوذ من الضبع ، وهو الدفع ، وكان الحاء بدل من
العين . قال أبو عبيدة والمبرد : الضبح من إضباحها فى السير ، ومنه قول عنترة :

والخيل تكدح فى حياض الموت ضبيحا

ويجوز أن يكون مصدرًا فى موضع الحال ، أى ضابحات ، أو ذوات ضبح . ويجوز أن
يكون مصدرًا لفعل محذوف ، أى تضبح ضبحًا . وقيل : الضبح : صوت حوافرها إذا عدت .
وقال الفراء : الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت . قيل : كانت تكعم لثلا تصهل ، فيعلم
العدو بهم ، فكانت تتنفس فى هذه الحالة بقوة . وقيل : الضبح : صوت يسمع من صدور
الخيول عند العدو ، ليس بصهيل . وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن ﴿العاديات ضَبْحًا﴾ :
هى الخيل . وقال عبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدى : هى الإبل ، ومنه قول صفية بنت
عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع بأيديها إذا سطع الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ، فاستعير للخيول ، ومنه قول الشاعر :

تضريح فى الكف ضباح الثعلب

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ هى الخيل حين تورى النار بسنابكها . والإيراء : إخراج النار .
والقدح : الصك . فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد . قال الزجاج : إذا عدت
الخيال بالليل ، وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران . والكلام فى انتصاب ﴿ قدحاً ﴾
كالكلام فى انتصاب ﴿ ضبحاً ﴾ والخلاف فى كونها الخيل أو الإبل كالحلاف الذى تقدم فى
العاديات . والراجع أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف
المذكورة فى هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتى ، فإنها فى الخيل أوضح منها فى الإبل ،
وسيأتى ما فى ذلك من الخلاف بين الصحابة . ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ أى التى تغير على العدو
وقت الصباح . يقال : أغار بغير إغارة : إذا باغت عدوه بقتل ، أو أسر ، أو نهب . وأسند
الإغارة إليها ، وهى لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم فى إغارتهم ، وانتصاب ﴿ صبحاً ﴾ على
الظرفية .

﴿ فأترن به نقعاً ﴾ معطوف على الفعل الذى دل عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتى
عدون فأترن ، أو على اسم الفاعل نفسه ، لكونه فى تأويل الفعل ، لوقوع صلة للموصول ،
فإن الألف واللام فى الصفات أسماء موصولة . فالكلام فى قسوة : واللاتى عدون فأورين ،
فأغررن ، فأترن . والنقع : الغبار الذى أثرته فى وجه العدو عند الغزو وتخصيص إثارته بالصبح ،
لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لا يظهر أثر النقع فى الليل الذى اتصل به الصبح . وقيل : المعنى :
فأترن بمكان عدوهن نقعاً . يقال : ثار النقع وأثرته ، أى هاج ، أو هيجه . قرأ الجمهور :
﴿ فأترن ﴾ بتخفيف المثناة . وقرأ أبو حيوة وابن أبى عتبة بالتشديد ، أى فأظهرن به غباراً . وقال
أبو عبيدة : النقع : رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فمتى ينقع صراخ صادق يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول : حين سمعوا صراخاً ، أجلبوها الحرب ، أى جمعوا لها . قال أبو عبيدة : وعلى
هذا رأيت قول أكثر أهل العلم . انتهى . والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع :
الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية
وقول عبد الله بن رواحة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها
تثير النقع من كنفى كداء
وقول الآخر :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى . فإن قولك :

أغار الخيل على بنى فلان صباحاً ، فأثرن به صوتاً ، قليل الجدوى ، مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة . وقيل : النقع : شق الجيوب . وقال محمد بن كعب : النقع ما بين مزدلفة إلى منى . وقيل : إنه طريق الوادى . قال فى الصحاح : النقع : الغبار . والجمع أنقاع . والنقع : محبس الماء . وكذلك ما اجتمع فى البئر منه . والنقع : الأرض الحرة الطين ينقع فيها الماء . ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أى توسطن بذلك الوقت ، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء ، أو صرن بعدوهم وسط جمع الأعداء . والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة . يقال : وسطت المكان ، أى صرت فى وسطه . وانتصاب ﴿ جمعاً ﴾ على أنه مفعول به . والفاء فى المواضع الأربعة للدلالة على ترتيب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها . قرأ الجمهور : ﴿ فوسطن ﴾ بتخفيف السين . وقرئ بالتشديد .

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم . والمراد بالإنسان : بعض أفراد ، وهو الكافر . والكنود : الكفور للنعمة . وقوله : ﴿ لربه ﴾ متعلق بكنود . قدم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أى كفور لنعماء الرجال . وقيل : هو الجاحد للحق . قيل : إنها إنما سميت كئدة ؛ لأنها جحدت أباه . وقيل : الكنود مأخوذ من الكند ، وهو القطع ، كأنه قطع ما ينبغى أن يواصله من الشكر . يقال : كند الحبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى :

وصول حبال وكنادها

وقيل : الكنود : البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسى لم تطب منك نفساً غير أنى أمسى بدين كنود

وقيل : الكنود : الخسود . وقيل : الجهول لقدره . وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام . والجاحد للنعمة كافر لها . ولا يناسب المقام سائر ما قيل . ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه . وقيل : المعنى : وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد . وبه قال الجمهور . وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب . وهو أرجح من قول الجمهور لقوله : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان . والمعنى : إنه لحب المال قوى مجد فى طلبه وتحصيله ، متهالك عليه ، يقال : هو شديد لهذا الأمر ، وقوى له : إذا كان مطيقاً له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة : ١٨٠] ومنه قول عدى بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب الـ سخير وحب الحياة كاربها

وقيل : المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل . والأول أولى . واللام فى

﴿الحب﴾ متعلقة بشديد . قال ابن زيد : سمي الله المال خيراً ، وعسى أن يكون شراً ؛ ولكن الناس يجدونه خيراً ، فسماه خيراً . قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير . فلما قدم الحب قال : لشديد . وحذف من آخره ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره . ولرؤوس الآي كقوله : ﴿ في يوم عاصف ﴾ [إبراهيم : ١٨] والعصوف للريح ، لا لليوم ، كأنه قال : في يوم عاصف الريح .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ الاستفهام للإنكار . والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ، أى يفعل ما يفعل من القبائح ، فلا يعلم . و ﴿ بعثر ﴾ معناه : نثر وبث ، أى نثر ما في القبور من الموتى ، وبث عنهم وأخرجوا . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع : جعلت أسفله أعلاه . قال الفراء : سمعت بعض العرب من بنى أسد يقول : « بثر » بالخاء مكان العين . وقد تقدم الكلام على هذا فى قوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ [الانفطار : ٤] .

﴿ وحصل ما فى الصدور ﴾ أى ميز وبين ما فيها من الخير والشر . والتحصيل : التمييز ، كذا قال المفسرون . وقيل : حصل : أبرز . قرأ الجمهور : ﴿ حصل ﴾ بضم الحاء ، وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول . وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم : « حصل » بفتح الحاء والصاد وتخفيفها مبنياً للفاعل ، أى ظهر . « إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ أى إن رب المبعوثين بهم لخبير ، لا تخفى عليه منهم خافية ، فيجازيهم بالخير خيراً ، وبالشر شراً . قال الزجاج : الله خبير بهم فى ذلك اليوم وفى غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم فى ذلك اليوم . ومثله قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ﴾ [النساء : ٦٣] معناه : أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم . قرأ الجمهور : ﴿ إن ربهم ﴾ بكسر الهمزة وباللام فى ﴿ لخبير ﴾ . وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة ، وإسقاط اللام من ﴿ لخبير ﴾ .

وقد أخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والدارقطنى فى الأفراد ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلاً ، فاستمرت نهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ : ضبحت بأرجلها . ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمنأخبرها . ﴿ فالموريات قدحا ﴾ : قدحت بحوافرها الحجارة ، فأورت ناراً . ﴿ فالمغيرات صبحا ﴾ : صبحت القوم بغارة . ﴿ فأترن به نقعاً ﴾ : أثارت بحوافرها التراب . ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ : صبحت القوم جميعاً . وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى العدو ، فأبطأ خبرها ، فشق ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم ، وما كان من أمرهم ، فقال : ﴿ والعاديات ضبحا ﴾ . قال : هى الخيل . والضحج : نخير الخيل حين تنخر . ﴿ فالموريات قدحا ﴾ ، قال : حين تجرى الخيل تورى ناراً أصابت بسنابكها الحجارة . ﴿ فالمغيرات صبحا ﴾ قال : هى الخيل أغارت فصبحت العدو . ﴿ فأترن به نقعاً ﴾ قال : هى الخيل أثرت بحوافرها ، يقول : تعدو الخيل ، والنقع : الغبار . ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : الجمع : العدو .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : تقاولت أنا وعكرمة في شأن العاديات ، فقال : قال ابن عباس : هي الخيل في القتال ، وضبحها : حين ترخي مشافرها إذا عدت . ﴿فالموريات قدحا﴾ : أرت المشركين مكرهم . ﴿فالمغيرات ضبحاً﴾ قال : إذا صبحت العدو . ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال : إذا توسطت العدو . وقال أبو صالح : فقلت : قال علي : هي الإبل في الحج . ومولاي كان أعلم من مولاك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما أنا في الحجر جالس ، إذ أتاني رجل يسأل عن ﴿العاديات ضبحاً﴾ فقلت : الخيل حين تغير في سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانقتل عني ، فذهب إلى علي بن أبي طالب ، وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن ﴿العاديات ضبحاً﴾ فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، سألت عنها ابن عباس ، فقال : هي الخيل حين تغير في سبيل الله . فقال : اذهب ، فادعه لى . فلما وقفت على رأسه ، قال : تفتي الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير ، وفرس للمقداد ابن الأسود ، فكيف تكون العاديات ضبحاً ، إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة ، أوقدوا النيران ، والمغيرات ضبحاً من المزدلفة إلى منى . فذلك جمع . وأما قوله : ﴿فأثرن به نقعاً﴾ فهي تقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها . قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ، ورجعت إلى الذى قال علي . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال : الإبل . أخرجه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي . قال إبراهيم : وقال علي بن أبي طالب : هي الإبل . وقال ابن عباس : هي الخيل . فبلغ على قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كانت تلك في سرية بعثت . وأخرج عبد بن حميد ، عن عامر الشعبي ، قال : تمارى علي وابن عباس في ﴿العاديات ضبحاً﴾ ، فقال ابن عباس : هي الخيل . وقال علي : كذبت يابن فلانة . والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق . قال : وكان يقول : هي الإبل . فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعاً ، فما شيء تثيره إلا بحوافرها .

وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال : الخيل . ﴿فالموريات قدحا﴾ قال : الرجل إذا أورى زنده . ﴿فالمغيرات ضبحاً﴾ قال : الخيل تصبح العدو . ﴿فأثرن به نقعاً﴾ قال : التراب . ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال : العدو . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال : قال ابن عباس : القتال . وقال ابن مسعود : الحج . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ ، قال : ليس شيء من الدواب يضح إلا الكلب أو الفرس . ﴿فالموريات قدحاً﴾ قال : هو مكر

الرجل قدح فأورى. ﴿فالمغيرات صباحاً﴾ قال : غارة الخيل صباحاً . ﴿فأثرن به نقعاً﴾ قال : غبار وقع سنابك الخيل . ﴿فوسطن به جمعاً﴾ قال : جمع العدو . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال : الخيل ضبحها زحيرها . ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أح أح . فذلك ضبحها . وأخرج ابن المنذر عن علي قال : الضبح من الخيل : الحممة . ومن الإبل : النفس . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال : هي الإبل في الحج . ﴿فالموريات قدحاً﴾ : إذا سفت الحصى بمناسمها ، فضرب الحصى بعضه بعضاً ، فيخرج منه النار . ﴿فالمغيرات صباحاً﴾ : حين يفيضون من جمع . ﴿فأثرن به نقعاً﴾ قال : إذا سرن يثرن التراب .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد : الكفور . وأخرج ابن عاكر عن أبي أمامة عن النبي ﷺ في قوله : ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ قال : «لكفور» . وأخرج عبد ابن حميد ، والبخاري في الأدب ، والحكيم الترمذي وابن مردويه عن أبي أمامة قال : الكنود الذي يمنع رفته ، وينزل وحده ، ويضرب عبده . ورواه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والديلمي وابن عساكر مرفوعاً ، وضعف إسناده السيوطي . وفي إسناده جعفر بن الزبير . وهو متروك . والموقوف أصح لأنه لم يكن من طريقه (١) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ قال : الإنسان . ﴿وإنه لحب الخير﴾ قال : المال . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه : ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾ قال : بحث . ﴿وحصل ما في الصدور﴾ قال : أبرز .

(١) ابن جرير ٣٠ / ١٨٠ والطبراني (٧٩٥٨) .

تفسير سورة القارعة

هى إحدى عشرة آية . وقيل : عشر آيات . وهى مكية بلا خلاف . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ١ ﴾ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ ١٠ نَارٍ حَامِيَةٍ ١١ ﴾

القارعة من أسماء القيامة ؛ لأنها تفرع القلوب بالفرع ، وتفرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول : قرعتهم القارعة : إذا وقع بهم أمر فظيع ، قال ابن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا
سيلهم لراحت عنك حيناً

وقال آخر :

متى نقرع بمروءتكم نسؤكم
ولما يوقد لنا فى القدر نار

و ﴿ القارعة ﴾ مبتدأ ، وخبرها قوله : ﴿ ما القارعة ﴾ . وبالرفع قرأ الجمهور . وقرأ عيسى بنصبها على تقدير : احذروا القارعة . والاستفهام للتعظيم والتفخيم لشأنها ، كما تقدم بيانه فى قوله : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : ١-٣] . وقيل : معنى الكلام على التحذير . قال الزجاج : والعرب تحذر وتغرى بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لجديرون بالوفاء إذا قال
أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدل على هذا المعنى . ويؤيده أيضاً قوله : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها . ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق ، بحيث لا تنالها دراية أحد منهم . و«ما» الاستفهامية مبتدأ ، و ﴿ أدراك ﴾ خبرها . و ﴿ ما القارعة ﴾ مبتدأ وخبر . والجملة فى محل نصب على أنها المفعول الثانى ، والمعنى : وأى شئ أعلمك ما شأن القارعة ؟ ثم بين سبحانه متى تكون القارعة ، فقال : ﴿ يوم يكون الناس كالفرش المبثوث ﴾ . وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة ، أى تفرعهم يوم يكون الناس . . . إلخ . ويجوز

أن يكون منصوباً بتقدير : اذكر . وقال ابن عطية ومكي وأبو البقاء : هو منصوب بنفس القارعة . وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف ، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل . فالفتحة فتحة بناء ، لا فتحة إعراب ، أى هى يوم يكون . . . إلخ . وقيل : التقدير : ستأتيكم القارعة . يوم يكون . وقرأ زيد بن على برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . و﴿الفراش﴾ الطير الذى تراه يتساقط فى النار والسراج . والواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره . قال الفراء : الفراش هو الطائر من بعوض وغيره . ومنه الجراد . قال : وبه يضرب المثل فى الطيش والهوج . يقال : أطيش من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن يطلب نداء فكلب دونه كلب

وقول آخر :

وقد كان أقوام رددت حلومهم عليهم وكانوا كالفراش من الجهل

والمراد بالمبثوث : المتفرق المنتشر . يقال : بثه : إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه فى آية أخرى : ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ [القمر : ٧] وقال : ﴿المبثوث﴾ ولم يقل : المبثوثة ؛ لأن الكل جائز كما فى قوله : ﴿أعجاز نخل منقعر﴾ [القمر : ٢٠] و ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ [الحاقة : ٧] وقد تقدم بيان وجه ذلك . ﴿وتكون الجبال كالعن المنفوش﴾ أى كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذى نفش بالندف . والعن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة . وقد تقدم بيان هذا فى سورة ﴿سأل سائل﴾ وقد ورد فى الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة . وقد قدسنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : ﴿فأما من ثقلت موازينه . فهو فى عيشة راضية﴾ . قد تقدم القول فى الميزان فى سورة الأعراف ، وسورة الكهف ، وسورة الأنبياء . وقد اختلف فيها هنا . فقيل : هى جمع موزون ، وهو العمل الذى له وزن وخطر عند الله . وبه قال الفراء وغيره . وقيل : هى جمع ميزان ، وهو الآلة التى توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال : لكل حادثة ميزان . وقيل : المراد بالموازين : الحجج والدلائل ، كما فى قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندى لكل مخاصم ميزانه

ومعنى ﴿عيشة راضية﴾ : مرضية يرضاها صاحبها . قال الزجاج : أى ذات رضى يرضاها صاحبها . وقيل : ﴿عيشة راضية﴾ أى فاعلة للرضى . وهو اللين ، والانقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع النعم التى فى الجنة . ﴿وأما من خفت موازينه﴾ أى رجحت سيئاته على حسناته ، أو لم تكن له حسنات يعتد بها ﴿فأمه هاوية﴾ أى فمسكرته جهنم . وسماها أمه ، لأنه يأوى إليها كما يأوى إلى أمه . والهاوية من أسماء جهنم . وسميت هاوية ، لأنه يهوى فيها

مع بعد قعرها ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

فالارض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولد

وقول الآخر :

يا عمرو لو نالتك أرماحنا كنت كمن تهوى به الهاوية

والمهوى والمهواة : ما بين الجبلين ، وتهوى القوم فى المهواة : إذا سقط بعضهم فى إثر بعض . قال قتادة : معنى ﴿فأمه هاوية﴾ : فمصيره إلى النار . قال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه . قال الأخفش : أمه : مستقره . ﴿وما أدراك ما هيه﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفطيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدرى كنهها . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿نار حامية﴾ أى قد انتهى حرها ، وبلغ فى الشدة إلى الغاية ، وارتفاع ﴿نار﴾ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى هى نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عن ابن عباس قال : القارعة من أسماء يوم القيامة . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿فأمه هاوية﴾ قال : كقوله : هوت أمه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة : ﴿فأمه هاوية﴾ قال : أم رأسه هاوية فى جهنم . وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات المؤمن ، تلقت أرواح المؤمنين يسألونه : ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية ، فبنست الأم ، وبنست المربية » . وأخرج ابن مردويه من حديث أبى أيوب الأنصارى نحوه . وأخرج ابن المبارك من حديث أبى أيوب نحوه أيضاً .

تفسير سورة التكاثر

هى ثمان آيات . وهى مكية عند الجميع ، وروى البخارى أنها مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزل بمكة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . وأخرج الحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ » قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية فى كل يوم ؟ قال : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ؟ » (١) .

وأخرج الخطيب فى المتفق والمفترق ، والديلمى عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ فى ليلة ألف آية ، لقي الله ، وهو ضاحك فى وجهه » . قيل : يا رسول الله ، ومن يقوى على ألف آية ؟ فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ إلى آخرها ، ثم قال : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ألف آية » .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقرأ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . وفى لفظ : وقد أنزلت عليه : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . وهو يقول : « ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت » (٢) . وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبى هريرة ، ولم يذكر فيه قراءة هذه السورة ، ولا نزولها بلفظ : « يقول العبد مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاثة ، ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأفنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » (٣) . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، والبيهقى فى الشعب وضعفه عن جرير بن عبد الله ، قال : قال لنا رسول الله ﷺ : « إني قارئ عليكم سورة أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، فمن بكى فله الجنة » ، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك . فقال الذين لم يبكوا : قد جهدنا يارسول الله أن نبكى فلم نقدر عليه . فقال : « إني قارئها عليكم الثانية ، فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكى ، فليتبأكى » (٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْبَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْبَقِينِ (٧) ﴾

(١) صححه الحاكم ٥٦٧/١ وقال : « رواة الحديث كلهم ثقات ، وعقبه هذا غير مشهور » ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب (٢٢٨٧) ورجاله موثقون .

(٢) مسلم فى الزهد والرقائق (٣/٢٩٥٨) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى التفسير (٧١٦) .

(٣) مسلم فى الزهد والرقائق (٤/٢٩٥٩) وقال الحافظ ابن كثير ٣٦٠/٧ : « تفرد به مسلم » .

(٤) البيهقى فى الشعب (١٨٩٤) .

ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ﴿٨﴾ .

قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ أى شغلکم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها . يقال : ألهاه عن كذا ، وألهاه : إذا شغله . ومنه قول امرئ القيس :

فألهيتهما عن ذى تئائم محول

وقال الحسن : معنى ﴿ أَلْهَاكُم ﴾ : أنساكم . ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى حتى أدرككم الموت ، وأنتم على تلك الحال . وقال قتادة : إن التكاثر : التفاخر بالقبائل والعشائر . وقال الضحاك : ألهاكم التشاغل بالمعاش . وقال مقاتل وقاتلة أيضاً وغيرهما : نزلت فى اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بنى فلان ، وبنو فلان أكثر من بنى فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا . وقال الكلبي : نزلت فى حين من قريش : بنى عبد مناف ، وبنى سهم ، تعادوا وتكاثروا بالسيادة والأشراف فى الإسلام . فقال كل حى منهم : نحن أكثر سيدياً ، وأعز عزيزاً ، وأعظم نفراً ، وأكثر قائدأ . فكثروا بنو عبد مناف بنى سهم . ثم تكاثروا بالأموال ، فكثرتهم بهم ، فنزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فلم ترضوا ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ مفتخرين بالأموال . وقيل : نزلت فى حين من الأنصار . والمقابر : جمع مقبرة بفتح الباء وضمها . وفى الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا ، والمكاثرة بها ، والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة . وقال سبحانه : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ ، ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ فى الذم ، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام . ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر فى علم البيان . والمعنى أنه شغلکم التكاثر عن كل شىء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله والعمل للآخرة . وعبر عن موتهم بزيارة المقابر ؛ لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذى يزوره . هذا على قول من قال : إن معنى ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : متم . وأما على قول من قال : إن معنى ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ : ذكرتكم الموتى ، وعددتموهم للمفاخرة والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم . وقيل : إنهم كانوا يزورون المقابر ، فيقولون : هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان ، يفتخرون بذلك .

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر ، وتنبه على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة . وفيه وعيد شديد . قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر . ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال : ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ و « ثم » للدلالة على أن الثانى أبلغ من الأول . وقيل : الأول عند الموت أو فى القبر . والثانى يوم القيامة . قال الفراء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد . قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد . وكذا قال الحسن ومجاهد . ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى لو تعلمون الأمر الذى أنتم صائرون إليه علماً يقيناً كعلمكم ما هو متيقن عندكم فى الدنيا . وجواب « لو » محذوف ، أى لشغلکم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم

فيه . و ﴿ كلا ﴾ فى هذا الموضع الثالث للزجر والردع ، كالموضعين الأولين . وقال الفراء : هى بمعنى « حقا » . وقيل : هى فى المواضع الثلاثة بمعنى ألا . قال قتادة : اليقين هنا : الموت . وروى عنه أيضاً أنه قال : هو البعث . قال الأخفش : التقدير : لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم .

وقوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب قسم محذوف . وفيه زيادة وعيد وتهديد ، أى والله لترون الجحيم فى الآخرة . قال الرازى : وليس هذا جواب « لو » ؛ لأن جواب « لو » يكون متبياً . وهذا مثبت . ولأنه عطف عليه ﴿ ثم لتسألن ﴾ وهو مستقبل لابد من وقوعه . قال : وحذف جواب « لو » كثير . والخطاب للكفار . وقيل : عام كقوله : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ [مريم : ٧١] ، قرأ الجمهور : ﴿ لترون ﴾ بفتح التاء مبنياً للفاعل . وقرأ الكسائى وابن عامر بضمها مبنياً للمفعول . ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال : ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى ثم لترون الجحيم الرؤية التى هى نفس اليقين ، وهى المشاهدة والمعاينة . وقيل : المعنى : لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم . ثم لترونها مشاهدة على القرب . وقيل : المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، والثانى رؤيتها حال دخولها . وقيل : هو إخبار عن دوام بقائهم فى النار ، أى هى رؤية دائمة متصلة . وقيل : المعنى : لتعلمون اليوم علم اليقين ، وأنتم فى الدنيا ، لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأحوالها .

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ أى عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة . قال قتادة : يعنى كفار مكة ، كانوا فى الدنيا فى الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به . قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذى نعمة عما أنعم عليه . وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن تعريفه للجنس ، أو الاستغراق ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التى يسأل عنها . فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التى أنعم بها عليه فيم صرفها ؟ وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر . وقيل : السؤال عن الأمن والصحة . وقيل : عن الصحة والفراغ . وقيل : عن الإدراك بالحواس . وقيل : عن ملاذ المأكول والمشروب . وقيل : عن الغذاء والعشاء . وقيل : عن بارد الشراب وظلال المساكن . وقيل : عن اعتدال الخلق . وقيل : عن لذة النوم . والأولى العموم كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بردة فى قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ، قال : نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار فى بنى حارثة وبنى الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحدهما : فيكم مثل فلان وفلان . وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان . فيشرون إلى القبر ، ومثل

فلان . وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله : ﴿ ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر ﴾ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : في الأموال والأولاد . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يعنى عن الطاعة . ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ يقول : حتى يأتيكم الموت . ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعنى : لو قد دخلتم قبوركم . ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم . ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال : لو قد وفقتم على أعمالكم بين يدي ربكم . ﴿ لترون الجحيم ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فجاج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوش فى نار جهنم . ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ يعنى : شيع البطون ، وبارد الشرب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم . وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : الأمن والصحة . وأخرج البيهقى عن على بن أبى طالب ، قال : النعيم : العافية . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية ، قال : من أكل خبز البر ، وشرب ماء الفرات مبرداً ، وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذى يسأل عنه . وأخرج ابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية : « أكل خبز البر ، والنوم فى الظل ، وشرب ماء الفرات مبرداً » . ولعل رفع هذا لا يصح ، فربما كان من قول أبى الدرداء . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن مردويه عن أبى قلابه عن النبى ﷺ فى الآية ، قال : « ناس من أمتى يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » (١) . وهذا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية ، قال الصحابة : يا رسول الله ، أى نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير . فأوحى الله إلى نبيه ﷺ أن قل لهم : « أليس تحتدون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » . وأخرج ابن أبى شيبه وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأ حتى بلغ : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا : يا رسول الله ، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان ، الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون » (٢) .

(١) أحمد فى الزهد (١٦٦) .

(٢) ابن أبى شيبه (١٦١٩٢) وأحمد ٤٢٩/٥ وابن جرير ١٨٦/٣٠ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٨) ورجاله موثقون .

وأخرجه عبد بن حميد والترمذى وابن مردويه من حديث أبى هريرة^(١) . وأخرجه أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه من حديث الزبير بن العوام^(٢) . وأخرج أحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والحاكم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسديك ، ونروك من الماء البارد »^(٣) .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، فأطعمناهم رطباً ، وسقيناهم ماء . فقال رسول الله ﷺ : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه »^(٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقى من حديث جابر بن عبد الله نحوه . وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبى هريرة قال : خرج النبى ﷺ ، فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال : « ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ » قالا : الجوع يا رسول الله . قال : « والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فقوموا » . فقاما معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته . فلما رأته المرأة ، قالت : مرحبا . فقال النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » قالت : انطلق يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصارى ، فنظر إلى النبى ﷺ وصاحبه فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيقاً منى . فانطلق فجاء بعدق فيه بسر وتمر فقال : كلوا من هذا . وأخذ المديّة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إياك والخلوب » . فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق وشربوا . فلما شبعوا ورووا ، قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » . وفى الباب أحاديث^(٥) .

(١) الترمذى فى التفسير (٣٣٥٧) وفيه أبو بكر بن عياش ، قال الحافظ فى التقريب ٣٩٩/٢ : « ثقة عابد إلا أنه لما كبر ساء حفظه وكتابه صحيح » .

(٢) أحمد ١٦٤/١ والترمذى فى التفسير (٣٣٥٦) وقال : « هذا حديث حسن » وابن ماجة فى الزهد (٤١٥٨) .

(٣) أحمد فى الزهد (١٦٧) والترمذى فى التفسير (٣٣٥٨) وقال : « هذا حديث غريب » وابن جرير ١٨٦/٣٠ وابن حبان (٧٣٢٠) وهو مروي عن عبد الرحمن الأشعري ، وصححه الحاكم ١٣٨/٤ ووافقه الذهبي ، والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٧) وإسناده ضعيف .

(٤) أحمد ٣٣٨/٣ والنسائى فى الوصايا (٦٤٦٦) وابن جرير ١٨٥٣٠ والبيهقى فى الشعب (٤٢٧٩) ورجاله ثقات .

(٥) مسلم فى الأشربة (٢٠٣٨/١٤٠) وابن جرير ١٨٥/٣٠ والبيهقى فى الشعب (٤٢٨٤) ورجاله موثقون .

تفسير سورة العصر

هى ثلاث آيات ، وهى مكية عند الجمهور . وقال قتادة : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : نزلت سورة العصر بمكة . وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى الشعب عن أبى مزينة الدارمى ، وكانت له صحبة ، قال : كان الرجلان من أصحاب النبى ﷺ إذا التقيا ، لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ، ثم يسلم أحدهما على الآخر (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ .

أقسم سبحانه بالعصر ، وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار ، على تقدير الأدوار ، وتعاقب الظلام والضياء ، فإن فى ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده . ويقال لليل : عصر ، وللنهار : عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم ينته العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ماتنينا

ويقال للغداة والعشى : عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمله العصرين حتى يملنى ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به فى الآية : العشى ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر :

تروح بنا يا عمرو وقد قصر العصر وفى الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروى عن قتادة أيضاً : أنه آخر ساعة من ساعات النهار . وقال مقاتل : إن المراد به : صلاة العصر ، وهى الصلاة الوسطى التى أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها . وقيل : هو قسم (٢) بعصر النبى ﷺ . قال الزجاج : قال بعضهم : معناه : ورب العصر . والأول أولى . ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ هذا جواب القسم . الخسر والخسران : النقصان وذهاب رأس المال . والمعنى : أن كل إنسان فى المتاجر والمساعى وصرف الأعمار فى أعمال الدنيا لفى نقص وضلال عن الحق حتى يموت . وقيل : المراد بالإنسان : الكافر . وقيل : جماعة من الكفار . وهم :

(١) قال الهيثمى فى المجمع ٢٣٦/١٠ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح » والبيهقى فى الشعب (٩٠٥٧) . ط . دار الكتب العلمية .

(٢) فى المطبوعة : « قسما » بالنصب ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الوليد بن المغيرة ، والعاصر بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد . والأول أولى ، لما فى لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه . قال الأخفش : ﴿ فى خسر ﴾ : فىهلكة . وقال الفراء : عقوبة . وقال ابن زيد : لفى شر . قرأ الجمهور : ﴿ والعصر ﴾ بسكون الصاد . وقرأوا أيضا : ﴿ خُسْر ﴾ بضم الخاء وسكون السين . وقرأ يحيى بن سلام : « والعصر » بكسر الصاد . وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى : « خُسْر » بضم الخاء والسين . ورويت هذه القراءة عن عاصم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم فى ربح لا فى خسر ؛ لأنهم عملوا للآخرة ، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها . والاستثناء متصل . ومن قال : إن المراد بالإنسان : الكافر فقط ، فيكون منقطعا ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة . ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح . ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ أى وصى بعضهم بعضا بالحق الذى يحق القيام به ، وهو الإيمان بالله والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه . قال قتادة : ﴿ بالحق ﴾ : أى بالقرآن . وقيل : بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى . ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أى بالصبر عن معاصى الله سبحانه والصبر على فرائضه . وفى جعل التواصى بالصبر قرينا للتواصى بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦] . وأيضا التواصى بالصبر مما يندرج تحت التواصى بالحق . فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ والعصر ﴾ قال : الدهر . وأخرج ابن جرير عنه قال : هو ساعة من ساعات النهار . وأخرج ابن المنذر عنه أيضا قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشى . وأخرج الفريابي ، وأبو عبيد فى فضائله ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن على بن أبى طالب ؛ أنه كان يقرأ : « والعصر ونوائب الدهر ، إن الإنسان لفى خسر ، وإنه فيه إلى آخر الدهر » . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ : « والعصر . إن الإنسان لفى خسر ، وإنه لفيه إلى آخر الدهر » .

تفسير سورة الهمزة

هي تسع آيات . وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت : ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّصَدَّدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (٩)﴾ .

الويل : هو مرتفع على الابتداء . وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم . وخبره : ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ، والمعنى : خزي ، أو عذاب ، أو هلكة ، أو واد في جهنم . ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ : قال أبو عبيدة والزجاج : الهمزة اللمزة : الذي يغتاب الناس . وعلى هذا هما بمعنى . وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح : الهمزة : الذي يغتاب الرجل في وجهه . واللمزة : الذي يغتابه من خلفه . وقال قتادة عكس هذا . وروى عن قتادة ، ومجاهد أيضاً أن الهمزة : الذي يغتاب الناس في أنسابهم . وروى عن مجاهد أيضاً أن الهمزة : الذي يهزم الناس بيده . واللمزة : الذي يلمزهم بلسانه . وقال سفيان الثوري : يهزمهم بلسانه ، ويلمزهم بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة : الذي يؤذى جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذي يكسر عينه على جلسيه ، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، والأول أولى ، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلى بودى إذا لاقيتنى كذبا وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر :

إذا لقيتك عن سخط تكاشرنى وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز : الكسر . يقال : همز رأسه : كسره ، ومنه قول العجاج :

ومن همزنا رأسه تهشما

وقيل : أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع . يقال : همزه يهزمه همزاً . ولمزه يلمزه لمزاً : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر :

ومن همزنا عزه تبركعا على استه زوبعة أو زوبعا

البركة : القيام على أربع . يقال : بركعه فتركع ، أى صرعه فوقع على استه . كذا في

الصحيح . وبناء فعله يدل على الكثرة . ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيراً ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة . قرأ الجمهور : ﴿ همزة لمزة ﴾ بضم أولهما وفتح الميم فيهما . وقرأ الباقر والأعرج بسكون الميم فيهما . وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش : « ويل للهمزة اللزمة » . والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك . ولا ينافيه نزولها على سبب خاص . فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ الموصول بدل من كل ، أو في محل نصب على الذم ، وهذا أرجح ؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب ، والعلة في الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال وظنه أنه الفضل ، فلاجل ذلك يستقصر غيره . قرأ الجمهور : ﴿ جمع ﴾ مخففاً . وقرأ ابن عامر وحزمة والكسائي بالتشديد . وقرأ الجمهور : ﴿ وعدده ﴾ بالتشديد . وقرأ الحسن والكلبي ونصر بن عاصم وأبو العالية بالتخفيف . والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير . وهو جمع الشيء بعد الشيء ، وتعييده مرة بعد أخرى . قال الفراء : معنى ﴿ عدده ﴾ : أحصاه . وقال الزجاج : وعدده لنوائب الدهور . يقال : أعددت الشيء وعددته : إذا أمسكته . قال السدي : أحصى عدده . وقال الضحاك : أعد ماله لمن يرثه . وقيل : المعنى : فاخر بكثرته وعدده . والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه ، وعدم إنفاقه في سبيل الخير . وقيل : المعنى على قراءة التخفيف في « عدده » : أنه جمع عشيرته وأقاربه . قال المهدوي : من خفف « وعدده » فهو معطوف على المال ، أي وجمع عدده .

وجملة : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ، أي يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت . وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد في عمره . والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ . وقيل : هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال . وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان ، أي ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده . واللام في ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ جواب قسم محذوف ، أي ليطرحن في النار ، وليلقين فيها . قرأ الجمهور : ﴿ لينبذن ﴾ . وقرأ على والحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحמיד وابن مجيصن : « لينبذان » بالثنية ، أي لينبذ هو وماله في النار . وقرأ الحسن أيضاً : ﴿ لينبذن ﴾ أي : لينبذن ماله في النار . ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ ؟ هذا الاستفهام للتحويل والتفطيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام . ثم بينها سبحانه فقال : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أي هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه . وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك في وصفها بالإيقاد . وسميت « حطمة » لأنها تحطم كل ما يلقي فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حطمنا بالقضيب مصعباً يوم كسرنا أنفه ليغضبنا

قيل : هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم . وقيل : الطبقة الثانية منها . وقيل : الطبقة

الرابعة . ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ أى يخلص حرها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها . وخص الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم ؛ لأنها محل العقائد الزائفة ، أى لكون الآلم إذا وصل إليها ، مات صاحبها ، أى أنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون . وقيل : معنى ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ : أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرفها الله بها . ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أى مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه فى سورة البلد . يقال : أصدت الباب : إذا أغلقتة ، ومنه قول عبيد الله بن قيس بن الرقيات :

إن فى القصر لو دخلنا غزالا مصفقا موصداً عليه الحجاب

﴿ فى عمد ممددة ﴾ فى محل نصب على الحال من الضمير فى ﴿ عليهم ﴾ أى كائنين فى عمد ممددة ، موثقين فيها . أو فى محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هم فى عمد أو صفة لمؤصدة ، أى مؤصدة بعمد ممددة . قال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدت بأوتاد من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح . ومعنى كون العمد ممددة : أنها مطولة . وهى أرسخ من القصيرة . وقيل : العمد : أغلال فى جهنم . وقيل : القيود . قال قتادة : المعنى : هم فى عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير . قرأ الجمهور : ﴿ فى عمد ﴾ بفتح العين والميم . وقيل : هو اسم جمع لعمود . وقيل : جمع له . قال الفراء : هى جمع لعمود ، كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هى جمع عماد . وقرأ حمزة والكسائى وأبو بكر بضم العين والميم جمع عمود . قال الفراء : هما جمعان صحيحان لعمود . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور . قال الجوهري : العمود : عمود البيت . وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد . وقرئ بهما . قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن طرق عن ابن عباس ؛ أنه سئل عن قوله : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : هو المشاء بالنميمة ، المرفق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ ويل لكل همزة ﴾ قال : طعان . ﴿ لمزة ﴾ قال : مغتاب . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عنه أيضاً فى قوله : ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ قال : مطبقة . ﴿ فى عمد ممددة ﴾ قال : عمد من نار . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : هى الأدهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هى الممددة . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال : أدخلهم فى عمد ، فمدت عليهم فى أعناقهم ، فشدت بها الأبواب .

تفسير سورة الفيل

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ .

الاستفهام فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها . قال الفراء : المعنى : أَلَمْ تخبر . وقال الزجاج : أَلَمْ تعلم . وهو تعجب له ﷺ . ﴿ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحيشة . و ﴿ كَيْفَ ﴾ منصوبة بالفعل الذى بعدها ، ومعلقة لفعل الرؤية . والخطاب لرسول الله ﷺ . ويجوز أن يكون لكل من يصلح له ، والمعنى : قد علمت يا محمد ، أو علم الناس الموجودون فى عصرك ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه أفيال وفيول وفيلة . قال ابن السكيت : ولا تقول : أفيلة . وصاحبه فيال . وسيأتى ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله . ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أى أَلَمْ يجعل مكرهم وسعيهم فى تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها فى تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم . والهمزة للتقرير ، كأنه قيل : قد جعل كيدهم فى تضليل . والكيد هو إرادة المضره بالغير . لأنهم أرادوا أن يكيّدوا قريشاً بالقتل والسبى ، ويكيّدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أى أفاطيع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤبلة . قال أبو عبيدة : ﴿ أَبَابِيلَ ﴾ : جماعات فى تفرقة . يقال : جاءت الخيل أبابيل ، أى جماعات من ههنا وههنا . قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام . يقال : فلان توبل على فلان ، أى تعظم عليه وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذى لا واحد له . وقال بعضهم : واحده «أبول» مثل «عجول» . وقال بعضهم أبيل . قال الواحدى : ولم نر أحداً يجعل لها واحداً ، قال الفراء لا واحد له من لفظه . وزعم الرؤاسى ، وكان ثقة ، أنه سمع فى واحدها : «أباله» مشدداً . وحكى الفراء أيضاً «أباله» بالتخفيف . قال سعيد بن جبيرة : كانت طيراً من السماء ، لم ير قبلها ولا بعدها . قال قتادة : هى طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً

فوجًا ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران في رجله ، وحجر في منقاره لا يصيب شيئًا إلا هشمه . وقيل : كانت طيرًا خضرًا خرجت من البحر لها رؤوس كروؤوس السباع . وقيل : كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب . وقيل في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبايل في الطير ، كما في قول الشاعر :

تراهم إلى الداعي سرعًا كأنهم
وتستعملها في غير الطير كقول الآخر :

كانت تُهدُّ من الأصواتِ راحلتى أن سالت الأرض بالجرد الأبايل

﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ الجملة في محل نصب صفة لطير قرأ الجمهور : ﴿ ترميهم ﴾ بالفوقية . وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحتية . واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل : الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل . قال الزجاج : ﴿ من سجيل ﴾ أى مما كتب عليهم العذاب به مشتقًا من السجل . قال في الصحاح : قالوا : هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم ، مكتوب فيها أسماء القوم . قال عبد الرحمن بن أبىزى : ﴿ من سجيل ﴾ : من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط . وقيل : من الجحيم التى هى سجين ، ثم أبدلت النون لامًا ، ومنه قول ابن مقبل :

ضربا تواصت به الأبطال سجيلا

وإنما هو سجين . قال عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها . فإذا أصاب أحدهم حجر منها ، خرج به الجدرى . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة . وقد قدمنا الكلام فى : ﴿ سجيل ﴾ فى سورة هود . ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أى جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب ، فرمت به من أسفل . شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه . وقيل : المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب ، وبقي منه بقايا ، أو أكلت حبه فبقى بدون حبه . والعصف جمع عصفة وعصافة وعصيفة . وقد قدمنا الكلام فى العصف فى سورة الرحمن ، فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله ، لم يسلط عليه أحد . قالوا : لا نرجع حتى نهدمه . وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر ، فدعا الله الطير الأبايل ، فأعطاه حجارة سودًا عليها الطين . فلما حاذتهم رمتهم ، فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكمة ، فكان لا يحك الإنسان منهم جلده ، إلا تساقط لحمه . وأخرج ابن المنذر والحاكم وأبو نعيم والبيهقى عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة

استقبلهم عبد المطلب ، فقال للملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فئاتيك بكل شيء فقال : أخبرت بهذا البيت الذى لا يدخله أحد إلا آمن ، فجئت أخيف أهله . فقال : إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع ، فأبى إلا أن يدخله . وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله . فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر ، حتى أظلتهم طير أباييل التى قال الله : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ فجعل الفيل يعرج عرجاً ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . وقصة أصحاب الفيل مبسوبة مطولة فى كتب التاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قال : حجارة مثل البندق ، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران فى رجله ، وحجر فى منقاره ، حلقت عليهم من السماء ، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم . وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيراً أباييل ، يريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها ، ترمسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظاماً خاوية لا لحم عليها ، ولا جلد ، ولا دم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عنه أيضاً : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ، يقول : كالتين . وأخرج ابن إسحاق فى السيرة ، والواقدي وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان . وأخرج الواقدي نحوه عن أسماء بنت أبى بكر . وأخرج أبو نعيم والبيهقى عن ابن عباس قال : ولد النبى ﷺ عام الفيل . وأخرج ابن إسحاق وأبو نعيم والبيهقى عن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل .

تفسير سورة قريش

ويقال : سورة ﴿لإيلاف﴾ . وهى أربع آيات . وهى مكية عند الجمهور . وقال الضحاك والكلبي : هى مدنية . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿لإيلاف﴾ بمكة . وأخرج البخارى فى تاريخه ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقى عن أم هانئ بنت أبى طالب ؛ أن رسول الله ﷺ قال : فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ، ولا يعطيها أحداً بعدهم ، أنى فيهم . وفى لفظ : النبوة فيهم . والخلافة فيهم . والحجابه فيهم . والسقاية فيهم . ونصروا على الفيل . وعبدوا الله سبع سنين . وفى لفظ عشر سنين . لم يعبد أحد غيرهم . ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم : ﴿لإيلاف قريش﴾ (١) . قال ابن كثير : هو حديث غريب . ويشهد له ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبد إلا قريش ، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم ، وهى : ﴿لإيلاف قريش﴾ ، وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية (٢) . وأخرج الخطيب فى تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه . وهو مرسل .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لإيلاف قريش﴾ (١) إيلافهم رحلة الشتاء والصيف (٢) فليعبدوا رب هذا البيت (٣) الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (٤) .

اللام فى قوله : ﴿لإيلاف﴾ قيل : هى متعلقة بآخر السورة التى قبلها . كأنه قال سبحانه : أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش . قال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة . ثم قال : ﴿لإيلاف قريش﴾ أى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش . وذلك أن قريشاً كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يغار عليها فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله عز وجل . حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتاً فى اليمن يحج الناس إليه ، فأهلكهم الله عز وجل ، فذكرهم بنعمته ، أى فعل ذلك لإيلاف قريش ، أى ليألفوا الخروج

(١) الطبرانى ٤٠٩/١٠ (٩٩٤) والحاكم ٥٤/٤ وسكت عنه .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٢٧/١٠ ، ٢٨ : «رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه من ضعف وثقهم ابن حبان» .

ولا يجترأ عليهم . وذكر نحو هذا ابن قتيبة . قال الزجاج : والمعنى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، أى أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف . وقال فى الكشف : إن اللام متعلق بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ . أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين . ودخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : أما لا فليعبدوه . وقد تقدم صاحب الكشف إلى هذا القول الخليل بن أحمد ، والمعنى : إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة . وقال الكسائى والأخفش : اللام لام التعجب ، أى اعجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هى بمعنى « إلى » . قرأ الجمهور : « لإيلاف » بالياء مهموزاً من ألفت أولف إثلافا . يقال : ألفت الشيء ألفا وألّفا . وألّفته إيلافا بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر : « لإلاف » بدون الياء . وقرأ أبو جعفر : « لإلف » . وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوانكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف .

وقرأ عكرمة : « ليألف قريش » بفتح اللام على أنها لام الأمر . وكذلك هو فى مصحف ابن مسعود ، وفتح لام الأمر لغة معروفة . وقرأ بعض أهل مكة : « إلاف قريش » ، واستشهد بقول أبى طالب :

تذود الورى من عصبة هاشمية إلافهم فى الناس خير إلاف

وقريش هم بنو النضير بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشى ، ومن لم يلد له النضر فليس بقرشى . وقريش يأتى منصرفاً إن أريد به الحى ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، ومنه قول الشاعر :

وكفى قريش المعضلات وسادها

وقيل : إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر . والأول أصح . وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل من إيلاف قريش . و﴿ رحلة ﴾ مفعول به لإيلافهم ، وأفردها ولم يقل رحلتى الشتاء والصيف لأمن الإلباس . وقيل : إن ﴿ إيلافهم ﴾ تأكيد للأول لا بدل . والأول أولى . ورجحه أبو البقاء . وقيل : إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر ، أى ارتحالهم رحلة الشتاء والصيف . وقيل : هى منصوبة على الظرفية . والرحلة : الارتحال . وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن فى الشتاء لأنها بلاد حارة . والرحلة الأخرى إلى الشام فى الصيف لأنها بلاد باردة ، وروى أنهم كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . والأول أولى ، فإن ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف في الجاهلية والإسلام . قال ابن قتيبة : إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان في كل سنة ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام . ولولا الأمن بجوارهم البيت ، لم يقدروا على التصرف .

﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم ، أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة . والبيت : الكعبة . وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها . وقيل : لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته . ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما . وقيل : إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ ، دعا عليهم فقال : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاشتد القحط . فقالوا : يا محمد ، ادع الله لنا ، فإننا مؤمنون . فدعا ، فأخصبوا ، وزال عنهم الجوع ، وارتفع القحط (١) . ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : آمنهم من خوف الحيشة مع القيل .

وقد أخرج أحمد وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ ويحكم يا قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ قال : نعمتي على قريش . ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف . ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ قال : الكعبة . ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ قال : الجذام . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عنه : ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم ﴾ قال : لزومهم . ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ يعني : قريشا أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال : ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ [البقرة : ١٢٦] ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ حيث قال إبراهيم : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم : ٣٥] وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ لإيلاف قريش . . . ﴾ الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة ، وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة . وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ، ولم يكن لهم

(١) مسلم في المساجد (٦٧٥/٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) أحمد ٦/٤٦٠ وقال الهيثمي في المجمع ١٤٦/٧ : « فيه عبادة الله بن أبي زياد القداح وشهر بن حوشب وقد وثقا ، وفيهما ضعف ، وبقي رجال أحمد ثقات » .

راحة فى شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف ، فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم . وأخرج ابن جرير عنه أيضا فى الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف . وقد وردت أحاديث فى فضل قريش ، وأن الناس تبع لهم فى الخير والشر ، وأن هذا الأمر ، يعنى الخلافة ، لا يزال فيهم ما بقى منهم اثنان ، وهى فى دواوين الإسلام .

تفسير سورة أُرأيت

ويقال : سورة الدين . ويقال : سورة الماعون . ويقال : سورة اليتيم . وهى سبع آيات . وهى مكية فى قول عطاء وجابر ، وأحد قولى ابن عباس ومذنية فى قول قتادة وآخرين . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ أُرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُرأيت الذى يكذب بالدين ﴾ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) .

الخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل من يصلح له . والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين . والرؤية بمعنى : المعرفة . والدين : الجزاء والحساب فى الآخرة . قيل : وفى الكلام حذف ، والمعنى : أُرأيت الذى يكذب بالدين ، أمصيب هو أم مخطئ ؟ قال مقاتل والكلبي : نزلت فى العاص بن وائل السهمي . وقال السدي : فى الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك : فى عمرو بن عائذ . وقال ابن جريج : فى أبى سفيان . وقيل : فى رجل من المنافقين . قرأ الجمهور : ﴿ أُرأيت ﴾ بإثبات الهمزة الثانية . وقرأ الكسائي بإسقاطها . قال الزجاج : لا يقال فى « رأيت » : ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفا . وقيل : الرؤية هى البصرية ، فيتعدى إلى مفعول واحد وهو الموصول ، أى أبصرت المكذب . وقيل : إنها بمعنى أخبرنى . فيتعدى إلى اثنين ، الثانى محذوف ، أى من هو ؟

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ الفاء جواب شرط مقدر ، أى إن تأملته أو طلبته فذلك الذى يدع اليتيم ، ويجوز أن تكون عاطفة على الذى يكذب إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة . فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبراً لمبتدأ محذوف ، أى فهو ذلك . والموصول صفة . وعلى الثانى يكون فى محل نصب لعطفه على الموصول الذى هو فى محل نصب . ومعنى ﴿ يدع ﴾ : يدفع دفعاً بعنف وجفوة ، أى يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً . ومنه قوله سبحانه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ [الطور : ١٣] وقد قدمنا أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان . ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴾ أى لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلا بالمال ، أو تكذيباً بالجزاء وهو مثل قوله فى سورة الحاقة : ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴾ [الحاقة : ٣٤] .

﴿ فويل ﴾ يومئذ ﴿ للمصلين ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل : إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، أى عذاب لهم أو هلاك ، أو واد فى جهنم لهم كما سبق الخلاف فى معنى الويل . ومعنى ﴿ ساهون ﴾ : غافلون غير مباليين بها . ويجوز أن تكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخرى غير ما ذكر . قال الواحدى : نزلت فى المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها . وإذا كانوا مع المؤمنين ، صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم ، لم يصلوا . وهو معنى قوله : ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ أى يراؤون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليشوا عليهم . قال النخعى : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ : هو الذى إذا سجد ، قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً . وقال قطرب : هو الذى لا يقرأ ولا يذكر الله . وقرأ ابن مسعود : الذين هم عن صلاتهم لاهون . ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال أكثر المفسرين : ﴿ الماعون ﴾ : اسم لما يتعاوزه الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر . وما لا يمنع كالماء والملح . وقيل : هو الزكاة ، أى يمنعون زكاة أموالهم . وقال الزجاج وأبو عبيد والمبرد : الماعون فى الجاهلية : كل ما فيه منفعة حتى الفأس والدلو والقدر والقداحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهم لم تغم

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد أيضاً : والماعون فى الإسلام : الطاعة ، والزكاة ، وأنشدوا قول الراعى :

أخليفة الرحمن إنا معشر
عرب نرى لله من أموالنا
حُنْفَاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً
حَقَّ الزَّكَاةِ مَنْزَلاً تَنْزِيلاً
قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْنَعُوا
مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا

وقيل : ﴿ الماعون ﴾ : الماء . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون : الماء . وأنشدنى :

تمج صبيرة الماعون صبا

والصبيرة : السحاب . وقيل : ﴿ الماعون ﴾ : هو الحق على العبد على العموم . وقيل : هو المستغل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن وهو القليل . قال قطرب : أصل الماعون من القلة . والمعنى : الشئ القليل . فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا ؛ لأنه قليل من كثير . وقيل : هو ما لا يبخل به ، كالماء والملح والنار .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ قال : يكذب بحكم الله . ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عنه : ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهى الماعون . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يتركون الصلاة فى السر ، ويصلون فى العلانية . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقي فى سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبى : أرأيت قول الله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أين لا يسهو؟ أين لا يحدث نفسه؟ قال : إنه ليس ذلك . إنه إضاعة الوقت .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي فى سننه عن سعد بن أبى وقاص قال : سألت النبى ﷺ عن قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » (١) . قال الحاكم والبيهقي : الموقوف أصح . قال ابن كثير : وهذا يعنى الموقوف أصح إسناداً . قال : وقد ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه ، وكذلك الحاكم (٢) . وأخرج ابن جرير وابن مردويه قال السيوطى : بسند ضعيف ، عن أبى برزة الأسلمى قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه » وفى إسناده جابر الجعفى ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم (٣) . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائى والبخارى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والطبرانى فى الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي فى سننه من طرق عن ابن مسعود قال : كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم . وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم ، فأنزل الله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن عساكر عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى الآية قال : « ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه » . وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن قرّة ابن دعموص النميرى : أنهم وفدوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ما تعهد إلينا ؟

(١) أبو يعلى (٨٢٢) وابن جرير ٢٠٢/٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٦/٧ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عكرمة بن إبراهيم وهو ضعيف جداً » .

(٢) ابن كثير ٣٨٠/٧ . (٣) ابن جرير ٢٠٢/٣٠ .

قال : « لا تمنعوا الماعون » . قالوا : وما الماعون ؟ قال : « في الحجر والحديدة وفي الماء » . قالوا : فأى الحديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذي تمتهنون به » . قالوا : وما الحجر ؟ قال : « قدوركم الحجارة » . قال ابن كثير : غريب جداً ، ورفع منكر ، وفي إسناده من لا يعرف . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي ﷺ : « الماعون » : الفأس والقدر والدلو ^(١) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم والبيهقي ، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال : عارية متاع البيت . وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال : « الماعون » : الزكاة المفروضة « يراؤون » بصلاتهم « ويمنعون » زكاتهم .

(١) ابن أبي شيبة ٢٠٣/٣ وابن جرير ٢٠٥/٣٠ .

تفسير سورة الكوثر

هى ثلاث آيات . وهى مكية فى قول ابن عباس والكلبى ومقاتل . ومدنية فى قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة : أنها نزلت سورة الكوثر بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝ ﴾ .

قرأ الجمهور: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ . وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفرانى: « أنطيناك » بالنون . قيل: هى لغة العرب العاربة ، قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك يسان الحلال وتنطى الحلولا

والكوثر فوعل من الكثرة ، وصف به للمبالغة فى الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر . والعرب تسمى كل شئ كثير فى العدد أو القدر أو الخطر : كوثرًا ، ومنه قول الشاعر :

وقد ثار نفع الموت حتى تكوثر

فالمعنى على هذا : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّد الْخَيْر الكثير البالغ فى الكثرة إلى الغاية . وذهب أكثر المفسرين كما حكاه الواحدى إلى أن الكوثر نهر فى الجنة . وقيل : هو حوض النبى ﷺ فى الموقف ، قاله عطاء . وقال عكرمة : الكوثر : النبوة . وقال الحسن : هو القرآن . وقال الحسن ابن الفضل : هو تفسير القرآن ، وتخفيف الشرائع . وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة . وقال ابن كيسان : هو الإيثار . وقيل : هو الإسلام . وقيل : رفعة الذكر . وقيل : نور القلب . وقيل : الشفاعة . وقيل : المعجزات . وقيل : إجابة الدعوة . وقيل : لا إله إلا الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس . وسيأتى بيان ما هو الحق .

﴿ فصل لربك ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والمراد : الأمر له ﷺ بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة . ﴿ وانحر ﴾ البدن التى خيار أموال العرب . قال محمد بن كعب : إن ناسًا كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونحره له . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد : صلاة العيد، ونحر الأضحية . وقال سعيد بن جبیر : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن فى منى . وقيل : النحر : وضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب . وقيل : هو أن يرفع يديه فى الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره . وقيل : هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبى وأبو الأحوص . قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : نتناحر ، أى نتقابل نحر

هذا إلى نحر هذا ، أى قبالة ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنتَ عمُّ مُجَالِدٍ وسيدُّ أهلِ الأَبْطَحِ المُتَنَاحِرِ

أى المتقابل . وقال ابن الأعرابى : هو انتصاب الرجل فى الصلاة بإزاء المحراب . من قولهم : منازلهم تتناحر: تتقابل . وروى عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوى بين السجدين جالسا حتى يبدو نحره . وقال سليمان التيمى : المعنى : ارفع يديك بالدعاء إلى نحره . وظاهر الآية الأمر له ﷺ بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلها لله عز وجل لا لغيره . وما ورد فى السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو فى حكم التقييد له . وسيأتى إن شاء الله . ﴿ إن شانتك هو الأبتَر ﴾ أى إن مبغضك هو المقطع عن الخير على العموم . فيعم خيري الدنيا والآخرة ، أو الذى لا عقب له ، أو الذى لا يبقى ذكره بعد موته . وظاهر الآية العموم ، وأن هذا شأن كل من يبغض النبی ﷺ ، ولا ينافى ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما مر غير مرة . قيل : كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل ، قالوا : قد بتر فلان . فلما مات ابن رسول الله ﷺ إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد ^(١) . فنزلت الآية . وقيل : القائل بذلك عقبه ابن أبى معيط . قال أهل اللغة : الأبتَر من الرجال : الذى لا ولد له . ومن الدواب : الذى لا ذنب له . وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتَر . وأصل البتر : القطع . يقال : بترت الشئ بترًا : قطعته .

وقد أخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أنس قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتمسًا فقال : « إنه أنزل على أنفا سورة » فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها . قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « هو نهر أعطانيه ربى فى الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آتيته كعدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتى ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدث بعدك » ^(٢) .

وأخرج أيضًا مسلم فى صحيحه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت يدي إلى ما يجرى فيه الماء فإذا مسك أذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله » ^(٣) . وقد روى عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذى فى الجنة .

(١) هذا القول فيه نظر ، فقد ولد إبراهيم بعد الحديبية ومات أبو جهل فى غزوة بدر . ابن هشام ٢/٢٧٨ ط . الريان للتراث .

(٢) ابن أبى شيبه (١١٧٠١) وأحمد ٣/١٠٢ وأبو داود فى السنة (٤٧٤٧) والنسائي فى التفسير (٧٢٢) وابن جرير ٣٠/٢٠٩ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٩٦٤) ومسلم فى الصلاة (٥٣/٤٠٠) .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخارى وابن جرير وابن مردويه عن عائشة ؛ أنها سئلت عن قوله : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قالت : هو نهر أعطيه نبيكم ﷺ في بطنان الجنة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر في الجنة . وأخرج الطبراني في الأوسط عن حذيفة في قوله : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ قال : نهر في الجنة . وحسن السيوطي إسناده . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعا ؛ أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك أعطيت نهرا في الجنة يدعى الكوثر ؟ فقال : « أجل ، وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ » (١) . وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ؛ أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما الكوثر ؟ قال : « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » . فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة ، فيتعين المصير إليها وعدم التعويل على غيرها . وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير في لغة العرب ، فمن فسر به بما هو أعم مما ثبت عن النبي ﷺ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي .

كما أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ، والترمذي وصححه ، وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار : قال سعيد بن جبيرة في الكوثر : قلت : حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير . فقال : صدق ، إنه للخير الكثير . ولكن حدثنا ابن عمر قال : نزلت : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر في الجنة ، حافته من ذهب ، يجري على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل » (٢) . وأخرج البخارى وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبيرة : فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضى الله عنه ناظر إلى المعنى اللغوي كما عرفناك ، ولكن رسول الله ﷺ قد فسرهما فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة . وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ﷺ : ﴿ **إنا أعطيناك الكوثر** . فصل لربك وانحر ﴾ قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما هذه النجيرة التي أمرني بها ربى » ، فقال : إنها ليست بنجيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة . قال النبي ﷺ : « رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : ﴿ **فما استكانوا لربهم وما يتضرعون** ﴾ » [المؤمنون : ٧٦] وهو طريق مقاتل بن

(١) ابن جرير ٢١٠ / ٣٠ .

(٢) ابن ماجه في الزهد (٤٣٣٤) .

حيان عن الأصبع بن نباته عن علي^(١) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرِكَ إذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر . وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخارى في تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ، والدارقطنى في الأفراد ، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه ، والبيهقى في سننه عن علي بن أبي طالب في قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ، ثم وضعهما على صدره في الصلاة^(٢) . وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقى في سننه عن أنس عن النبي ﷺ مثله^(٣) .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن شاهين في سننه ، وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع ، فاستو قائماً . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحى . وأخرج البيهقى في سننه عنه : ﴿ وانحر ﴾ قال : يقول : واذبح يوم النحر . وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابئ المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة . قال : أتم خير منه ، فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ فلن تجد له نصيراً ﴾ [النساء : ٥١ ، ٥٢]^(٤) . قال ابن كثير : وإسناده صحيح . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال : لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ، مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابئ قد بتر الليلة ، فأنزل الله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخر السورة^(٥) . وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم ، وهو أول ميت من أهله ولده بمكة . ثم مات عبد الله ، فقال العاص ابن وائل السهمي : قد انقطع نسله ، فهو أبتر ، فأنزل الله : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ . وفي إسناده الكلبي . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ قال : أبو جهل . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه : ﴿ إن شانئك ﴾ يقول : عدوك^(٦) .

(١) الحاكم ٥٣٨/٢ وسكت عنه ، وقال الذهبي : « فيه إسرائيل صاحب عجائب لا يعتمد عليه ، وأصيب شيعي متروك عند النسائي » والبيهقى ٧٥/٢ .

(٢) ابن جرير ٢١٠/٣٠ والحاكم ٥٣٧/٢ وسكت عنه ، ولم يتكلم فيه الذهبي ، والبيهقى ٣٠/٢ .

(٣) البيهقى ٣١/٢ .

(٤) ابن جرير ٢١٣/٣٠ وصحح إسناده ابن كثير ٣٨٩/٧ .

(٥) الطبراني (٤٠٧١) وقال الهيثمي في المجمع ١٤٦/٧ : « فيه واصل بن السائب ، وهو متروك » .

(٦) ابن جرير ٢١٢/٣٠ .

تفسير سورة « الكافرون »

هي ست آيات . وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ومدينة في أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت سورة ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزلت ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ بالمدينة . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة وبـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في ركعتي الطواف (١) . وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر (٢) . وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بضعا وعشرين مرة ، أو بضع عشرة مرة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٣) . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال : كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿ سبح ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (٤) .

وأخرج محمد بن نصر ، والطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن ، و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن » . وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر . وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ كانت له عدل ربع القرآن » . وأخرج الطبرانى فى الصغير ، والبيهقى فى الشعب عن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ، ومن قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن » (٥) . وأخرج أحمد وابن الضريس والبعغوى وحامد بن زنجويه فى ترمذيه عن شيخ أدرك النبى ﷺ قال : خرجت مع النبى ﷺ فى سفر فمر برجل يقرأ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فقال : « أما هذا فقد برئ من الشرك » ، وإذا آخر يقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال النبى ﷺ : « بها وجبت له الجنة » (٦) . وفى رواية : « أما هذا فقد غُفر له » .

وأخرج ابن أبى شيبه وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائي ، وابن الأنبارى فى المصاحف ، والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب ، عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعى عن أبيه ؛ أنه قال : يا رسول الله ، علمنى ما أقول إذا أويت إلى فراشى . قال :

(١) مسلم فى الحج (١٢١٨ / ١٤٧) . (٢) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٦ / ٩٨) .
(٣) أحمد ٢٤ / ٢ والترمذى فى الصلاة (٤١٧) وقال : « هذا حديث حسن » والنسائي ١٧٠ / ٢ وابن ماجة فى الصلاة (١١٤٩) وابن حبان (٢٤٥٠) .
(٤) صححه الحاكم ٢٥٧ / ٢ وقال الذهبى : « محمد رازى تفرد بأحاديث » .
(٥) الطبرانى فى الصغير ٦١ / ١ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٩ / ٧ : « فيه من لم أعرفهم » والبيهقى فى الشعب (٢٢٩٧) وإسناده ضعيف .
(٦) أحمد ٦٣ / ٤ ، ٦٤ .

«اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمها ، فإنها براءة من الشرك » (١) . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه مرفوعاً مثله. وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لنوفل بن معاوية الأشجعي : « إذا أتيت مضجعك للنوم فاقراً : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ، فإنك إذا قلتها ، فقد برئت من الشرك ». وأخرج أحمد ، والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة ، وقال الطبراني : عن جبلة بن حارثة ، وهو أخو زيد بن حارثة ، قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئاً أقوله عند منامي ، قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل ، فاقراً : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى تمر بآخرها ، فإنها براءة من الشرك ». وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : «اقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند منامك ، فإنها براءة من الشرك » (٢) .

وأخرج أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرأون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند منامكم » . وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه عن خباب ، أن النبي ﷺ قال : « إذا أخذت مضجعك ، فاقراً : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وإن النبي ﷺ لم يأت فراشه قط ، إلا قرأ : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى يختم » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ » . وأخرج أبو عبيد في فضائله ، وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال : من قرأ : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ .

الألف واللام في : ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره ، كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك ؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه . وسبب نزول هذه السورة : أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فأمره الله سبحانه أن يقول

(١) ابن أبي شيبة (٦٥٧٩) وأحمد ٤٥٦/٥ وأبو داود في الأدب (٥٠٥٥) والترمذي في الدعوات (٣٤٠٣) والنسائي في التفسير (٧٢٩)، وصححه الحاكم ٥٣٨/٢ ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الشعب (٢٢٩٠) ورجاله ثقات

(٢) البيهقي في الشعب (٢٢٩١) .

(٣) الطبراني (٣٧٠٨) وقال الهيثمي في المجمع ١٢٤/١٠ : « فيه جابر الجعفي وهو ضعيف » .

لهم : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ^(١) أى لا أفعل ما تطلبون منى من عبادة ما تعبدون من الأصنام .
 قيل : والمراد فيما يستقبل من الزمان ؛ لأن « لا » النافية لا تدخل فى الغالب إلا على المضارع
 الذى فى معنى الاستقبال ، كما أن « ما » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال . ﴿ ولا أنتم
 عابدون ما أعبد ﴾ أى ولا أنتم فاعلون فى المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهى . ﴿ ولا أنا عابد
 ما عبدتم ﴾ أى ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه . والمعنى : أنه لم يعهد منى ذلك .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أى وما عبدتم فى وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا
 قيل ، وهذا على قول من قال : إنه لا تكرر فى هذه الآيات ؛ لأن الجملة الأولى لنفى العبادة
 فى المستقبل ، لما قدمنا من أن « لا » لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الاستقبال والدليل على
 ذلك أن « لن » : تأكيد لما تنفيه « لا » . قال الخليل فى « لن » : إن أصله « لا » فالمعنى : لا
 أعبد ما تعبدون فى المستقبل . ولا أنتم عابدون فى المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهى . ثم قال :
 ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أى ولست فى الحال بعباد معبودكم ، ولا أنتم فى الحال بعبادين
 معبودى . وقيل بعكس هذا ، وهو أن الجملتين الأولىين للحال والجملتين الأخريين للاستقبال
 بدليل قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ كما لو قال القائل : أنا ضارب زيداً ، وأنا قاتل عمرا ،
 فإنه لا يفهم منه إلا الاستقبال . قال الأخفش والفراء : المعنى : لا أعبد الساعة ما تعبدون ، ولا
 أنتم عابدون الساعة ما أعبد ، ولا أنا عابد فى المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون فى المستقبل
 ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله ﷺ بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه فى الحال وفيما
 يستقبل ونفى عنهم عبادة الله فى الحال وفيما يستقبل . وقيل : إن كل واحد منهما يصلح للحال
 والاستقبال ، ولكننا نخص أحدهما بالحال ، والثانى بالاستقبال رفعاً للتكرار . وكل هذا فيه من
 التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف فإن جعل قوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ للاستقبال
 وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتم جعل قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما
 أعبد ﴾ للاستقبال ؛ لأن الجملة إسمية تفيد الدوام والثبات فى كل الأوقات . ولو كان حملها
 على الاستقبال صحيحاً ، للزم مثله فى قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، وفى قوله : ﴿ ولا
 أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا
 يندفع ما قيل من العكس ؛ لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل إسمية مصدرة بالضمائر
 التى هى المبتدأ فى كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده ، منفية كلها بحرف
 واحد ، وهو لفظ « لا » فى كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها فى
 الحال والاستقبال مختلفة؟ وأما قول من قال : إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو
 إقرار منه بالتكرار ؛ لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب
 التحكم الذى لا يدل عليه دليل .

(١) الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٦١ .

وإذا تقرر لك هذا ، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذهبهم التي لا تجحد ، واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرروا ، كما أن من مذهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا . هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه ، وأما ما كان من الوضوح والظهور والجللاء بحيث لا يشك فيه شك ، ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج إلى كثير القول والقليل . وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن . وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر . ومن ذلك قول الشاعر :

يا لبكر أنشروا لى كلييا
وقول الآخر :

هلا سألت جموع كند
وقول الآخر :

يا علقمة يا علقمة يا علقمة
وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى
وقول آخر :

يا جعفر يا جعفر يا جعفر
وقول الآخر :

أناك أناك اللاحقون احبس احبس

وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة ، أعادها ثلاث مرات . وإذا عرفت هذا ، ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله ﷺ إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم . وإنما عبر سبحانه بـ « ما » التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة ؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله : سبحان ما سخركن لنا ، ونحوه . والنكتة في ذلك أن يجرى الكلام على نمط واحد ولا يختلف . وقيل : إنه أراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق . وقيل : إن « ما » في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة ، أى لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى . . . إلخ ، وجملة : ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ . كما أن قوله : ﴿ ولى دين ﴾ تقرير لقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾

فى الموضوعين ، أى إن رضيتم بدينكم فقد رضيت بدينى ، كما فى قوله : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ [الشورى : ١٥] والمعنى : أن دينكم الذى هو الإشراك مقصور على الحصول لكم ، لا يتجاوز إلى الحصول لى كما تطمعون . ودينى الذى هو التوحيد مقصور على الحصول لى ، لا يتجاوز إلى الحصول لكم . وقيل : المعنى : لكم جزاؤكم ولى جزائى ؛ لأن الدين الجزاء . قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل ليست بمنسوخة لأنها أخبار ، والأخبار لا يدخلها النسخ . قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله : ﴿ ولى ﴾ . وقرأ نافع وهشام وحفص واليزى بفتحها . وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من « دينى » وقفاً ووصلاً . وأثبتها نصر بن عاصم وسلام ويعقوب وصلاً ووقفاً . قالوا : لأنها اسم فلا تحذف . ويجب أن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسماً .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس ؛ أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا ، فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكف عن شتم آلهمنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : « ما هى ؟ » قالوا : تعبد آلهمنا سنة ، ونعبد إلهك سنة . قال : « حتى أنظر ما يأتينى من ربى » . فجاء الوحي من عند الله : ﴿ قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى آخر السورة . وأنزل الله : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر : ٦٤ - ٦٦] ^(١) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن سعيد بن مينا مولى أبى البحرى قال : لقي الوليد ابن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأميه بن خلف رسول الله ، قالوا : يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله ، فإن كان الذى نحن عليه أصح من الذى أنت عليه ، كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذى أنت عليه أصح من الذى نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً ، فأنزل الله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة ^(٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن قريشاً قالت : لو استلمت آلهمنا لعبدنا إلهك فأنزل الله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ السورة كلها .

تفسير سورة النصر

وتسمى سورة التوديع . هي ثلاث آيات . وهي مدنية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد والبخاري وأبو يعلى وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى ، وهو في حجة الوداع : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختمها ، فعرف رسول الله ﷺ أنها الوداع ^(١) . وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعت إلى نفسي » ^(٢) . وأخرج ابن مردويه عنه قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « نعت إلى نفسي ، وقرب إلى أجلى » . وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عنه أيضا قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ نعت لرسول الله نفسه حين أنزلت ، فأخذ في أشد ما كان قط اجتهدا في أمر الآخرة ^(٣) .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت : لما أنزل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يبعث نبيا إلا عمر في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله ، فإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل ، وهذه لى عشرون سنة ، وأنا ميت في هذه السنة » . فبكت فاطمة ، فقال النبي ﷺ : « أنت أول أهلي بى لحوقا » . فتبسمت . وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إنه قد نعت إلى نفسي » فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعت إليه نفسه فبكت ، فقال : « اصبري فإنك أول أهلي لحاقا بى » فضحكت ^(٤) . وقد تقدم في سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ^(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ^(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ^(٣) ﴾ .

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ، ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

بلاد تميم وانصرى أرض عامر

إذا انصرف الشهر الحرام فودعى

(٢) أحمد ٢١٧/١ وابن جرير ١٦/٣٠

(٤) البيهقي في الدلائل ١٦٧/٧ .

(١) البيهقي في الدلائل ٤٤٧/٥ .

(٣) النسائي في التفسير (٧٣٢) والطبراني (١١٩٠٣) .

يقال : نصره على عدوه ينصره نصرًا : إذا أعانه . والاسم النصره . واستنصره على عدوه : إذا سأله أن ينصره عليه . قال الواحدي : قال المفسرون : إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك وهم قريش ﴿والفتح﴾ فتح مكة . وقيل : المراد : نصره ﷺ على قريش من غير تعيين . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار . وقيل : هو فتح سائر البلاد . وقيل هو ما فتحه الله عليه من العلوم . وعبر عن حصول النصر والفتح بالمجئ ؛ للإيذان بأنهما متوجهان إليه ﷺ . وقيل : «إذا» بمعنى «قد» . وقيل : بمعنى «إذ» . قال الرازي : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقًا ، والنصر كالسبب للفتح . فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح . أو يقال : النصر : كمال الدين ، والفتح : إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة . أو يقال : النصر : الظفر ، والفتح : الجنة . هذا معنى كلامه . ويقال : الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم ، والاستعلاء عليهم ، والفتح : هو فتح مساكن الأعداء ، ودخول منازلهم .

﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا﴾ أى أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذى بعثك به جماعات فوجًا بعد فوج . قال الحسن : لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، قال العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجًا ، أى جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحدًا واحدًا ، واثنين اثنين ، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام . قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس : أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين . وانتصاب ﴿أفواجًا﴾ على الحال من فاعل يدخلون . ومحل قوله : ﴿يدخلون في دين الله﴾ النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية . وإن كانت بمعنى العلم فهو فى محل نصب على أنه المفعول الثانى .

﴿فسبح بحمد ربك﴾ هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله ، وقال مكى : العامل فى : «إذا» هو ﴿جاء﴾ . ورجحه أبو حيان ، وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها . وقوله : ﴿بحمد ربك﴾ فى محل نصب على الحال ، أى فقل : سبحان الله ملتبسًا بحمده ، أو حامدًا له . وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس . وبين الحمد له على جميل صنعه له ، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التى هى النصر والفتح لأُم القرى التى كان أهلها قد بلغوا فى عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم : هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن ، ونحو ذلك . ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه ﷺ بالاستغفار ، أى اطلب منه المغفرة لذنبك هضمًا لنفسك واستقصارًا لعملك ، واستدراكًا لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان ﷺ يرى قصوره عن القيام بحق الله ، ويكثر من الاستغفار والتضرع ، وإن كان

قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وقيل : إن الاستغفار منه ﷺ ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدتهم الله به ، لا لطلب المغفرة للذنوب كائن منهم . وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته وتعريضاً بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار . وقيل : إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه . وقيل : المراد بالتسبيح هنا : الصلاة . والأولى حملة على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة ، وفرحاً بما هيأه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ، ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم . قال الحسن : أعلم الله رسوله ﷺ أنه قد اقترب أجله ، فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اغفر لى إنك أنت التواب » . قال قتادة ومقاتل : وعاش ﷺ بعد نزول هذه السورة سنتين . وجملة : ﴿ إنه كان تواباً ﴾ تعليل لأمره ﷺ بالاستغفار ، أى من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليهم ويرحمهم بقبول توبتهم . وتواب من صيغ المبالغة . ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين . وقد حكى الرازى فى تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعى رسول الله ﷺ .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ؛ أن عمر سألهم عن قول الله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فقالوا : فتح المدائن والقصور . قال : فأنت يا ابن عباس ما تقول : قال : قلت مثل ضرب لمحمد ﷺ نعت له نفسه . وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم . فقال : ما تقولون فى قول الله عز وجل : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لى : أذكاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له . قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : لا أعلم منها إلا ما تقول .

وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبى بكر ؛ أن سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حين أنزلت على رسول الله أن نفسه نعت إليه . وأخرج ابن أبى شيبه وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : « سبحان الله وبحمده ، و أستغفره وأتوب إليه » . فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، و أستغفر الله وأتوب إليه . فقال : « خبرنى ربى أنى سارى علامة من أمتى . فإذا رأيتها ، أكثر من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها : ﴾ إذا

جاء نصر الله والفتح ﴿ فتح مكة . ﴾ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسيح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿ (١) . وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي » يتأول القرآن . يعنى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ . وفى الباب أحاديث (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : لما نزلت : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله ﷺ : « جاء أهل اليمن ، هم أرق قلوبا ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » . وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس ، قال : بينما رسول الله ﷺ فى المدينة إذ قال : « الله أكبر ، قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية » (٣) . وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا » . وأخرج الحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ قال : « ليخرجن منه أفواجا كما دخلوا فيه أفواجا » (٤) .

(١) ابن جرير ٢١٦/٣٠ .

(٢) أحمد ٤٣/٦ والبخارى فى التفسير (٤٩٦٨) ومسلم فى الصلاة (٢١٧/٤٨٤) وأبو داود فى الصلاة (٨٧٧) والنسائي فى التفسير (٧٣٠) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (٨٨٩) .

(٣) الطبراني (١١٩٠٣) .

(٤) صححه الحاكم ٤٩٦/٤ على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

تفسير سورة تبت

هى خمس آيات . وهى مكية بلا خلاف . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة قالوا : نزلت ﴿تبت يدا أبى لهب﴾ بمكة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ .

معنى ﴿تبت﴾ : هلكت . وقال مقاتل : خسرت . وقيل : خابت . وقال عطاء : ضلت . وقيل : صفرت من كل خير . وخص اليدين بالتيباب ؛ لأن أكثر العمل يكون بهما . وقيل : المراد باليدين : نفسه . وقد يعبر باليد عن النفس ، كما فى قوله : ﴿ بما قدمت يداك ﴾ [الحج : ١٠] أى نفسك . والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما فى قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب : اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم . وقوله : ﴿ وتب ﴾ أى هلك . قال الفراء : الأول دعاء عليه ، والثانى خبر كما تقول : أهلكه الله ، وقد هلك . والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : «وقد تب» . وقيل : كلاهما إخبار . أراد بالأول : هلاك عمله ، وبالثانى : هلاك نفسه . وقيل : كلاهما دعاء عليه . ويكون فى هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة . وذكره سبحانه بكنيته ؛ لاشتغاره بها ، ولكون اسمه كما تقدم : عبد العزى . والعزى اسم صنم . ولكون فى هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار ؛ لأن اللهب هى لهب النار وإن كان إطلاق ذلك عليه فى الأصل لكونه كان جميلا ، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار . قرأ الجمهور : ﴿لهب﴾ بفتح اللام والهاء . وقرأ مجاهد وحמיד وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء . واتفقوا على فتح الهاء فى قوله : ﴿ ذات لهب ﴾ . وروى صاحب الكشف أنه قرئ : «تبت يدا أبو لهب» ، وذكر وجه ذلك . ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أى ما دفع عنه ما حل به من التيباب ، وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه . أو المراد بقوله : ﴿ ماله ﴾ : ما ورثه من أبيه ، ويقول : ﴿ وما كسب ﴾ الذى كسبه بنفسه . قال مجاهد : ﴿ وما كسب ﴾ من ولد ، وولد الرجل من كسبه . ويجوز أن تكون « ما » فى قوله : ﴿ ما أغنى ﴾ استفهامية ، أى أى شىء أغنى عنه ؟ وكذا يجوز فى قوله : ﴿ وما كسب ﴾ أن تكون استفهامية ، أى وأى شىء كسب ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى وكسبه . والظاهر أن

«ما» الأولى نافية ، والثانية موصولة .

ثم أوعده سبحانه بالنار فقال : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ . قرأ الجمهور : ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء ، وإسكان الصاد ، وتخفيف اللام ، أى سيصلى هو بنفسه . وقرأ أبو رجاء وأبو حيوة وابن مقسم والأشهب العقيلي وأبو السماك والأعمش ومحمد بن السميعة بضم الياء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام . ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . والمعنى : سيصليه الله . ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ : ذات اشتعال وتوقد . وهى نار جهنم . ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير فى « يصلى » . وجاز ذلك للفصل ، أى وتصلى امرأته ناراً ذات لهب . وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان . وكانت تحمل الغضى والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبي ﷺ ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني . وقال مجاهد وقتادة والسدى : إنها كانت تمشى بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نم به ، ومنه قول الشاعر :

إن بنى الأدرم حمألوا الحطب
هم الوشاة فى الرضا والغضب
عليهم اللعنة تترى والحرب

وقال آخر :

من البيض لم يصطد على ظهر لامة ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب

وجعل الحطب فى هذا البيت رطباً ؛ لما فيه من التدخين الذى هو زيادة فى الشر ، ومن الموافقة للمشى بالنميمة . وقال سعيد بن جبير : معنى ﴿ حمالة الحطب ﴾ : أنها حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحطب على ظهره ، كما فى قوله : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [الأنعام : ٣١] . وقيل : المعنى : حمالة الحطب فى النار . قرأ الجمهور : « حمالة » بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبى لهب حمالة الحطب . وأما على ما قدسنا من عطف ﴿ وامرأته ﴾ على الضمير فى ﴿ تصلى ﴾ فيكون رفع « حمالة » على النعت لامرأته . والإضافة حقيقية ؛ لأنها بمعنى : المضى ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى هى حمالة . وقرأ عاصم بنصب : ﴿ حمالة ﴾ على الظم ، أو على أنه حال من ﴿ امرأته ﴾ . وقرأ أبو قلابة : « حاملة الحطب » . فى جيدها جبل من مسد ﴿ الجملة فى محل نصب على الحال من ﴿ امرأته ﴾ . والجيد : العنق . والمسد : الليف الذى تقتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقدوفة بدخيس النحض بازلهما له صريف صريف القعر بالمسد

وقول الآخر :

يامسد الخوص تعوذ منى إن كنت لندناً ليناً فإننى

وقال أبو عبيدة : المسد : هو الحبل يكون من صوف . وقال الحسن : هى حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد . وقد تكون الحبال من جلود الإبل ، أو من أوبارها . قال الضحاك وغيره : هذا فى الدنيا ، كانت تعبر النبی ﷺ بالفقر ، وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها ، فخنقها الله به فأهلكها . وهو فى الآخرة حبل من نار . وقال مجاهد وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها . وقال قتادة : هو قلادة من ودع كانت لها . قال الحسن : إنما كان خرزاً فى عنقها . وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللوات والعزى لأنفقنها فى عداوة محمد . فيكون ذلك عذاباً فى جسدها يوم القيامة . والمسد : القتل . يقال : مسد حبله يمسده مسداً : أجاد قتله .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ، قال : لما نزلت : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : ٢١٤] خرج النبی ﷺ حتى صعد الصفا ، فهتف : « يا صباحاه » . فاجتمعوا إليه فقال : « رأيتم لو أخبرتم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقاً ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب تباً لك ، إنما جمعنا لهذا ؟ ثم قام ، فنزلت هذه السورة : ﴿ تبث يدا أبى لهب وتب ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ تبث يدا أبى لهب ﴾ قال : خسرت . وأخرج ابن أبى حاتم عن عائشة قالت : إن أطيّب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه ، ثم قرأت : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ ، قالت : وما كسب : ولده . وأخرج عبد الرزاق والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وما كسب ﴾ قال : كسبه : ولده . وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وامراته حمالة الخطب ﴾ قال : كانت تحمل الشوك ، فتطرحه على طريق النبی ﷺ ليعقره وأصحابه . وقال : ﴿ حمالة الخطب ﴾ : نقالة الحديث . ﴿ حبل من مسد ﴾ قال : هى حبال تكون بمكة . ويقال : المسد : العصا التى تكون فى البكرة . ويقال : المسد : قلادة من ودع . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت : لما نزلت : ﴿ تبث يدا أبى لهب ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ،

(١) البخارى فى التفسير (٤٩٧٢) ومسلم فى الإيمان (٢٠٨ / ٣٥٥) والنسائي فى التفسير (٤٤٦) .

قد أقبلت ، وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ [الإسراء : ٤٥] فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر ، ولم تر رسول الله ﷺ ، فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرت أن صاحبك هجانى قال : لا ورب البيت ما هجاك ، فولت وهى تقول : قد علمت قريش أنى ابنة سيدها . وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد .

تفسير سورة الإخلاص

هى أربع آيات . وهى مكية فى قول ابن مسعود والحسن وعكرمة وجابر . ومدنية فى أحد قولى ابن عباس وقتادة والضحاك والسدى . وأخرج أحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وابن جرير وابن خزيمة ، وابن أبى عاصم فى السنة ، والبيهقى فى معجمه ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى ابن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك . فأنزل الله : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ﴾ ^(١) إلخ ، ليس شئ يولد إلاسيموت ، وليس شئ يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث ^(٢) . ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل ، وليس كمثل شئ . ورواه الترمذى من طريق أخرى عن أبى العالية مرسل ، ولم يذكر أبياً ، ثم قال : وهذا أصح ^(٣) . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر ، والطبرانى فى الأوسط ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى عن جابر قال : جاء أعرابى إلى النبي ﷺ فقال : انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى آخر السورة ^(٤) . وحسن السيوطى إسناده . وأخرج الطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن مسعود قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن عدى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ ، منهم كعب بن الأشرف وحى بن أخطب ، فقالوا : يا محمد ، صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل الله : ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ﴾ فيخرج منه الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج منه شئ ^(٥) . وأخرج أبو عبيد فى فضائله ، وأحمد ، والنسائى فى اليوم واللييلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه ، والضياء فى المختارة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن » ^(٦) . وأخرج ابن الضريس والبزار ، والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبي ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتى مرة غفر له ذنب مائتى سنة » ^(٧) . قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا الحسن بن أبى جعفر والأغلب بن تميم ، وهما يتقاربان فى سوء الحفظ .

(١) فى المخطوطة : ﴿ قل هو الله أحد . . . لم يلد ولم يولد ﴾ والصواب إثبات السورة كاملة .

(٢) أحمد ١٣٤ / ٥ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٤) وابن جرير ٢٢١ / ٣٠ ، وصححه الحاكم ٥٤٠ / ٢ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ٤١٩ / ١ ، ٤٢٠ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٣٦٥) .

(٤) أبو يعلى (٢٠٤٤) وابن جرير ٢٢١ / ٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٩ / ٧ : « رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو يعلى إلا أنه قال : إن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : انسب الله ، وفيه مجادل بن سعيد . قال ابن عدى : له عن الشعبى عن جابر ببقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) البيهقى فى الأسماء والصفات ٤١٩ / ١ .

(٦) أحمد ١٤١ / ٥ والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم واللييلة (١٠٥٢١ ، ١٠٥٢٢) .

(٧) البيهقى فى الشعب (٢٣١١) .

وأخرج أحمد والترمذى وابن الضريس، والبيهقى فى سنته عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أحب هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، فقال رسول الله ﷺ : « حبك إياها أدخلك الجنة » (١) . وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى ، وابن الأنبارى فى المصاحف عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرآت فى ليلة ؟ فإنها تعدل ثلث القرآن » وإسناده ضعيف .

وأخرج محمد بن نصر وأبو يعلى عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ خمسين مرة غفر له ذنوب خمسين سنة » وإسناده ضعيف . وأخرج الترمذى وابن عدى ، والبيهقى فى الشعب عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتى مرة ، كتب الله له ألفا وخمسمائة حسنة ، ومحا عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » (٢) ، وفى إسناده حاتم بن ميمون ضعفه البخارى وغيره ، ولفظ الترمذى : « من قرأ فى يوم مائتى مرة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين » ، وفى إسناده حاتم بن ميمون المذكور . وأخرج الترمذى ومحمد بن نصر وأبو يعلى وابن عدى والبيهقى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن ينال على فراشه من الليل فنام على يمينه ، ثم قرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب : يا عبدى ، ادخل على يمينك الجنة » (٣) وفى إسناده أيضا حاتم بن ميمون المذكور . قال الترمذى بعد إخراجه : غريب من حديث ثابت ، وقد روى من غير هذا الوجه عنه . وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى ، والبيهقى فى الدلائل عن أنس قال : كان النبى ﷺ بالشام ، وفى لفظ : بتبوك ، فهبط جبريل فقال : يا محمد ، إن معاوية بن معاوية المزنى هلك ، أفتحب أن تصلى عليه ؟ قال : « نعم » ، فضرب بجناحه الأرض فتضعض له كل شيء ولزق بالأرض ورفع له سريرته فصلى عليه ، فقال النبى ﷺ : « من أى شيء أوتى معاوية هذا الفضل ، صلى عليه صفان من الملائكة فى كل صف ستة آلاف ملك ؟ » قال : بقراءة : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ كان يقرؤها قائما وقاعدا وجائيا وذاهبا ونائما (٤) . وفى إسناده العلاء بن محمد الثقفى وهو متهم بالوضع . وروى عنه من وجه آخر بأطول من هذا ، وفى إسناده هذا المتهم . وفى الباب أحاديث فى هذا المعنى وغيره .

وقد روى من غير هذا الوجه أنها تعدل ثلث القرآن ، وفيها ماهو صحيح وفيها ماهو حسن ؛ فمن ذلك ما أخرجه مسلم ، والترمذى وصححه وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إني قلت : سأقرأ عليكم ثلث

(١) أحمد ١٥٠ / ٣ والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .

(٢) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) وقال : « حديث غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣١٦) .

(٣) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٨) والبيهقى فى الشعب (٢٣١٨) .

(٤) البيهقى فى الدلائل ٥ / ٢٤٥ ، ٢٤٦ وفى الشعب (٢٣٢٠ ، ٢٣٢١) وقال : مرسل .

القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » ^(١) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » . يعنى : « قل هو الله أحد » ^(٢) . وأخرج أحمد والبخارى وغيرهما من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينما يطيق ذلك ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » ^(٣) . وأخرج مسلم وغيره من حديث أبى الدرداء نحوه ^(٤) . وقد روى نحو هذا بإسناد صحيح من حديث أبى هريرة ، وحديث ابن مسعود ، وحديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط . وروى نحو هذا عن غير هؤلاء بأسانيد بعضها حسن ، وبعضها ضعيف .

ولو لم يرد فى فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخارى ومسلم وغيرهما أن النبى ﷺ بعث رجلا فى سرية ، فكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ « قل هو الله أحد » ، فلما رجعوا ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك ؟ » فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » هذا لفظ البخارى فى كتاب التوحيد ^(٥) . وأخرج البخارى أيضاً فى كتاب الصلاة من حديث أنس قال : كان رجل من الأنصار يؤمهم فى مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به ، افتتح بـ « قل هو الله أحد » حتى يفرغ منها . ثم يقرأ سورة أخرى معها . وكان يصنع ذلك فى كل ركعة . فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تحببك حتى تقرأ بالآخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى ، قال : ما أنا بتاركها إن أحببت أن أؤمكم بذلك ، فعلت ، وإن كرهتم ، تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، فكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما أتاهم النبى ﷺ أخبروه الخبر ، فقال : « يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما حملك على لزوم هذه السورة فى كل ركعة ؟ » فقال : إني أحبها . قال : « حبك إياها أدخلك الجنة » ^(٦) . وقد روى بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخارى ^(٧) .

(١) أبو يعلى (٢٠٤٤) بلفظ آخر ، وابن جرير ٢٢١/٣٠ وقال الهيثمى فى المجمع ١٤٩/٧ : « وفيه مجالد بن سعيد » .

(٢) مالك ٢٠٨/١ . ط . دار الحديث ، وأحمد ١٥/٣ والبخارى فى التوحيد (٧٣٧٤) .

(٣) أحمد ٨/٣ والبخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٥) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) وقال : « هذا حديث حسن » .

(٤) مسلم فى صلاة المسافرين (٨١١ / ٢٥٩) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٦) .

(٥) البخارى فى التوحيد (٧٣٧٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٣ / ٢٦٣) .

(٦) البخارى فى الأذان (٧٧٤) .

(٧) الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠١) وقال : « حسن غريب صحيح من هذا الوجه من حديث عبيد الله بن عمر عن ثابت » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ .

قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول ، وأن المشركين قالوا : يا محمد ، انسب لنا ربك . فيكون مبتدأ ، و﴿الله﴾ مبتدأ ثان . و ﴿ أحد ﴾ خبر المبتدأ الثانى ، والجملة خبر المبتدأ الأول . ويجوز أن يكون ﴿ الله ﴾ بدلا من ﴿ هو ﴾ والخبر ﴿ أحد ﴾ . ويجوز أن يكون الله خبراً أولاً ، و﴿ أحد ﴾ خبراً ثانياً ويجوز أن يكون ﴿ أحد ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف ، أى هو أحد . ويجوز أن يكون ﴿هو﴾ ضمير شأن لأنه موضع تعظيم . والجملة بعده مفسرة له ، وخبر عنه . والأول أولى . قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتهم تبين نسبته ، هو الله أحد . قيل : وهمزة ﴿ أحد ﴾ بدل من الواو . وأصله : واحد . وقال أبو البقاء : همزة ﴿ أحد ﴾ أصل نفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد . ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ، ولا درهم أحد . كما يقال : رجل واحد ، ودرهم واحد . قيل : والواحد يدخل فى الأحد ، والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت : لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان ، بخلاف قولك : لا يقاومه أحد . وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد : بأن الواحد يدخل فى العدد ، وأحد لا يدخل فيه . ورد عليه أبو حيان بأنه يقال : أحد وعشرون ، ونحوه ، فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى . ومن جملة القائلين بالقلب الخليل . قرأ الجمهور : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بإثبات ﴿ قل ﴾ . وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى : « الله أحد » بدون ﴿ قل ﴾ . وقرأ الأعمش : « قل هو الله الواحدى » . وقرأ الجمهور بتنوين ﴿ أحد ﴾ ، وهو الأصل . وقرأ زيد بن على وأبان بن عثمان وابن أبى إسحاق والحسن وأبو السمال وأبو عمرو فى رواية عنه بحذف التنوين للخفة ، كما فى قول الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف

وقيل : إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين . ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر . ﴿ الله الصمد ﴾ الاسم الشريف مبتدأ ، و ﴿ الصمد ﴾ خبره . والصمد : هو الذى يصمد إليه فى الحاجات ، أى يقصد لكونه قادراً على قضائها . فهو فعل بمعنى مفعول ، كالقبض بمعنى المقبوض ؛ لأنه مضمود إليه ، أى مقصود إليه . قال الزجاج : الصمد : السند الذى انتهى إليه السؤدد . فلا سيد فوقه ، قال الشاعر :

ألا بكر الناعى بخير بنى أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل : معنى الصمد : الدائم الباقي الذى لم يزل ، ولا يزول . وقيل : معنى الصمد : ما ذكر بعده من أنه الذى لم يلد ولم يولد . وقيل : هو المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد . وقيل : هو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب . وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول . وقيل : هو الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . وقيل : هو الكامل الذى لا عيب فيه ، وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبيرة وسعيد بن المسيب ومجاهد وعبد الله بن بريدة وعطاء وعطية العوفى والسدى : الصمد : هو المصمت الذى لا جوف له ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده عوايس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافى القول الأول ؛ لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل فى السيد المصمود إليه فى الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير ، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له خذها حذيف فأتى السيد الصمد
وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعا بنصف الليل واعتمدوا ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل ؛ للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة ؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى . وقيل : إن الصمد صفة للاسم الشريف ، والخبر هو ما بعده . والأول أولى ؛ لأن السياق يقتضى استقلال كل جملة . ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أى لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء ، لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولا لاحقاً . قال قتادة : إن مشركى العرب قالوا : الملائكة بنات الله . وقالت اليهود : ﴿ عزيز ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] وقالت النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] فأكذبهم الله فقال : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ . قال الرازى : قدم ذكر نفى الولد مع أن الولد مقدم ؛ للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله . واليهود : عزيز ابن الله . والنصارى : المسيح ابن الله . ولم يدع أحد له والدًا ، فلهذا السبب بدأ بالآهم فقال : ﴿ لم يلد ﴾ ، ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿ ولم يولد ﴾ كأنه قيل : الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد فى الماضى ، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك فى المستقبل ؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم : ولد الله ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولد الله ﴾ [الصافات : ١٥١ ، ١٥٢] فلما كان المقصود

من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى ، وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ : هذه الجملة مقررّة لمضمون ما قبلها ؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة ، كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله ولا يشاركه فى شيء . وأخر اسم كان لرعاية الفواصل . وقوله : ﴿ له ﴾ متعلق بقوله : ﴿ كفوا ﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام ؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته . وقيل : إنه فى محل نصب على الحال . والأول أولى . وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدم الظرف ، كان هو الخبر ، وها هنا لم يجعل خبراً مع تقدمه . وقد رد على المبرد بوجهين : أحدهما : أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً ، بل جوزه . والثانى : أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبراً ، ويكون ﴿ كفواً ﴾ متصفاً على الحال . وحكى فى الكشف عن سيبويه على أن الكلام العربى الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير مستقر ، واقتصر فى هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ، ولم ينظر إلى آخره . فإنه قال فى آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربى جيد كثير . انتهى . قرأ الجمهور : ﴿ كفوا ﴾ بضم الكاف والفاء ، وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع فى رواية عنه بإسكان الفاء . وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلًا ووقفًا . وقرأ نافع فى رواية عنه : « كفا » بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد . وقرأ سليمان بن على بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد ، وأنشد قول النابغة :

لا تقذفنى بركن لا كفاء له

والكفاء فى لغة العرب : النظير . يقول : هذا كفؤك ، أى نظيرك . والاسم : الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والمحاملى فى أماليه ، والطبرانى ، وأبو الشيخ فى العظمة عن بريد ، لا أعلمه إلا رفعه ، قال : الصمد : الذى لا جوف له ، ولا يصح رفع هذا . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال : الصمد : الذى لا جوف له . وفى لفظ : ليس له أحشاء . وأخرج ابن أبى عاصم وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن المنذر عنه قال : الصمد : الذى لا يطعم ، وهو المصمت . وقال : أو ما سمعت النائحة وهى تقول :

لقد بكر الناعى بخير بنى أسد بعمر بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال . وقد روى عنه أنه الذى يصمد إليه فى الخواج ، وأنه أنشد البيت ، واستدل به على هذا المعنى ، وهو أظهر فى المدح ، وأدخل فى الشرف . وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ،

وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : الصمد : السيد الذي قد كمل في سؤده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته . وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد . وهو الله سبحانه . هذه صفة لا تنبغي إلا له ، ليس له كفو ، وليس كمثل شيء . وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال : الصمد : هو السيد الذي قد انتهى سؤده فلا شيء أسود منه . وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : الصمد : الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء . وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ قال : ليس له كفو ولا مثل .

تفسير سورة الفلق

هى خمس آيات . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدينة فى أحد قولى ابن عباس وقتادة . وأخرج أحمد والبزار والطبرانى وابن مردويه من طرق ، قال السيوطى : صحيحة ، عن ابن مسعود ؛ أنه كان يحك المعوذتين فى المصحف يقول : لا تخطوا القرآن بما ليس منه ، إنهما ليستا من كتاب الله ، إنما أمر النبى ﷺ أن يتعوذ بهما ، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما ^(١) . قال البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة . وقد صح عن النبى ﷺ أنه قرأ بهما فى الصلاة ، وأثبتا فى المصحف ^(٢) . وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن زر بن حبیش قال : أتيت المدينة فلقيت أبى بن كعب ، فقلت له : أبا المنذر إنى رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين فى مصحفه ، فقال : أما الذى بعث محمداً بالحق لقد سألت رسول الله ﷺ عنهما ، وما سألتى عنهما أحد منذ سألته ^(٣) غيرك . قال : « قيل لى : قل ، فقلت ، فقولوا » . فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ ^(٤) . وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ سئل عن هاتين السورتين فقال : « قيل لى ، فقلت ، فقولوا كما قلت » ^(٥) .

وأخرج مسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزلت على الليلة آيات لم أر مثلهن قط : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ » ^(٦) . وأخرج ابن الضريس وابن الأنبارى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه فى الشعب عن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ، أقرئنى سورة يوسف ، وسورة هود . قال : « يا عقبة اقرأ ب ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فإنك لن تقرأ سورة أحب إلى الله وأبلغ منها ، فإذا استطعت أن لا تفوتك ، فافعل » ^(٧) . وأخرج ابن سعد والنسائى والبعثى والبيهقى عن أبى حابس الجهنى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا حابس ، أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ » ^(٨) . وأخرج الترمذى وحسنه وابن مردويه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من عين الجان ، ومن عين الإنس ، فلما نزلت سورة المعوذتين ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك ^(٩) . وأخرج أبو داود والنسائى ، والحاكم

(١) أحمد ٥ / ١٢٩ ، ١٣٠ والطبرانى (٩١٤٨ ، ٩١٥٢) .

(٢) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥١) عن عقبة بن عامر .

(٣) فى المطبوعة : « سألته » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) أحمد ٥ / ١٢٩ والبخارى فى التفسير (٧٩٧٦ / ٧٩٧٧) والنسائى فى التفسير (٧٦٤) وابن حبان (٧٩٤) .

(٥) الطبرانى (٩١٥١ ، ٩١٥٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٥٣ : « فيه إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف » .

(٦) أحمد ٤ / ١٤٤ ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٤ / ٢٦٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٧)

والنسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٥٥) .

(٧) صححه الحاكم ٢ / ٥٤٠ ووافقه الذهبى .

(٨) النسائى فى الكبرى فى الاستعاذة (٧٨٤١) والبيهقى فى الشعب (٢٣٣٩) ورجاله موثقون .

(٩) الترمذى فى الطب (٢٠٥٨) وقال : « حسن غريب » والبيهقى فى الشعب (٢٣٢٩) ورجاله ثقات .

وصححه عن ابن مسعود ؛ أن النبي ﷺ كان يكره عشر خصال ، ومنها أنه كان يكره الرقى إلا بالمعوذتين .

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من أحب السور إلى الله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . » وأخرج النسائي وابن الضريس ، وابن حبان في صحيحه ، وابن الأثير وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ، قال : أخذ بمنكبي رسول الله ﷺ ، ثم قال : « اقرأ » . قلت : ما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ . ثم قال : « اقرأ » . قلت : بأبي أنت وأمي ما أقرأ ؟ قال : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ولم تقرأ بمثلهما^(١) . وأخرج مالك في الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه ، كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتهما^(٢) . وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من طريق مالك بالإسناد المذكور^(٣) .

وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي ﷺ رجل من اليهود ، فاشتكى فاتاه جبريل ، فنزل عليه بالمعوذتين ، وقال : إن رجلاً من اليهود سحرك ، والسحر في بئر فلان ، فأرسل علياً فجاء به ، فأمره أن يحل العقد ، ويقرأ آية ويحل ، حتى قام النبي ﷺ كأنما نشط من عقال . وأخرجه ابن مردويه والبيهقي من حديث عائشة مطولاً . وكذلك أخرجه ابن مردويه من حديث ابن عباس . وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول الله ﷺ لهما في الصلاة وغيرهما أحاديث . وفيما ذكرناه كفاية . وأخرج الطبراني في الصغير عن علي ابن أبي طالب قال : لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي . فلما فرغ قال : « لعن الله العقرب ، لا تدع مصلياً ولا غيره » ثم دعا بماء وملح ، وجعل يمسح عليها ويقرأ : ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾^(٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ (٥) ﴾ .

الفلق : الصبح . يقال : هو أيمن من فلق الصبح . وسمى فلقة ؛ لأنه يفلق عنه الليل . وهو فعل بمعنى مفعول . قال الزجاج : لأن الليل يفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول .

(١) النسائي في الكبرى في الاستعاذة (٧٨٥٤) وابن حبان (٧٩٣) .

(٢) مالك ٢ / ٩٤٣ . ط . دار الحديث .

(٣) البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٦) ومسلم في السلام (٥١٩٢ / ٥١) .

(٤) قال الهيثمي في المجمع ٥ / ١١٤ : « رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن » .

يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول
ذى الرمة :

حتى إذا ما انجلي عن وجهه فلق هادئة فى أخريات الليل منتصب
وقول الآخر :

يا ليلة لم أنمها بت مرتفقا أرعى النجوم إلى أن نور الفلق

وقيل : هو سجن فى جهنم . وقيل : هو اسم من أسماء جهنم . وقيل : شجرة فى
النار . وقيل : هو الجبال والصخور ؛ لأنها تفلق بالمياه ، أى تشقق . وقيل : هو التفليق بين
الجبال ؛ لأنها تنشق من خوف الله . قال النحاس : يقال لكل ما اطمأن من الأرض : فلق ،
ومنه قول زهير :

مازلت أرمقهم حتى إذا هبطت أيدى الركاب بهم من راكس فلقا
والراكس : بطن الوادى ، ومثله قول النابغة :

أتانى ودونى راكس فالضواجع

وقيل : هو الرحم تنفلق بالحيوان . وقيل : هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من
الحيوان ، والصبح ، والحب ، والنوى ، وكل شيء من نبات وغيره . قال الحسن والضحاك :
قال القرطبي : هذا القول يشهد له الانشقاق ، فإن الفلق : الشق . فلفت الشيء فلقا : شققته .
والتفليق مثله . يقال : فلقت فافلق وتفلق . فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب
ونوى وماء فهو فلق . قال الله سبحانه : ﴿ فالى الإصباح ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وقال : ﴿ فالى
الحب والنوى ﴾ [الأنعام : ٩٥] . انتهى . والقول الأول أولى ؛ لأن المعنى وإن كان أعم منه
وأوسع مما تضمنه ، لكنه المتبادر عند الإطلاق . وقد قيل فى وجه تخصيص الفلق بالإيماء إلى أن
القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائد كل ما
يخافه ويخشاه . وقيل : طلوع الصبح ، كالمثال لمجىء الفرح . فكما أن الإنسان فى الليل يكون
منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح . وقيل : غير هذا ما هو
مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بـ ﴿ أعوذ ﴾ أى من شر كل ما خلقه سبحانه من جميع
مخلوقاته ، فيعم جميع الشرور . وقيل : هو إبليس وذريته . وقيل : جهنم . ولا وجه لهذا
التخصيص ، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية . وقد حرّف
بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرؤوا بتنوين : « شر » على
أن « ما » نافية ، والمعنى : من شر لم يخلقه . ومنهم عمرو بن عبيد ، وعمرو بن عائذ .
﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ الغاسق : الليل . والغسق : الظلمة . يقال : غسق الليل يغسق : إذا

أظلم . قال الفراء : يقال : غسق الليل وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا واشتكت الهيم والأرقا

وقال الزجاج : قيل : ليل غاسق لأنه أبرد من النهار . والغاسق : البارد . والغسق : البرد . ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العبث والفساد، كذا قال . وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين . ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أى دخل العذاب عليهم . ويقال : وقتب الشمس : إذا غابت . وقيل : الغاسق : الثريا . وذلك أنها إذا سقطت ، كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد . وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق . وقال الزهرى : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ، ولم يلاحظ معنى الغسوق . وقيل : هو القمر إذا خسف . وقيل : إذا غاب . وبهذا قال قتادة وغيره . واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذى وابن جرير وابن المنذر ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : نظر رسول الله ﷺ يوماً إلى القمر لما طلع فقال : « يا عائشة ، استعذى بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » (١) . قال الترمذى بعد إخرجه : حسن صحيح . وهذا لا ينافى قول الجمهور ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه . وهكذا يقال فى جواب من قال : إنه الثريا . قال ابن الأعرابى فى تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الرب يتحينون وجبة القمر . وقيل : الغاسق : الحية إذا لدغت . وقيل : الغاسق : كل هاجم يضر كائناً ما كان ، من قولهم : غسقت القرحة : إذا جرى صديدها . وقيل : الغاسق : هو السائل . وقد عرفناك أن الراجح فى تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول . ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ النفاثات : هن السواحر ، أى ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات . والنفث : النفخ . كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر . قيل : مع ريق . وقيل بدون ريق . والعقد : جمع عقدة . وذلك أنهم لن ينفثن فى عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول عترة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه وإن يعقد فحق له العقود

وقول متمم بن نويرة :

(١) أحمد ٢٣٧ / ٦ والترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٦٦) وقال : « حسن صحيح » وابن جرير ٢٢٧ / ٣٠ ، وصححه الحاكم ٥٤٠ / ٢ ، ٥٤١ ، ووافقه الذهبى .

نفث في الخيط شبيه الرقى من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات : هن بنات لبيد الأعصم اليهودي ، سحرن النبي ﷺ . قرأ الجمهور : « النفاثات » جمع نفثة على المبالغة . وقرأ يعقوب وعبد الرحمن بن سابط وعيسى ابن عمر : « النفاثات » جمع نافثة . وقرأ الحسن : « النفاثات » بضم النون . وقرأ أبو الربيع : « النفاثات » بدون ألف . « ومن شر حاسد إذا حسد » الحسد : غنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود . ومعنى « إذا حسد » : إذا أظهر ما في نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه ، وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود . قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد . وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للمحسود إذا تنفس طعنة يا ظالماً وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شره ، ومزيد ضره ، وهو الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ؛ فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فقراً : « قل أعوذ برب الفلق » فقال : « يا ابن عبسة ، أتدرى ما الفلق ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « بئر في جهنم » . وأخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع . وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ : « قل أعوذ برب الفلق » هل تدري ما الفلق ؟ باب في النار إذا فتحت ، سعرت جهنم » . وأخرج ابن مردويه والدلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل : « قل أعوذ برب الفلق » فقال : « هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتتعوذ بالله منه » . وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « الفلق : جب في جهنم » (١) . وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق : سجن في جهنم . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق : الصبح . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال : الفلق : الخلق . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله : « ومن شر

(١) ابن جرير ٢٢٧/٣٠ .

غاسق إذا وقب ﴿١﴾ قال (١) : « النجم هو الغاسق ، وهو الثريا » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع . وقد قدمنا تأويل هذا ، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ارتفعت النجوم ، رفعت كل عاهة عن كل بلد » . وهذا لو صح ، لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : الليل إذا أقبل . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ قال : الساحرات . وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : هو ما خالط السحر من الرقى . وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها ، فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً ، وكل إليه » (٣) . وأخرج ابن سعد وابن ماجه والحاكم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : جاء النبي ﷺ يعودني فقال : « ألا أريك برقية رقاني بها جبريل ؟ » فقلت : بلى بأبي أنت وأمي . قال : « بسم الله أريك ، والله يشفيك من كل داء فيك ، من شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد » . فرقى بها ثلاث مرات (٤) . وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال : نفس ابن آدم وعينه .

(١) في المطبوعة : « وقال » والصحيح حذف الواو كما بالمخطوطة .

(٢) ابن جرير ٢٢٧ / ٣٠ .

(٣) النسائي في الكبرى في المحاربة (٣٥٤٢) .

(٤) ابن ماجه في الطب (٣٥٢٤) والحاكم ٥٤١ / ٢ .

تفسير سورة الناس

هى ست آيات . والخلاف فى كونها مكية أو مدنية كالخلاف الذى تقدم فى سورة الفلق . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : أنزل بمكة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل بالمدينة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ . وقد قدمنا فى سورة الفلق ما ورد فى سبب نزول هذه السورة ، وما ورد فى فضلها فارجع إليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦) ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ قل أعوذ ﴾ بالهمزة . وقرئ بحذفها ونقل حركتها إلى اللام . وقرأ الجمهور بترك الإمالة فى الناس . وقرأ الكسائى بالإمالة . ومعنى ﴿ رب الناس ﴾ : مالك أمرهم ، ومصلح أحوالهم . وإنما قال : ﴿ رب الناس ﴾ مع أنه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس فى صدورهم . وقوله : ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جىء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملوك لما تحت أيديهم من ممالكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر . ﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان كالذى قبله ، لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى بالاتحاد والإعدام . وأيضاً الرب قد يكون ملكاً ، وقد لا يكون ملكاً ، كما يقال : رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله : ﴿ اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [التوبة : ٣١] فبين أنه ملك الناس ، ثم الملك قد يكون إلهاً ، وقد لا يكون ، فبين أنه إله ؛ لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد . وأيضاً بدأ باسم الرب ، وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس . ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق ، وأن خالقه إله معبود ، بين سبحانه أنه إله الناس ، وكرر لفظ الناس فى الثلاثة المواضع ؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ، ولأن التكرير يقتضى مزيد شرف الناس .

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء : هو بفتح الواو ، بمعنى الاسم ، أى الموسوس ، وبكسرهما المصدر ، أى الوسوسة ، كالزلال بمعنى الزلزلة . وقيل : هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة . والوسوسة : هى حديث النفس . يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ، أى حديثه حديثاً ، وأصلها الصوت الخفى . ومنه قيل لأصوات الحلى : وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت

قال الزجاج : الوسواس : هو الشيطان ، أى ذى الوسواس . ويقال : إن الوسواس : ابن لإبليس . وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة فى تفسير قوله : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ [الأعراف : ٢٠] ﴿ الخناس ﴾ : كثير الخنس ، وهو التأخر . يقال : خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله ﷺ :

فإن دخسوا بالشر فاعف تكرماً وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله ، خنس وانقبض . وإذا لم يذكر ، انبسط على القلب . ووصف بالخناس ؛ لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ [التكوير : ١٥] يعنى : النجوم ؛ لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم . وقيل : الخناس : اسم لابن إبليس كما تقدم فى الوسواس . ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ الموصول يجوز أن يكون فى محل جر نعتاً للوسواس ، ويجوز أن يكون منصوباً على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ . وقد تقدم معنى الوسوسة . قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له . وإذا ذكر العبد ربه ، خنس . قال مقاتل : إن الشيطان فى صورة خنزير يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه ، سلطه الله على ذلك . ووسوسته : هى الدعاء إلى طاعته بكلام خفى يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

ثم بين سبحانه الذى يوسوس بأنه ضربان : جنى ، وإنسى ، فقال : ﴿ من الجنة والناس ﴾ أما شيطان الجن فيوسوس فى صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فوسوسته فى صدور الناس أنه يرى نفسه كالتناصح المشفق ، فيوقع فى الصدر من كلامه الذى أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : ١١٢] ويجوز أن يكون متعلقاً بـ ﴿ يوسوس ﴾ أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة ، ومن جهة الناس . ويجوز أن يكون بياناً للناس . قال الرازى : وقال قوم : ﴿ من الجنة والناس ﴾ قسمان مندرجان تحت قوله : ﴿ فى صدور الناس ﴾ ؛ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس يسمى إنساناً . والإنسان أيضاً يسمى إنساناً ، فيكون لفظ الإنسان واقعا على الجنس والنوع بالاشتراك . والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روى أنه جاء نفر من الجن فقبل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجن . وأيضاً قد سماهم الله رجالاً فى قوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ [الجن : ٦] . وقيل : يجوز أن يكون المراد : أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس . وقيل . المراد بالناس : الناسى ، وسقطت الباء كسقوطها فى قوله : ﴿ يوم يدع الداع ﴾ [القدر : ٦] ثم بين بالجنة والناس ؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين فى الغالب مبتلى

بالنسيان . وأحسن من هذا أن يكون قوله : ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس ، أى من شر الوسواس ، ومن شر الناس ، كأنه أمر أن يستعيز من شر الجن والإنس . قال الحسن : أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتى علانية . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فتعوذ بالله من شياطين الجن والإنس . وقيل : إن إبليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الإنس ، وواحد الجنة جنى ، كما أن واحد الإنس إنسى . والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال . وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذى قدسنا . ويكون هذا البيان تذكير الثقيلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ، ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبى داود عن معاوية ^(١) فى قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : مثل الشيطان كمثّل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكت عاد إليه ، فهو الوسواس الخناس . وأخرج ابن أبى الدنيا فى مكاييد الشيطان ، وأبو يعلى وابن شاهين ، والبيهقى فى الشعب عن أنس عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسيه التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » ^(٢) . وأخرج ابن أبى شيبّة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : الشيطان جاث على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس . وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء فى المختارة ، والبيهقى عنه قال : ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ . وقد ورد فى معنى هذا غيره ، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان ، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة . ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيرى الدنيا والآخرة .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك بقلم مؤلفه محمد بن على بن محمد الشوكانى ، غفر الله له ذنوبه . وكان الفراغ منه فى ضحوة يوم السبت ، لعله الثامن والعشرون من شهر رجب أحد شهور سنة تسع وعشرين ، بعد مائتين وألف سنة من الهجرة النبوية .

اللهم كما مننت على بإكمال هذا التفسير ، وأعتنتى على تحصيله ، وتفضلت على بالفراغ منه ، فامنن على بقبوله ، واجعله لى ذخيرة خير عندك ، وأجزل لى المثوبة بما لاقيته من التعب والنصب فى تحريره وتقديره ، وانفع به من شئت من عبادك ليدوم لى الانتفاع به بعد موتى ، فإن هذا هو المقصد الجليل من التصنيف ، واجعله خالصاً لك ، وتجاوز عنى إذا خطر لى من

(١) فى المخطوطة : « ابن عباس » وفى الدر المنثور ٦ / ٤٢٠ : « معاوية » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧ / ١٥٢ : « رواه أبو يعلى ، وفيه عدى بن عمارة وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب (٥٣٦) وإسناده ضعيف .

خواطر سوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص ، واغفر لى ما لا يطابق مرادك ، فإنى لم أقصد فى جميع أبحاثى فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فانت غافر الخطيئات ، ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، يا بارئ البريات ، وأحمدك لا أحصى حمداً لك ، وأشكرك لا أحصى شكرك ، أنت كما أثبتت على نفسك ، وأصلى وأسلم على رسولك وآله . أ هـ .

تم سماعاً على مؤلفه ، حفظ الله عزته يوم الإثنين صبح اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة ١٢٤١ هـ .

كتبه

يحيى بن على الشوكانى

غفر الله لهما